

واسيني الأعرج



# طُوقُ الْيَاسْمِينِ

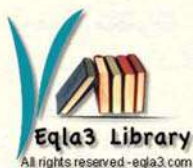
رسائل في الشوق والصبابة والحنين



الكتاب مُهدى إلى الأخت الفاضلة

@7LLa

ketab.me



واسيني الأعرج

طُوقُ اليَاسَمِينِ

Twitter: @ketab\_n



الكتاب

طَوْقُ النَّاسِمِينَ

تأليف

واسيني الأعرج

الطبعة

الأولى ، 2004

عدد الصفحات : 288

القياس : 14.5 × 21.5

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب : 4006 (ميدنا)

42 الشارع الملكي (الأحياس)

هاتف : 2307651 - 2303339

فاكس : 2305726 - 212 2 +

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 352826 - 750507

فاكس : 343701 - 961 1 +

إليك أيتها الصديقة الغالية : زينب  
شكرا لك فقد منحني حبك وصبرك فرصة أخرى لأن  
أكون كما أشتهي، في أصعب الظروف وأحلكها، وأنظر  
بعين أخرى للجنون والأقدار الصعبة التي كادت أن  
تعصف بنا في الصيفين الهمجيين من ستي 1984 و1994  
حيث تواطأ ضدنا العميان والقتلة والمأزومون .

والى

صديقي الحاضر دوما : عيد عشاب  
الذي انسحب بصمت من الدنيا مثلما جاءها بعد أن فتح  
لي باب الياسمين وكشف لي أنواره وأسراره . عاش ما  
كسب، مات ما خلى . عشتَ وحيدا يا صديقي ومثَّ  
وحيدا بعد أن نسيتك بسرعة الذين عرفوك وخدمتهم  
بطيبتك المعهودة وتفانيك .



«وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا مَمَرٌّ وَمِخْنَةٌ وَكَدَرٌ، وَالْجَنَّةُ دَارُ جَزَاءٍ وَأَمَانٍ مِنْ  
الْمَكَارِهِ، لَقُلْنَا إِنَّ وَضَلَ الْمَحْبُوبِ هُوَ الصَّفَاءُ الَّذِي لَا كَدَرَ فِيهِ.»  
طوق الحمامة: ابن حزم الأندلسي

**Chuuunt...**

Silence, ou il va s'envoler.

La brutalité l'effraie.

Approchons ses soupirs d'un souffle léger.

Ne le reveillez pas,

Laissez-le au moins rêver.

**L. Rym.<sup>(1)</sup>**

---

(1) شششت . . .

بهدهء وإلا سيطير،

الخشونة ترعبه .

فلنحاذي آلامه، بأنفاس ناعمة،

لا نوقظوه، اتركوه على الأقل يحلم.



سيلفيا؟

هي هي لم تتغير كثيرا . كانت هناك واقفة على القبور المنسية ، مختبئة في المانطو الداكن الفضفاض وعلى رأسها قبعتها السوداء وشاش خفيف كان يغطي وجهها بالكامل ، مثلما تعودت أن تفعل كل يوم جمعة منذ قرابة العشرين سنة . لم تكن هناك من أجلي ولكنها كانت تنتظرنني . جورج أخوها ، عندما سألته عنها البارحة ، أخبرني بطقسها الأسبوعي وأخبرها بوجودي في هذه المدينة التي شهدت انطفاء الذين نجبهم ونصرّ على ألا تنسأهم رغم العزاءات الفاشلة ورغم غوايات الدنيا .

مريم؟

بقايا الأبجدية المستحيلة ، هل تدرين؟

بعد عشرين سنة لم أفعل شيئا مهما سوى البحث عنك . أعود إلى هذه المقبرة التي صارت اليوم وسط المدينة بعد امتداد العمران بشكل جنوني إليها ، أقف على هذه الشاهدة الصغيرة التي كتب عليها كما اشتبهت في وصيتك :

ضيقة هي الدنيا . ضيقة مراكبنا . للبحر وحده سنقول ،  
كم كنا غرباء في اعراس المدينة .

\* \* \* \*

تمنيت أن أعيش طويلا لأحبك أكثر  
ولكن الأقدار منحتني فرصة الشهادة قبلك  
لتكون أنت المطالب بحبي وبتحمل غيابي.

سيلفيا لم تتحرك. كانت مثل التمثال. تقف بدورها في مواجهة  
شاهدة عيد عشاب التي كتب عليها الاسم واللقب وتاريخ الوفاة وهذه  
الجملة بخط بارز:

«عاش ما كسب، مات ما خلى»

كل صباح يوم جمعة تأتي سيلفيا إلى هذا المكان بعد أن تترك كل  
شيء وراءها، ابنها وأمها المقعدة، تقف قليلا على قبر مريم وسارة  
الذي زينه بالترجس وشجيرات الياسمين، لتقضي بعد ذلك بقية وقت  
الزيارة وهي تدور حول قبر عيد عشاب الذي ينام وسط محيط صغير  
يملاه نوار الدفلى الأحمر والأبيض والبنفسجي، وتنظفه مع حارس  
المقبرة من الأعشاب الضارة. القبور أيضا تموت بالنسيان. وتمضي  
صبيحة يوم الأحد على قبر والدها تقوم بالشيء نفسه.

هذا الصباح جاءت قبل الوقت المعتاد بقليل. قامت بطقوسها لتقف  
أخيرا عند قبر عيد عشاب. اللباس الأسود أعطى لبياض بشرتها حضورا  
كبيرا. السنوات لم تفعل الشيء الكثير فيها على الرغم من أن الدنيا  
تغيرت كثيرا.

لم تندesh عندما وضعت مذكرات عيد عشاب بين يديها. قبلتها  
كمن يلثم كتابا مقدسا ثم وضعتها على صدرها وضمتها بقوة.  
قلت:

- أنتِ أولى بها مني. ضعها في عينيك.

تمتمت:

- تأخرت؟ لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟ كنت أعرف أنك ستأتي  
يوما وستمنحني هذه السعادة الكبيرة. منذ عشرين سنة وأنا آتي إلى مدن  
الأموات، أعاتب والدي يوم الأحد، في المقبرة المسيحية، على حماقاته

القاتلة، ويوم الجمعة أبكي قليلا على سارة التي لم تر شيئا من الدنيا سوى أمها، فقد كانت الوحيدة التي تعرف سر أنيها ثم أقف على مريم التي خادعتنا وذهبت بسرعة وتركنا مذهولين. قبل أن أنزل نحو قبر عيد عشاب لأقضي بقية الصبيحة بجواره، أزيل عنه برودة العزلة وظلم الآخرين. أتساءل اليوم، ما الذي يجمع بين عيد وبين والذي في العالم الآخر؟ هل يلتقيان بعد أن احتضنتهما نفس التربة التي رفضاها في الحياة؟ هل يتكلمان مع بعض؟ ماذا يقولان؟ أعرف أن قلب عيد هش ويمكن أن يتسامح ولكني أعرف أيضا أن والذي صعب جدا وقاس ولكنه لا يستطيع أن يشيح بوجهه مدة عشرين سنة وأكثر.

نظرت سيلفيا قليلا إلى المذكرات. فتحتها بعفوية في آخر صفحة متجاوزة كل البياضات. تحسست الكلمات كمن يلمس أجنحة وألوان فراشة يخاف عليها من التلاشي والاندثار. لا أدري لماذا نذهب دائما نحو آخر الصفحات عندما يتعلق الأمر بأشواقنا وأحزاننا التي نكتبها؟ ربما لمباغطة الأقدار التي لا تمنحنا دائما وقتا كافيا لإتمام رحلتنا في الحياة كما ننتهي.

قرأت وهي تحاول أن تلمس بعينين دافنتين ما يختبئ بين الحروف المتزاحمة:

«باب الياس: حبيبتي سيلفيا... من أين أبدا هذا الألم وهذا الحزن الذي صار مثل الفيض يملأني ويقودني نحو ياسي الكبير؟ كل أصدقائي انسحبوا من هذه المدينة وبقيت وحدي. البارحة رأيت حلما أخرجني من وضع وادخلني في وضع آخر. رأيت سيدي الأعظم محي الدين ابن عربي مرتديا لباسا خيوطه من الحرير الأبيض والفضة. في يده اليمنى عصي من قصب البانوب، يتكئ عليها كلما شعر بالتعب. طلب مني أن أتبعه نحو طوق الياسمين أو الباب كما يسميه البعض. كنت أعرف أنه يقودني نحو الموت ولكني لم أتردد لحظة واحدة. كانت رائحة الياسمين والنباتات الاستوائية قوية. فجأة قام من قدام أرجلنا سرب من الطيور الملونة والفراشات، عرفت أننا صرنا قرييين من المصبات المائية. مشينا

قليلًا وإنّ بالماء ينهض أماننا مثل الشلالات. سألت عن الدليل، قال لي سيدي الأعظم وهو يضع يده الزكية على فمي: شششتتت، لقد مات منذ أكثر من قرن. جئت لأخذك معي فأنا أعرف باب العبور نحو النور جيداً. سألته، وكيف ستفعل يا سيدي وأنت لا تملك عوامة ثم أن هذا النور يخيفني يا سيدي الأعظم. قال مرة أخرى وهو يضع أصابعه على فمي: شششتتت... النور نعمة. ثم أخذني من يدي. شد علي جيداً وبدأ يمشي على الماء كمن يمشي على اليابسة، وسط الضباب والأنوار التي عمّنتي ولم أعد أرى شيئاً. شعرت بالخوف: أنا خائف يا سيدي. الغشاوة أعمّنتي. ولكنه طمأنني بأننا بدأنا نقطع باب العبور نحو اللامكان. ثم فجأة سمعت عواء مخيفاً أتيا من هضبات الزبداني الخالية، فقلت: يا سيدي الأعظم، الذئاب. أخشى يا مولاي أن يكون اللامكان كذلك مليئاً بالذئاب؟ نظر إلى وجهي بملامح غريبة تحولت فجأة لتصير كالحة ومكفهرة. شعرت بالظلام يملأ عيني، ثم سحب يده من كفي وتركني أغرق وهو يتشفى في: الآن عم بحرك. جئت لأفك وثاقتك وأنقذك ولكن خوفك حرك حتى الذئاب التي ماتت منذ قرون. إذهب فانت الطليق وعم بحرك. فقلت: لا أعرف العموم. قال: إذن أغلق عينيك وفمك وسد أذنك وأترك نفسك تتهاوى نحو القاع، فهناك من ينتظرك لتصير طعماً له. زاد خوفي. عرفت أن سيدي كان يدعوني نحو المقاومة وعدم الاستسلام أمام المصاعب، فحاولت ولكن قواي الداخلية وقناعاتي كانت ضعيفة جداً ومهتزة. وعندما سدت المياه فمي، استيقظت فجأة وأنا ارتعش طالبا العذر من سيدي الأعظم.

أرأيت يا سيلفيا؟ سهام ماتت في الوقت الذي كان ينتظر الأصدقاء مناقشتها لموضوع العمر التي قضت فيه زهرة شبابها ولم يسمع أحد في هذا القفر أتيناها غيري. أبوك أقسم أن لا تلمس جسده يد مسلم وهو لا يعرف أن لا سلطان على الجسد أبداً. أصدقائي ذهبوا أو يستعدون للعودة إلى أرضهم الأولى. حتى سيدي الأعظم تخلى عني؟ لم يبق لي أحد. لا ذنب لك ولا ذنب لي أيضاً في كل ما حصل ويحصل لنا، كلانا ضحية كيانات مفلسة. أبوك رفض سعادتنا والدي رمانني في برية كاي

حيوان ثم ضاع في قفر الربع الخالي. اليوم وأنا في كامل قواي العقلية، صممت أن أخطو الخطوة الكبرى التي تقترب عنها كسورات كثيرة ولكنها منقذة للروح. أريد اليوم أن أحرك مني لتتمكني من رؤية الدنيا بوضوح أكثر. بدءاً من هذه اللحظة قررت أن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات القلقة وإن اذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في الكون. تعبت من اللاجدوى ولم يبق لي ما أقوله لحياة قلقة لم تعد تأبه بي كثيراً ولا تسمعني جيداً ولا تتذكرني إلا بمزيد من الأمراض والمآسي. شكراً لحبك، فقد كان فيه الكثير من نبلك».

من أوراق عيد عشاب.

ثم قلبت الصفحة. قرأت: باب «طوق الياسمين». بحثت عشاً عن النهاية. السبعون صفحة التي تلت هذا العنوان كانت عذراء وفارغة. علا الأوراق نوع من الاصفرار والقدم، كأنها كتبت قبل زمن وإمحت بفعل الوقت والرطوبة والسيان. أشهد أنني منذ أن سلمني عيد عشاب حرائقه، لم أر شيئاً مكتوباً في هذا الباب. المذكرات كانت دائماً على هذه الصورة.

ارتعشت أناملها وكأن برودة قاسية دخلتها فجأة. أغمضت عينيها قليلاً لمقاومة الدمعات والارتجافات التي ارتسمت في المحجرين. تمتعت بحرقه:

– لماذا لم يكتب شيئاً في باب «طوق الياسمين» وهو الذي كان يعرف المكان جيداً ويتمنى أن يموت وهو على العوامة مثلما فعل شيخه الأكبر أو سيده الأعظم: محي الدين بن عربي عندما سدت الدنيا مغالقها في وجهه؟ عيد ترك هذا الباب أبيض ربما لأن القدر لم يمنحه بعض الوقت للعبور نحو هذا الباب.

– لا أدري. السؤال نفسه طرحته على نفسي مراراً ومازلت. صفرة الأوراق توحي بأن شيئاً كُتب وتلف مع الزمن، لأن لون الأوراق التالية للسبعين صفحة، بيضاء وصافية. ربما كان هذا الباب هو الوحيد الذي

لم يستطع فتحه بسبب صعوبة القصى . لقد دخل كل الأبواب حاملا أشواقه وخفائاه الصغيرة . كان دائما يقول على لسان معلمه الأعظم وسيده إنه أصعب الأبواب لأنه مثل الطوق ، وأكثرها انسدادا ، إذ يجد المرء نفسه في دائرة مغلقة إذا لم يكن من العارفين . الباب الذي يأتي بعده النور الذي يعمي الأبصار ويورث الدوخة ويصيب العيون بالغشاوة . باب كل المزالق والمهالك . من الأفضل بالنسبة للذي لا يعرف مسالكه أن يعبر من الطريق العام المخصص للزوار والسواح .

- هذا هو عيد عشاب . عندما يشرب العرق يصير حزيننا كالمنسحق وصافيا كدمعة وخفيفا كريشة . كم أتمنى لو كان إنسانا تافها أو عاديا لنسيته بسرعة وانصرفت للحياة ولكنه كان شيئا آخر . لم يشبه أحدا ولم يكن أحد يشبهه . العزاء مع هؤلاء الناس يزداد صعوبة ، بل يصير فعلا مستحيلا . تزوجت ، عفوا انتحرت مثلما أراد لي والدي لأن عيد رفض أن يهرب معي خارج المدينة . أحيانا ألومه على تعقله في أكثر المواقع جنونا وفي أحيان أخرى أعذره . الحب عندما يصير رزينا يصير شبيها بالواجب وكنت أرفض أن يتحكم الواجب في علاقتنا .

- لهذا لم يعد من حقى اليوم الاحتفاظ بهذه المذكرات . من كثرة قراءتها ، حفظتها حتى سجتني كلماتها . فقد ظل عيد عشاب يحبك حتى لحظة انسحابه اليائس من الدنيا . تكفيني اليوم رسائل مريم . فهي حمل ثقل ، من الصعب علي تحمله .

- عشرون سنة وأنا أقاوم عبثا شططه وها أنت اليوم تضيف إلي شقائي حزنا آخر . هو على الأقل ذهب وارتاح . ربما . . . كم أشتي أن أنساه لأتفرغ لأبني وأمي وزوجي ولكني مريضة به ويبدو أنني سأنقله معي إلى القبر بعد أن سحبت ورائي إلى أكثر الأماكن حميمة .

- محنة العاشق أنه لا ينسى أبدا .

- لا ينسى فقط؟

الضباب يزداد كثافة . الصمت المطلق لولا زخات المطر الذي كان

يتسرب بين الأتربة الجافة والنباتات الصغيرة التي كانت تملأ الممرات  
الخالية من القبور.  
لا أحد غيرنا في المقبرة.

عشرون سنة انطفأت. أشياء كثيرة تغيرت. الأرض التي أحببنا  
صارت مريضة، الناس الذين قاسمونا النور والقراش والحزن تغيروا، منذ  
ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا. من مات مات، ومن امتطى الريح أو  
البحر فعل ذلك بدون تردد، وبقينا نحن هنا، بالضبط كما تركنا للمرة  
الأخيرة، على حافة هذا البحر المنسي، نحسب السنوات والوجوه  
والصور التي مرت بكثير من الحزن والصبر.

شاق هو الفراق الأبدي ومع ذلك علينا أن نتدرب على النسيان  
لنستطيع العيش. لم يبق من الوقت الكثير، يجب أن نفرق وأن نمحو  
من الذاكرة أنا التقينا ذات ليلة باردة.

بعد كل هذه السنوات القلقة، المتواطئة ضدنا وضد الحياة، سيأخذ  
كل واحد طريقه وسيمتطي كل منا، في هذا الزمن الموحش، موجته التي  
ستقوده نحو قدره لمواجهة عزله وخوفه وربما موته، وحيدا مثلما جاء  
لأول مرة إلى هذه الدنيا.

شكرا على صبرك يا مريم. سأرحل. أنا كذلك تعبت. أعرف أن  
الموت لا يتيح فرصا كبيرة للندم ولا للحزن، ومع ذلك أقول لك عذرا.  
عذرا، فقد تركتك تموتين ولم أعرف كيف أحبك.  
تركتك تموتين ولم أعرف كيف أحبك.  
تركتك تموتين ولم أعرف...



الفصل الأول  
سحر الحكاية



كيف أحبك؟ ...

لا أعرف. انغلقت إرادتي وتعمق الزمن الموحش فيّ وانفتحت كل حواسي على البياض.

لقد تواطأ البرد والوحدة على هذه المقبرة فزادت توحشا. الشتاء قاس، ونسيت أن كل شيء يتغير في هذه المدينة إلا فصولها، فهي تظل ثابتة. أدخل رأسي داخل المعطف الخشن وأفرك يدي مثل الذي انتصر أخيراً على قسوة الزمن حتى أشعر ببعض الحرارة:

ها أنذا اليوم أسلك المعابر الأكثر حزناً وعزلة وأسألك مريم، كما وعدتك قبل عشرين سنة وقبل أن أعود إلى أرضي وأترك هذه المدينة نهائياً: هل أنت سعيدة؟ هل تشعرين بالبرودة التي كانت تخيفك وتخيف أمك؟

أدرك اليوم وأنا أبحث عن أقرب السبل لعزائي، أن قصتنا لم تكن أبداً ككل القصص.

«Tout simplement un grand gachi, une grande amertume et un goût d'inachevé. Dommage pour une si belle histoire.»<sup>(2)</sup>

من أين يأتي هذا الصوت الصافي مثل شعاع شمس صباحية؟ مريم؟

---

(2) بكل بساطة، خسارة كبيرة ومرارة ما تزال عالقة في الحلق. قصة جميلة مثل هذه تضيع؟ مؤسف.

لا. لقد انتهى كل شيء. مريم انسحبت بدون ضجيج كبير. اختارت مستشفى الرازي وسارة وأكثر الأيام مطرا وبرودة وخرجت بدون أن تقول لأحد كلماتها المعتادة: تصبحون على خير يا أهل الخير، غدا يوم آخر. انطفأت في تلك الليلة الباردة كما تنطفئ النجمة الهاربة في سماء جافة وانحدرت نحو فراغات السواد ثم سدت وراءها كل أبواب السماء ولم تلتفت وراءها. مريم لا تحب الحلول الوسطى، إما الحب بجنون أو الموت بدون تردد. أتساءل أحيانا لماذا نحن في هذه البلاد بكل هذا القدر من المبالغة في كل شيء. لا يمكن أن نرتاح إلا عندما نصل إلى النقطة العالية التي يتساوى فيها الحب بالكراهية؟

في مثل هذه المدينة، في مثل هذا الشهر الشتوي البارد وفي مثل هذا اليوم، انطفأت مريم وهي تعطي الحياة لكائن لم تبق معه إلا دقائق معدودات، رآته ثم تمتعت، تقول سيلفيا: ياه؟ لو كنت هنا لكنت أول من يرى سارة. ما عليها غدا عندما نستيقظ أتمنى أن تكون أنت أول من تراه سارة. الوجه الأول حاسم في حياة الطفل. تأملتها قليلا ثم أغمضت عينيها ونامت بهدوء لم يستطع أحد إيقافها بعد ذلك وكأنها فجأة أصيبت بتخمة حب من محيطها الفاسي.

### «أستطيع اليوم أن أموت بدون خوف.»

جملتك الدائمة. خلثك تتممين وأنتِ تودعين آخر خيط شمس بارد انكسر من وراء زجاج قاعة التوليد في مستشفى الرازي أو وأنتِ ترتاحين قليلا من شطط الكتابة، القلم في فمك ونظراتك تحوم بعيدا خارج القاعة التي لا يورث بياضها إلا المزيد من الوحشة، تفكرين في الجمل التي لم يمنحك القدر وقتا كافيا لإخراجها من العمق. يأتيني صوتك من بعيد محملا بالعطر الذي كنت تضعينه لآخر مرة وأنت تغادريني في حي سوق ساروجا الشمعي، وبإيقاعات رافي شنكار Ravi Shankar والشيخ العفريت، التي كنت كلما سمعتها تأخذك بعيدا نحو بحر لم يعد اليوم إلا سحابة صغيرة لا ماء فيها؟

صباح الخير يا مريم. صباح الخير يا روحي.

تضعين رأسك بين يديك . . . صباح الخير . . . ياه؟ من أين يأتي كل هذا الوجع هكذا دفعة واحدة؟ من الصعب علي أن أتحمل كل هذه الصدف القاسية لوحدي .

أرجوك يكفيك من هذه الكآبة . الصمت قاس ومؤذ يا سيدة النور والفجعية . قومي ، البحر اليوم فتح أشرعت . سان جون بيرس الذي سلب عقلك وهبّلي معك ، كان مخطئا . المراكب ليست ضيقة والقلوب لم تفقد اتساعها والمحيطات لم تجف والبحر لم يرحل والأمواج ما تزال هنا ، تنتظر مرور الغرباء والمحزونين . أراك الآن بكل طولك وأنت تقفين وسط الصالون مثل الممثلة التي تؤدي مقطعا حاسما من مسرحية كلاسيكية ، بين يديك ديوان سان جون بيرس ، تتلففين الكلمات من فمه كعصفورة :

ضيقة هي المراكب .

ضيق سريرنا .

للبحر وحده سنقول :

كم كنا غرباء في أعراس المدينة .

- يا الله من أين يأتي هذا الرجل بكل هذا السحر . تعرف وصيتي عندما أموت ما هي؟

- يزي من التمسخير . عقلية مكرفسة . فكري في الحياة أولا قبل الذهاب نحو الموت .

- وحياتك أنا جادة .

- ومتى كنت غير جادة عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الشعر والموت وسان جون بيرس؟ كأنك تريدان استباق الزمن .

- بالفعل أنا جادة . أتمنى أن توضع على قبري هذه الأبيات . لقد لامس عمق الأشياء الدقيقة في برؤوس أنامله وكلماته الدافئة مثل نور شمعة معزولة في عمق الصحاري .

- إن شاء الله .

أقولها للخروج من المأتم وحالة الموت. لم أكن أعرف أن يدا خشنة كانت تخط على بياض الغيم أقوالي لتشهديني على تواطئي مع الأقدار القاسية.

ثم... لا تتوقف. تواصل فلي الكتاب حرفا حرفا وكلمة كلمة بحثا عن أجمل الهزات والرعشات التي تخلفها الأشياء الجميلة. عن أسئلة البدايات التي كانت تشغل أشواق عيد عشاب ونؤرقه.

«باب البدايات: أصعب الأشياء في الحياة هي البدايات. عليها تترتب كل الحماقات اللاحقة. لأول مرة أنظر إلى الشمس في هذه المدينة بعينين مفتوحتين عن آخرهما فلم أر لا أشعة ولا بياضا ولا حتى تلك الانكسارات الملونة التي تعودت رؤيتها كلما واجهت الشمس بعيون عارية ولكني رأيت والذي الذي نسيني في هذا القفر وهو يركض نحو السواد، تاركا وراءه امرأة طيبة، تنتظر يوميا عودته على الحافة الفاصلة في حي الزاوية في مدينة تبسة، بين المقبرة والمدينة، حتى صارت مثل السراب. أعتقد جازما أن الشمس انسحبت وأن كل ما كنت أراه هو مجرد بقايا انكسارات هائلة وشظايا كانت تنطفئ الواحدة تلو الأخرى.

آه يا أبي، ماذا فعلت؟»

من أوراق عيد عشاب

تباغتني الذاكرة في خلوتي، ضاربة عرض القلب بكل أسراري .  
غرباء كنا، الوطن في القلب والأحراش والمدن الساحلية والناس الطيبون  
والأشواق الصغيرة والأسئلة التي ظلت عبثا تبحث عن أجوبتها  
المستحيلة .

كنتُ في ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا، الكاتب العاشق،  
الغارق في الأبجديات الغامضة . وكنتِ الطفلة المعشوقة التي لم يكفها  
اتساع القلب لاحتضان الدنيا .

هكذا تقاسمنا الأدوار بعفوية واتفقنا منذ بداية القصة، وهكذا عشنا  
قبل أن نفرقنا حماقة الكبرياء والأفكار المعطلة ثم . . هذا العبث الأبله  
والغريب الذي اسمه الموت . هل كان من الضروري أن نفرق لندرك كم  
كنا في حاجة لأن نبقي قليلا لنقول ما لم نستطع قوله؟ أو ما أخفقنا في  
قوله؟ هل ما حدث بيننا كان مجرد قصة حب من فرط الفقدان والخوف،  
صدقنا أنها الحقيقة المطلقة؟ أم خطوة أولى بدل أن تقع على اليابسة  
ابتلعناها هوة الفراغ؟

«باب الخطوة الأولى: أصعب الأشياء لدى الطفل الخطوة الأولى.  
اليوم قمت بشيء استثنائي. بالضبط، هذه الخطوة الأولى. عرفت اسمها  
بعد أن استطعت الخروج من مخبئي من وراء البرادي (الستائر) التي  
تمكنني من رؤية سيلفيا وهي تغير ثيابها الداخلية. كانت الخطوة جبارة.  
دعوتها للقاء خارج البيت بورقة رميتها من شرفتي نحو شرفتها. كنت  
خائفا. عندما وصلت، وجدتها هناك. قدمت لي أخاها جورج الذي انسحب

بسرعة وتركنا لوحدها. تكلمنا في كل شيء ولا شيء. وبعدها ذهبنا لرؤية فلم: Le desert rouge بصالة الكندي. حكّت لي كثيرا عن تشدد والدها وعن رغبته في تزويجها مع ابن عمها ولكنها ترفض وتقاوم لأن أخاها جورج يساعدها على تجاوز محنتها. كدت أقول لها أعتبريني أخاك الثاني ولكنني صمت وفضلت الاستماع لها لأنني كنت في وضعية الله وحده كان يعلم قسوتها. أشعر بالفعل أن تجربة جديدة في حياتي قد بدأت. المرأة التي كنت أظن أنها ستوبخني لاختبائي وراء البرادي لرؤيتها وهي تغير ثيابها، لم تقل شيئا، أكثر من ذلك، فقد حدثتني وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد. يبدو لي اني بالفعل أسعد مخلوق في الدنيا.»

من أوراق عيد عشاب.

### هل الإجابة عن الانشغالات القاسية ضرورية؟

اليوم كلما ملأني الشوق إليك، أتساءل بدون أن أستطيع الحصول على إجابة، ربما لأنني لا أبحث عنها: لماذا لم تغير عشرون سنة أي شيء في حبي لك؟ كم أتمنى أن أعيش عزائي وأنساك دفعة واحدة ولكنني كلما حاولت أخفقت وازدادت وحدتي التصاقا بك. هل صحيح أن الميت يرتاح عندما يتبعثر نجمه في السماء ويتحول الكل إلى رماد بدون رائحة؟ هل صحيح أن المحب لا ينسى ولكنه يتناسى؟ أخاف أن يكون ما يحدث لي اليوم هو بداية شطط آخر أكثر قسوة من الحياة؟ لا أعرف ولا أدري حقيقة إذا كان يهمني كثيرا أن أعرف. التفاصيل أحيانا مرهقة. ماذا علي أن أعرف أكثر من الفقدان وظلم الحياة القاسية؟ لا أبحث عن الشيء الكثير سوى عن فسحة صغيرة للعزاء ومحاولة النسيان. أحيانا أقول في خاطري وأنا أفتش عن النور المخبأ في، إن أطرف كذبتين وجدهما الإنسان لمقاومة ظلمة الموت والقبر البارد هما: العزاء والنسيان بينما هما وجهان لعملة واحدة مرتسمة في دمه.

وهل يقدر الإنسان أن ينسى دمه؟

Basta ! خلاص . الآن سأقول كل شيء .

هكذا إذن ، تقتلني بحبك وبصمتك ؟

دعني أقول لك أولاً وأنت غائب عني هذا المساء في مكان لا أعلمه : كل عام وأنت بخير حبيبي . دمت للفرح والسعادة . اعذرني ، أنا دائماً أصل متأخرة عندما يتعلق الأمر بالمواعيد الحاسمة . لم أهدك شيئاً بمناسبة حلول السنة الجديدة . أحسبها علي . حسبي أن أهديك هذه المرة قلبي . قلبي فقط وأشواقني وحنيني الذي لا يموت .

هل تكفي الكلمات ؟ أريد أن أمنحك حروفاً أكثر دفئاً ووضاءة وربما أكثر . لا تغضب من السنوات التي تمر بسرعة . مجرد التفاتة صغيرة للزمن الذي لا يابيه بنا كثيراً .

سنة تنسحب وأخرى تأتي وأنت مازلت هنا ، تنظر إلى المبهم وتنتظر عودة أمطار الطفولة كما كنت تقول لي ، لنستطيع أن تتم أغنيتك التي بدأتها وتوقفت في منتصفها . لم تنتها لأنك رأيت في ذلك اليوم والدك وهو يغمض عينيه للمرة الأخيرة على الثلوج والبروق محاولاً أن يعثر على وجوهكم البعيدة وسط القنوط المعتم وبرودة المنافي . مع بداية كل شتاء تنتظر أمطار الطفولة الأولى لتواصل نشيدك المكسور ولهذا تكره المطريات لأنها تحرمك من متعة الماء والغناء :

يا النو صبي ، صبي ،

ما نصبيش عليّ .

حتى يجي خويا حمّو،

ويغطيني بالزربية . . .

تضحك مني؟ إضحك، لن أزعل منك لأنني صممت أن أضع حدا لصممتي . أشتهي اليوم أن أكتب لك لأقول لك بكل بساطة أحبك . نُحبك ونُموث عليك يا دينك وأنت لا تعرف شيئا أو تتعامى عن حرائقي . ارفع رأسك قليلا وتأملني في وجهي مباشرة . هل ترى شيئا؟ كلمة ترقص في عيني منذ زمن بعيد ولم أعد اليوم قادرة على لجمها: أحبك . حروف ليست بكفية الحروف وكأنها ليست من الأبجدية التي تتداولها يوميا آلاف المرات ، لا أنجراً على قولها أمامك ولا أدري إذا كنت أخاف ردة فعلك أم أخافها؟ أحبك ومن بعد واش راح يصير؟ إذا شئت قاسمني هواجسي وإذا لم تشأ لقلبك حريته وراحته ولعمري عزلتها وشططها وحزنها والسلام .

**Basta. C'est à dire Basta. Je suis très fatiguée.**<sup>(3)</sup>

منذ زمن وأنا أقاومك ولكن الشتاء يفتح شهيتي للحماقات . كلما عاد، شعرت بنفسني ممثلة بك ولا أستطيع مقاومة شهوة الكلمات . البرد والأمطار والثلوج والإبقاعات الحزينة تقربنا من بعض لدرجة النسيان والتلاشي . لو تدري كم أحبك وكم أن عودة الشتاء تؤذيني لأنني أخاف فقدانك وأسأل نفسي ماذا يحصل لي لو فقدت وجهك وسرق الموت أحداً؟ في كل مرة أقول ربما كانت هذه آخر الكلمات وآخر النبضات ومن يدري ربما آخر مرة أهتف فيها باسمك وأقول لك صباح الخير حبيبي . صباح المطر يا شوقي . كل سنة وأنت بخير . وترد أنت عليّ : صباح المجانين والسعادات التي لا حصر لها . كل سنة وأنت رائحة .

هكذا نلتقي وهكذا نفرق . أرايت كيف يختم الشتاء بأصابمه الباردة

---

(3) يكفي، يعني يكفي . أنا متعبة جداً .

على كل الأشياء الجميلة؟ هذه السنة لم تكن مثل السنة التي مضت، فقد مرت بسرعة وكانت مليئة بالمفاجآت الكبيرة. سنة واحدة معك، وأقل من ذلك، كانت كافية لأن تدمر كل يقينياتي بالحياة وتدخلني داخل مسالك ومهالك مدهشة لم أعود عليها. أرأيت كيف نمر الأشياء الجميلة بسرعة غريبة؟ من يصدق أن كل شيء بدأ بسؤال صغير ثم وريقة طائشة حطت بين يديك ثم أوراق ورسائل وكتابات صار من الصعب علي مقاومة اندفاعها في لأصير مثلك في النهاية مريضة بما يمكن أن تمنحه لي الكلمات من سعادة صغيرة حتى ولو كانت مؤقتة. لقد صرت في وأستطيع أن أشهد أنني أحبك أنا التي كانت تظن أنها نهز شهوة الرجال ولا يهزها رجل مهما كان. فكل الرجال كانوا يلدون لي شبيهين بوالدي. أراك باستمرار من وراء حزني وقلقي ووجودك وحده يمنحي قدرا كبيرا من الراحة. ألم تقل لك امرأة قبلي، المؤكد أنك عرفت الكثيرات: إن وجودك وحده يبعث على الراحة والاطمئنان؟ لا نقل العكس، صحيح أنني أغار عليك ولكنني لست مجنونة لدرجة أن أمنعك من شيء ليس في مقدوري فعله حتى ولو أردت. الغريب، أشعر وأنا أقرأ كتاباتك أن بعض جملك مهداة إلي مع أنك لم تقل لي ذلك أبدا. ماذا تعني بسجني الجديد؟ إن أردت الصراحة، السجن أهون علي من أن أجر إلى ساحة الكوريدا، أمام أعين الأعداء والمهزومين. الدين سجن ولكن نظرة الناس المأزومين سجن من نوع آخر، ربما كان أكثر قسوة. رسائلتك وكلماتك تؤنسني وتبعث في القوة كلما وهنت. أتعرف كم هو مضمّن أن تعشّق امرأة فنانا أو كاتبا مهووسا بالحياة؟ إنها مشقة كبرى. مثل الذي يريد أن يلقي القبض على غيمة تبدو قريبة من يديه وتستحيل عليه كلما مد أصابعه نحوها. أنت قريب مني وفي بعض الأحيان أصير مثل المراهقة، أخرج أبحث عنك في المدينة أو في الجامعة أو في البارات التي عرفك بها صديقك عيد عشاب. أتمنى عندما أتعب أن أفتح عيني وأراك مارا، عابرا مسلكا صغيرا الأفيك فيه. وفي أحيان أخرى أتعمد عدم رؤيتك لأنأكد من حبك لي ولكنك كلما التقيت بي أنسيتني زعلي منك وأغفر

لك حماقاتك الصغيرة.. ألم أقل لك أنك ساحر وتملك ما يعطي للمرأة  
التي معك اطمئنانا كبيرا وراحة.

Est ce qu'on t'a jamais dit ça? Avec toi on se sent en sécurité. Ce  
qui rend une femme plus confiante c'est cela. Nos hommes sont en  
déficits d'amour parce qu'ils ne savent pas rendre visible leur côté  
intime.<sup>(4)</sup>

لا أدري الآن الساعة تزحف، تزحف نحو أي رقم من الأرقام بعدما  
تخطت الثانية عشرة ليلا فاسحة الطريق نحو سنة جديدة تأتي من بعيد  
محملة بالأشياء التي لا نعرفها، بعضها يسر وبعضها الآخر يقهر ويقتل  
ويعمق العزلة. أحاول أن أستحضر وجهك لكي لا أنساك أبدا. وصوتك  
المنكسر قليلا والحنون.

أين كنت مختبئا عني كل هذا الزمن؟ كنت معي؟ لا. كيف إذن  
كنت أراك ولم تكن تراني؟

ستضحك مني كثيرا إذ أبدو لك مراهة نحاول اقتفاء دقات قلبها  
خطوة خطوة. ليكن، أنا منذ أن عرفتك لا أندم مطلقا أنني مراهة وعاشقة  
مودرة. اعتبر رسالتي هذه كما تنتهي، صنفها مع الرسائل الصغيرة  
الملونة التي تصلك من حين لآخر من امرأة لا تعرفها ولكنها قرأتك  
وأحبك في شخصياتك حتى اختلط عليها الأمر هل هي تحب الكاتب أم  
ما يكتب. كل شيء معك ملتبس. نحب ما تكتب لكننا عندما نراك  
ونعاشرك يتقل بسرعة حبا من شخصياتك إليك. أحرقها إذا شئت. أريد  
أن أقول لك ما يملأ قلبي، لم أعد قادرة على تحمل ما يملأني. هل  
هناك فرصة أجمل من السنة الجديدة.

سنة أخرى تأتي وشيء آخر يقفز أمامنا وكم أتمنى أن أراك تستقبل  
بقامتك المديدة ولباسك الأبيض الأنيق أمطارك الطفولية التي تنتهيها

---

(4) هل قال لك أحد مثل هذا الكلام؟ معك يشعر المرء بالأمان. الذي يعمق ثقة  
المرأة هو هذا الإحساس. رجالنا يعانون نقصا كبيرا في الحب لأنهم لا يعرفون  
كيف يعبرون عن جزئهم الحميمي.

وتنهي أغنيتك التي بدأتها قبل عشرين سنة وأقف أنا بجانب الحائط العتيق  
وإنأملك وأنت تنط وتركض مع الأطفال وعلى رأسكم الزريبة الحمراء  
التي تقوي شهية الأمطار.

كم أريد أن أسمعك :

يا النو صبي ما تصبش علي . . .

رأسي تؤلمني . ياه . . . كم أريد أن أسمعك . . .

حبيبتك التي سمعت ان تقهر صمتها وتقول لك: احبك.

نبدأ من التفاصيل الصغيرة .

في ذلك الزمن البعيد، كانت مريم طفلة تعشق الورود الملونة والوجوه الأليفة، مولعة بحب الألبسة الجميلة وتتمنى أن تخصب ذات فجر لتجد نفسها فجأة تمارس علنا طقوس الأمومة . كانت هكذا أو هكذا شاءت أن تكون . منذ الطفولة الأولى لم تكبر كثيرا .

لنقل مرة أخرى أنها كانت تحب الوديان الواسعة ومدينتها الساحلية التي استباححت ذات مساء متعجرف دمها ودم محبيها . لم تحب من الحياة كثيرا سوى أن تعشق الدروب الضيقة التي تغلق أبوابها مبكرا لتعيش طقوس الفقر في منأى عن نظرات الناس المؤذية .

— حرام! الفقر ليس كفرا ولكنه أسوأ من ذلك .

حتى جملك الصغيرة مثلك، بسيطة كالماء وملغومة كالحياة، تأخذنا على عكس العادة .

— المؤمن الطيب لا يلدغ من الجحر مرتين ولكن أكثر .

أبجديتك تشبهك . تسير عكس الرياح .

كانت مريم قبل أن يباغت الخريف أوراقه الصفراء والشتاء وديانه وجباله، تعشق البحر حد الرعدة . عندما كانت صغيرة، أخرجوها منه مرات عديدة نصف ميتة وفي كل مرة تقسم برأس أمها العزيزة أن لا تعود له ولكنها عندما تواجهه في اليوم الموالي، تنسى كل ما قطعته من عهود

وترك نفسها تنقاد نحو سحره وموجه . وكلما حل الشتاء بحثت بشغف عن محيط المدينة المنسي لتراشق الأطفال بكرات الثلج وعندما تنعب ، تدرك فجأة أنها لم تكبر أبدا وأنها بقيت بعد كل هذا الزمن على حافة الطفولة ، عبثا تحاول أن تصير امرأة وعبثا تأخذ الدنيا بجدية .

مساء حين تنام ، تفتح خفية كوردة الصحاري ، تحت خيمة الذعر القبلي . وحين تستيقظ على نور آخر نجمة فجرية كانت تتعشقها ، تكون مبعثرة الشعر ، مفتوحة القلب عن آخره كنبية خرجت من محنة الصلب إلى فضاءات الروح الواسعة .

شعلة من نور كانت ، كلما حاولت اليد لمسها ، انزلقت بهدوء واستقرت في المكان الذي تشتبهه : أنا هنا وبقي هنا واللي يحبني يجيني . حين تتذكر الأغاني التركية والهندية والعربية القديمة ، يفتح قلبها كالأثرية الصلبة ، وتبدأ عيناها الوثنيتان في تمني طفلة مدهشة ، بشرائط حمر ، وعاشق على صهوة جواد أبيض لا تقهره رياح الصحراء الجافة ولا صمت القفار والخلاء الموحش .

- يعيشك أريد أن أسميها سارة أو نجمة . هذه الأسماء تسحرني .  
ما تقوليش أنك لا تحبها .

- ما تزال بعيدة .

- لماذا تغلق أبواب الحلم . رحمة ربي واسعة؟

هكذا كانت مريم وهكذا اشتهت أن تكون وسط عالم لم يكن دائما طيبا معها .

- يا يماك واشحال راسك غليظ . ما تسمعي إلا لروحك . الواحد ما يعرفش كفاش يدير معك .

- أنا قلتها لك من زمان ، أنت تحاول عبثا أن تحب امرأة تشبهك .  
نارسييس . هذه هي أنا ، امرأة غير قابلة للقسمة ، تؤخذ ككل أو تترك ككل . أنا مثلك لا أشبه إلا لنفسى . ربما كنت غير موجودة أصلا . مجرد

شخصية في كتاب أدبي تعشقه، عندما تنتهي من قراءته تقفله وترميه في زاوية وتنساه ولا أحد يعرف أننا كلما أغلقنا كتابا كلما سددا النوافذ وتركنا عالما بكامله يموت اختناقاً.

كنتِ وسط الصمت والارتباكات المتتالية، تنسجين المستحيل وخيوط الموت يهدوء وطمأنينة.

وكنْتُ في عنادي، أصنع نهاية مفاجئة لأجمل قصة حب، عرفنا كيف نبدأها ولكننا أخفقنا في إتمامها. مشكلة الحب الكبير هو أن أصحابه يبدأون بشكل جميل وينتهون في الفجيعة.

لقد اشتركنا في انتحارنا الجميل وتسايقنا مع أقدارنا لتؤكد من أكثرنا تدميراً لنفسه وللآخر.

الأسئلة؟ دوما الأسئلة ولا شيء غير الأسئلة المستعصية. تعذبني الأسئلة التي تدخلنا وسط دهاليزها وتسد وراءها كل الأبواب والمنافذ. تدورين عينيك الكبيرتين مثل الذي اكتشف الكذبة الجميلة عند الطفل الذي يقف أمامه: ياه؟ ألم تقل لي إن الحب الكبير تقتله كثرة الأسئلة الصغيرة؟ صحيح أنك لا تؤمن كثيراً بالأسئلة الصغيرة، فكل سؤال يتطلب جواباً هو كبير. أحملك شطط الإخفاق. أنت كذلك نصر على الموت من جهتك بطريقتك الأكثر أناقة والأكثر خبرة؟

هل نبدأ الحكاية، كما تبدأ أية حكاية لامرأة طيبة عشقت العالم، لكنها اختنقت كعصفورة طوت أجنحتها قسوة الحر وشقاوة اللحظة؟ هل نحكي عن مهرجانات الرقص واللذة المسروقة التي تنخر من الداخل كالداء المزمن؟ عن القهقهات التي تتكسر في منتصف إشراقها كالأنجم الهاربة؟ عن النكت العارية التي كانت تصل أحياناً حد المبالغة؟ عن الأشياء الجميلة التي تأتي وعندما نفتح أعيننا للقبض عليها بعنفوان تكون قد انطفأت بسرعة؟ عن الرغبة الملحة التي تهزمها العيون الهمجية؟ عنك أنت يا مريم في كل تحولائك التي لا تستقر على حالة ولا على شكل؟

هل نبدأ قص الحكاية المرتبكة أم نتركها للعشاق المنكسرين مثلنا،

الذين نكسوا كل رايات الفرح والسعادات الكبرى، ليموها أو ليتركوها لخير الوديان وتناسل أمواج المحيطات لتضع عليها بعضاً من لمساتها الدافئة أم نسأل عيد وسيلفيا للذين ناما هذا المساء على قلق آخر ينضاف إلى بقية الانكسارات؟

«باب الحيلة: اليوم نمنا مبكرا أو لنقل دخلنا الفراش قبل أن ناكل ونشرب كأس العرق الأخيرة. كم كنا بحاجة إلى بعض؟ تحايلت كالعادة على صاحبة البيت، الحجّي، وأدخلت سيلفيا من جهة الحديقة في لباس شاب يشبه أحد عمال السكك الحديدية بقبعته التي تغطي وجهه. كنا منكسرين. للمرة الالف يكون رد عائلتها قاطعا. لا زواج. انت مسلم ونحن مسيحيون. ما معنى الرد القاطع؟ السؤال طرحته عليّ سيلفيا وهي تنام في حجرى بحزن كالطفل الصغير وتحاول أن تفهم رد عائلتها الراض باستثناء جورج. هل هناك شيء قاطع في الحب؟ لا أدري ولكني في كل يوم أزداد كرها للحياة وللاديان مع أن جدي، شيخ الزاوية، الله يرحمه، لم يكن هكذا، وأفكر جديا في اختصار الطريق. سيلفيا قوية. تقول لي إن الحب الكبير يُدافع عنه باستماتة. وأنا هش، عندما تأكلني هموم الدنيا أندفن في كأس عرق وأفكر بسرعة في الغرق وسط بياضه الضبابي.»

من اوراق عيد عشاب

أدور... أدور... أدور... كم أشتهي أن تأخذني دوخة الكلمات التي ترميني خارج هذه الأرض القلقة. تدخلي وسط الإغفاء التي تشبه حالة السكر ليتحرر لساني وجسدي ونظري. سنة من النوم فقط لأتمكن من رؤية ما لا يرى. البصر كذلك في حاجة إلى حرية استثنائية ليتمكن من لثم روح الأشياء وإلا سيظل على السطح. أشعر بنفسى أحيانا، وأنا أستعيد للحكاية، مثل الخائف من خدع النفس التي تقول كل خباياه وتكشف مدافن يريد الاحتفاظ بها لنفسه. وفي أحيان أخرى أراني مثل فراشة مسكونة بالنور ولكنها كلما اقتربت من النار، زاد يقينها أنها هالكة لا محالة.

أدور... أدور وأبحث عنك في مدارات الدوخة الكبيرة  
والحكاية وأخاف أن لا أجذك. المسالك صعبة والعمر لا يرحم. يركض  
بخطى مجنونة نحو النهاية وكلما ظننا أننا مددناه، اكتشفنا فجأة أننا  
منحناء جزءاً آخر من حياتنا كنا نحفظ به لثمطيط اللحظات الأخيرة التي  
نشاق فيها لثانية واحدة نلثم فيها من نحب.

أدور...، أدور... وأنث مثل النور، تنزلقين من بين أصابع  
اليد. كيف أقبض على النور؟ أخاف أن تكوني قد اندثرت مثلما يفعل  
الجسد بنا عادة حينما يتركنا في منتصف الحياة. لا يقبل بالحلول  
الوسطى. عندما يستسلم للتربة، يمنح نفسه لها كلية وبدون سؤال ولا  
تردد.

أدور... أدور... أتهاوى مثل النخلة. تأخذني الإغفاءة الشبيهة  
بإغفاءة الموت، أبحث عنك وأفتح هذه المرة باب الحكاية على مصراعيه  
وأربط في كل الزوايا المظلمة لأراك بدون أن تريني وأتبع كل حركاتك،  
الصغيرة منها والكبيرة.

أراك الآن كما أراني أنا، وإذا أرى أنا أراك .

— هذا حلول . يا صاحبي هذه فلسفة وعرة علي ، ما نفهمهاش .  
هذا كثير علي . أريدك أن تكون مثلي ، إذا خانتك شجاعة الكلام ، تكتب  
لي رسالة وتقول لي فقط : أحبك .

— أحبك وأراك الآن كما أراني أنا، وإذا أرى أنا أراك . سمعته أول  
مرة من فم عبد عشاب وكان منطفئا . كلما شرب العرق ونبذ الجزائر لا  
يتذكر أحدا إلا جده ، شيخ حي الزاوية وابن عربي ومأساة الحلاج  
وسيلفيا ويؤس الأديان .

لا أدري من صاحب هذا الكلام الجميل في الأصل ، ولكني أحفظه  
بدقة كبيرة وأستعيده كلما اشتعل القلب وارتبكت الذاكرة ووجدت نفسي  
أمامك أبحت عن أجمل الكلمات أضعها بين يديك وأحذرك : خذي  
بالك ، الكلمات مثل الضوء والماء ، تنزلق من بين الأصابع وإذا خرجت  
يصبح من الصعب تجميعها .

أمطار نهايات الخريف وهذا الشتاء تذكرني بك . أراك كما تعودت  
دائما أن أراك في مثل هذا الموسم بصفيرتيك المنكسرتين على صدرك  
وابتسامتك الساخرة ولباسك البنفسجي الفضفاض الذي تشتهين ارتدائه  
لأنه كان يقوي لديك شهوة الأمومة ، والكوفية الفلسطينية التي لا تغادر  
عنقك وأنت تقولين : ليس لباسا فقط ، فلسطين حتى وهي بعيدة ،

تمنحنا الكثير من الدفء. في قلبك دوما مخاطر ماسة التي عندما أحببت رجلا تعرت عن آخرها ولبست وطنا بكامله.

ها أنت تعودين شيئا فشيئا مثل الماء الصافي، وتقتحمين القلب والذاكرة بدون استئذان ولا أسئلة معقدة. «الحب الكبير تقتله الأسئلة الكثيرة». ومعك تعود طفولتك الأولى التي التصفت بك بقوة ولم تفارقك حتى وأنتِ تواجهين الموت.

إنني أسمع صوتك يأتي منكسرا، مبجوحا، بين الموجات التي تلبس جسدي. صوتك، كل صباح يروي تفاصيله التي لم تتح له الدنيا فرصا كبيرة لقولها.

أنقص عليك متعة الصمت والعزلة الصوفية :

- تكلمي.

- ألم تقل إن كثرة الأسئلة تقتل الحب الكبير.

- أنا لا أسأل. أنا مشتاق لصوتك. أريد أن أسمعك. قل لي أي كلام ولكن لا تصمتي.

- ياه كم أنت صادي؟ تريدني أن أعود إلى صوت أمي وأبي؟ أنا تكلمت كثيرا في تلك الرسالة الطائشة. عندما كنت تحتفل بالسنة الجديدة مع أصدقائك، كنت أنا أكلم البياض وأصرخ بأعلى صوتي لمواجهة ترددي وخوفي: Basta. Basta. ونقول لي اليوم تكلمي؟ هل هناك أقوى من الصراخ؟

- ومع ذلك، صمتك يخيفني. لا أدري لماذا يتتابني هذا الإحساس الغريب؟ الصمت يجعلنا قريبين جدا من الموت.

- لماذا كلما تعلق الأمر بنا، كان الموت ثالثا؟ حبيبي لن أموت بهذه السهولة. سأبقى معك حتى تملي. حتى تكرهني.

- أنا أكرهك؟؟؟ مجنونة أنتِ وإلا واش؟

- أنا التي أسألك إذن؟ لماذا لم تأتيني وتأخذ يدي ونقول لي حبيبي أحبك. هل تسمحين بهذه الرقصة؟ لن أتكلم وقتها ولكني كنت

سأقوم من مكاني وألتصق بجسدك، مثلما يقع في الأفلام وأنا؟ تضحك الآن لأنك عرفت مخابئي قلبي. كم أشتهي أن أعريك حتى أصل إلى أصغر نقطة فيك وأصرخ في وجهها: Basta، يرحم والديك تكلمي وعفني.

يأتيني صوتك دافئا مثل هذه الأشعة التي تخترق بصعوبة كبيرة، الغيوم المنقلة. يأتيني غامضا ثم شيئا فشيئا يتضح أكثر. أغمض عيني فيملأني عن أخرى. ياه... كم أنت قريبة؟! أمد يدي. أنت هنا. تعبرين هذا المسلك الصغير قبل أن تصلي. هنا فقط. أمد يدي مرة أخرى. ألمسك كالشعاع.

حبيبي الغالي .

أرجوك، لا تتعب نفسك إلا بالقدر الذي يجعلنا قريبين أكثر .  
صحتك تهمني كثيرا، وأنا امرأة لا تطاق، أعرف نفسي جيدا ولكني  
أحبك . كم تريدني أن أتكلم وكم أريد أن أصمت وأن أعيش في هذا  
الداخل الذي يضحك ظاهرا ولكن الحياة لم تمنحه حظا كبيرا؟ ماذا أقول  
لقلبك الحزين؟ أحبك؟ كلمة لا تكفي لتكنس هذه الغربة الشاقة التي  
تملائي . سعيده؟ لأنني هذه المرة سلكت المنعطف الذي كان يجب أن  
أسلكه لتتيح لي الدنيا فرصة لقائك؟ كلمة أخرى لا تكفي لتغطي فرحي  
وأشواقني .

تسلل الأصابع إلى الصدر وتنحس القلب الذي لم يعد يابه كثيرا  
للموت، ياه! ها أنت مازلت هنا كما تركتك للمرة الأخيرة مثل اللوحة  
النادرة . لا شيء فيك تغير أبدا . مازلت بقسمات وجهك الصبوح  
وجمالك الهادئ وأنفك الصغير الشامخ . وعينيك الحالمتين . سنوات  
مرت ولا شيء تغير . الوقت مسافة تموت والذكريات حنين يتفجر ،  
برهق النفس ويرعش القلب . ها هو الزمن الذي انتظرته بجيء في وقت  
ترحل فيه أنت . كم أريدك أن تبقى ههنا ولكنك انتعلت الريح كشاعرك  
المجنون رامبو وغادرت المكان . هل كان من الضروري أن تتركني في  
ذلك المنعطف المقفر؟ ألم يكن بإمكانك أن تردني عن غيبي؟

أمي... وجهها يملأني. أمي كم أنت بعيدة وأنت تذهبين إلى الأبد بدون أن يودعك أحد، وكم أنت قريية وأنت تتبذنين مكانا صغيرا بجانب الولي الأندلسي سيدي عبد المؤمن بو قبرين لتلدينني فيه وتزغردين بأعلى صوتك: يا سيدي العاليي سأسميها باسم المرأة التي نذرت عمرها لك وخدمت مقامك حتى الموت، لآ مريم! ولكنك هنا مثل نهار البارج فقط. تعدين السنوات على أصابع اليد. غدا تتخرجين يا ابنتي، كانت تقول كلما ألمت بها الأحزان واليأس. واتسعت ابتسامه عينيك. رحلة شاقة مع العذاب وانتظار دائم. بآه يا مريم كم كبرت بسرعة؟ لقد صرت امرأة على عكس أخواتك الست. أركض وراء الأشياء الجميلة لكن الأشياء الجميلة لا تأتي إلا بشق الأنفس. كان أبي على خلاف دائم مع أمي. يرفض أي شيء وكانت أمي مليئة بالحياة وحريصة حتى الموت على الحفاظ على كل شيء على وضعه الأول. حصار من العزلة ضربه على الأبناء. كان أبي بطريركا متخلفا. سلطانه المفقود في الخارج، لا يجده إلا في البيت المستسلم لنزواته. الأم والبنات تحت قدميه وشقاوته. كنا نعاني من مرارة مقتته لكل شيء، حتى لنفسه. لم يكن يحب تعليمنا. لم يكن يتوقف عن ترديد جملة التي لم تعد تثر أي واحد في البيت من فرط التكرار. سبع بنات، سبع فضائح، علي أن أحرسها كالمعتوه، في كل ثانية وكل دقيقة. يكفي البنات القراءة والكتابة. لن ألزم بأية نفقات. عوموا بحرکم، لقد تعبت من الخدمة في الفراغ. بنات مآلهن بيت ورجل يعلمهن الدروس اللواتي نسينها. هكذا كان يردد. كلما وصلت إحدانا إلى السادسة كان عليها أن تخوض حرب الجنون لتثبت ذاتها. كانت أمي تغضب من نزمته وشكوكه وظلامه. كان والدي الذي أشك في أن الله سيسامحه لما فعله فينا، عندما يلتهب غضبا كبرمبل نطف، يقطع الكل لمدة أسبوع ويتحول البيت كله إلى معتقل، الناس فيه لا يتحاورون ولا يسألون ولا ينساءون. وعندما يأتي موعد الدخول المدرسي، تعود الحروب الصغيرة الأكثر قسوة. لكي تثبت أنك مازلت إنسانا، عليك أن تجد حلولك الصغيرة وتعرف كيف تتواطأ مع أمك على الأقل. والدي

يصبر دائماً على موقفه بأنه لم يعد قادراً على تعليمنا والأم تصر وتجاهل حتى تصل إلى نزع غلالة الحقد عن عينيه، فيلين قليلاً. يرحمك الله يا أمي لقد قاومت الشطط كثيراً وهول الحروب الفارغة. تنزع قطعة من حليها وترسلها إلى عيشة الدلالة، فتشترىها منها بثمان بخص. عجوز مرابية تشدد الخناق على النساء المحتاجات حتى تفوز بالقطعة الذهبية وبالثمان الذي تريد.

عندما نقاعد، يدل أن يتفرغ لربه، تفرغ لنا كلياً. ولا شغل له إلا ميزانية البيت وأخواتي الست. أحياناً عندما أراه يصرخ بأعلى صوته، أعطف عليه وأخاف أن ينكسر كالإناء الذي يسقط من علو كبير. أقول في خاطري ربما كان مصدر المأساة من البنات. يقول لأمي كأنه يعاتبها، أنه عندما يمشي في الشارع لا يرفع رأسه. تفهم أمي قصده. تمد يدها نحو كتفه وعندما ترى عينيه المتقدتين، تسحبها بهدوء مثل الذي أصيب فجأة بحرقه. وعندما تشجع وتجادله، يضحك بسخرية قبل أن ينفجر. البنت بينها يسترها وليس المدرسة. عندما أتذكر اليوم الوقت الذي خسرت في حروبي الصغيرة مع والدي، أحزن كثيراً. كل مجهوداتي أفرغتها عبثاً في إقناعه بجدوى ما أفعل. فقد ظل كالحجر الأصم كما فتحت عليه عيني لأول مرة. الزمن حفره ولم يفعل فيه شيئاً. اليوم أدرك أنني ضيقت وقتاً كثيراً وأني لا أنا تغيرت ولا استطعت حتى إقناعه بحرائق القلب. طرقتنا كانت متناقضة. أمي ظلت تحاول بالعقل أحياناً وبالقوة أحياناً إقناعه بأن لا تنازل عن حق بناتها في التعليم. أصبحت تقاطعه كثيراً ولا تنام معه في الفراش نفسه. وفي المساء الذي تليين فيه، يعود كما كان، يشتم ويلعن الزمن وأحياناً الرب الذي لم يكن عادلاً معه.

في الأخير عندما تحصلت على البكالوريا، ذهبت نحو الحياة أبحث عن طريقي، بدون أن أسأل عن ردة فعل البطريق المتقادم. ورائي أصداء أخواتي ودعوات أمي. لأول مرة أشعر بأنني بالفعل حققت شيئاً ضد القدر. أمي كانت هي الوحيدة التي فرحت لي. لأنها كانت تعرف أن

البيت لن يضطر بعد اليوم لإعالة فم سابع . يا طبق المسكين ، ما ناكلك ما نخلي اللي ياخذك؟ هكذا والذي الذي ظلل يردد جملة البالية : خلاص كملت ، لازم تبقيين في البيت حتى يأتي من يخلصني من همك . وكان علينا أن نتحایل لإقناعه للذهاب إلى الجامعة . بدأت المعركة الأكثر نبلا التي لا تنتهي . وكان علي أولا أن أتحايل لأصل الجامعة وأتحايل للعودة إلى البيت . الغربية أكلت كل العائلة . فقد تسارعت الأحداث والوقائع بحيث أصبحت أشك في أن والذي ما يزال عاقلا . بدأت بالأخت الكبرى خيره ، التي كانت تشبه أمي في أميتها وخوفها علينا ، تركت فراغا كبيرا في البيت بانتهارها . لم تقدم أي مطلب . حملت سرها معها . لفت نفسها في غطاء صوفي وكبت على نفسها البنزين وأشعلت النار بعد أن سدت كل المنافذ . أبي لم يحرك ساكنا . خرج إلى شأنه اليومي وهو يردد أمام أمي المنكسرة : الله لا يردّها ، زايد ناقص . وعندما كسر جارنا الباب ، كانت قد تفحمت ونحولت إلى رماد . لم يسمع أحد صراخها . عندما أردنا أن ندفنها ، تفتت كل شيء بين أيدينا . جمع الإمام الكل في رزمة بيضاء صغيرة وقال لها :

— هذا رماد خيره ، ادفنيه أينما شئت ، فقد صليت عليها صلاة الغفران علّ الله يسمع دعائي .

مسحت أمي دمعها وتمتعت ببعض الكلمات :

— وصلاة الجنازة .

— بزاف عليها يا لّلا؟ لقد سترتها حتى لا تذهب نحو ربها عارية .

تعرفين أن صلاة الجنازة باطلة على المتحرر .

— ولكنها ماتت يا سيدي الإمام ولم تفعل ما يؤذي الله .

— بذّرت الروح التي أعطاه إياها الله .

— الروح كانت مبذرة حتى قبل أن يستردها صاحبها .

في المساء صعدت مع أمي وأخواتي فقط إلى المقبرة ودفنا رماد

خيره . أمي صلت على قبرها ولا أدري ماذا قالت وهي التي لا نحفظ إلا

جزءاً صغيراً من الفاتحة وجملتين من سورة الناس. أختي الصغرى ماتت بوباء الكوليرا الذي كاد أن يلحقنا بها جميعاً لولا جارنا الذي أخذنا جميعاً في سيارته إلى المستشفى. وأختي الوسطى زوجت من رجل أعمى كان يكبرها بأكثر من نصف قرن، كان قد فقد زوجته إثر مرض خبيث.

لم يمد والدي يعلق كثيراً. يشرب قهوته، ينزل بعدها إلى الحقل وعندما يعود يرتب حبات التين داخل الدقيق وقليل من الملح.

الأيام الأولى داخل الجامعة كانت صعبة وقاسية. وجه أُمِّي صار كوجه الله، أراه طائراً في كل مكان. وكلما انغلقت علي السبل، ناديتها، في الليل تأتيني في نفس الإزار الأبيض الذي كان يشبه الكفن. لم تكن مخيفة، هادئة كملاك. تسألني عن حالي فأخبرها عن كل شيء. كل ليالي أفضيه في الكلام معها. حتى صديقاتي في المدينة الجامعية، في الصباح يكررن علي نفس الكلام الذي قلته لأُمِّي في الحلم. الجامعة لم تكن شيئاً مهماً في حياتي ولكنها كسرت أمامي قبة البؤس. فقد انقضت السنة الأولى بسرعة. السنة الثانية لم أذكرها. وحدها السنة الثالثة بقيت في الذاكرة. عندما عدت إلى البيت في ذلك المساء البارد رأيتها على غير لونها. أُمِّي. كانت مريضة. يغطي وجهها اصفرار فاقع وابتسامات منطفئة كانت تستلها بصعوبة كبيرة حتى ثبت لي أنها لم تكن مريضة. عندما أتعبتها بالأسئلة، انفجرت باكية. طوقنتي بقوة. تمتعت كمادتها:

— لقد تعبت، اعتقد أنها النهاية.

— لا يا يَمَّا. سأذهب بك إلى أكبر مستشفى وأعالجك. لا. سأوقف عن الدراسة.

ردت بارتجاف على شفيتها:

— لا أبداً يا بنتي. اللي جاء وقته ما يطمع في وقت الناس. العمر، هذا اللي اعطى الله.

بقيت بالمستشفى شهراً كاملاً نصارع المرض. لم أرها لحظة واحدة

تناؤه ألما. كانت كلما دخلت عليها، انفرجت أساريرها وزالت عنها الزرقة المخيفة التي تجتاح وجهها. وظلت بين المباحض والآلات، جراحة، إنعاش ثم جراحة، فجراحة أخرى ثم الفشل الكلي للطب أمام حالتها. عندما تجرأت وسألت الطبيب عن حالها، قال لي وهو بعض على شفته السفلى: واش نقول لك يا بنتي؟ أنت قارية وتفهمي مليح. هذا المرض خبيث، يأكل الجسد ويفته من الداخل ولا نتفطن له إلا بعد فوات الأوان. هذا ما حصل مع أمك.

بدت لي النهاية وشيكة. من يومها وأنا أتدرب على ابتلاع الألم جرعة واحدة مثل الدواء، لكي لا أموت حزنا وأقبل بفكرة أن أمي كذلك يمكن أن تموت مثل الآخرين. لم يكن الأمر سهلا ولكن كان علي مواجهة كل شيء لوحدي. حتى والدي لم يكن منشغلا بالوضعية، فقد بدأ يبحث عن كل السبل التي تبرر زواجه من امرأة أخرى. لم أكن ضد الفكرة ولكن يا ربي سيدي بما كانت ما زالت حية. القلب يوجع. الله غالب. يومها كرهته واعتقد بشكل نهائي.

ذهبت أمي في ذلك الفجر البارد ولم تترك لي سوى صورة المرأة الطبية والمقاومة الهادئة. صلواتي لم تنفع ولا تمنياتي الطفولية، فعندما كنت صغيرة كنت دائما أحلم أن أموت قبلها حتى لا أراها تنطفئ أمامي أو تتألم، ولكنني أصل دائما متأخرة لأنني لا أملك سوى قلبي وأحلامي الصغيرة. ها هي ذي أمي تغادر وتدخل عالما يشبه الضباب، كلما رأيناه، يتتابنا خوف مبطن فينا. المخيف ليس الموت نفسه ولكن الأسئلة المعلقة منذ بدء الخليقة هي التي تربكنا وتحزننا في اللحظات الأخيرة حيث كل شيء يتساوى ويصير رخوا وأملس، عندها نترك أنفسنا ننزلق بسرعة نحو فجوة الغياب التي لا قرار لنهايتها.

انطفأت أمي ومعها انطفأت مرحلة من حياتي.

حبيبتي التي تدعوك إلى أن لا تكون باردا معها.

هكذا ذهبَ إذن؟

كم أشتهي أن أراك. هل تدرين أن غيابك الآن يقتلني وأناي كلما استعدت وجهك وسط هذا الفراغ شعرت بوحدي أكثر. «الدنيا ظالمة» لم تتوقفي عن ترديدها حتى صارت حقيقة مثل الموت. أحيانا عندما نلعب مع الأقدار نفعل ذلك بسخرية وننسى أنها لا تنسى وأنها تأخذ كل شيء بجدية وتفاجئنا في أقل اللحظات انتظارا.

ضحكاتك على قصرها، وقعها طويل. طويل يمتد كالأنهار، ثم يتفرع في القلب دما، وورودا بألوان قزحية؟ رهافة ابتساماتك تشبه حساسية الورد المفرطة. على صدرك الذي يسجن، ويقهر انطلاق نهدين نافرين كفرسين ملجومين، تنام بهدوء صفيحة فضية كتب عليها اسمك بخط كوفي جميل: مريم. نحتها شاعر عراقي، صديق لنا يعمل مع صائغ في الحميدية. هو لا يعلم إن كان وطنه قد فشل في حبه أم أنه من كثرة اندفاعه نحوه بدا أنانيا أكثر من اللازم ومشاكسا وأنه الوحيد الذي يعرف كيف يحب؟ وجد نفسه ذات ليلة يقطع الصحاري والأهوار بحثا عن مخرج من المقتلة وهو لا يعلم بالضبط لماذا يريدون قتله. يحدث للواحد من كثرة حبه أن يتحول إلى دكتاتور صغير في أشواقه ويعمى عن التصديق بأن للآخرين كذلك قلبا مثلنا.

مريم. بقي فيها أكثر من يومين وهو يحاول أن ينقشها داخل

صفيحة معدنية صغيرة بدقة الفنان ورهافة الشاعر. ألمسك بعيني المتعبتين، فيزداد اشتهائي. أحبك، من قال إن المرأة مأساة الرجل وسعادته الكبرى، لم يكن مخطئاً. تضحكين:

- حتى الرجل مشي ساهل.

- المأساة معناها حلمه المستحيل. هل رأيت في حياتك إنساناً سعيداً بحلمه؟ الاستحالة هي عمق المأساة.

- هل أنا صعبة إلى هذا الحد؟

- في كل امرأة شيء من المستحيل وفي كل رجل شيء من المعجز والغاوة في كشف هذا المستحيل. المرأة عندما تتسطح تصير أسوء من الرجل.

تخورين عينيك. يظهر عمقهما جلياً. تهزين رأسك كعجبرية تستعد للعراك، ثم تقبضين على كفي وتسحبيني نحو النهر الوحيد في المدينة:

- يا خويأ يرحم والديك، حبني كما أنا، لا أريد تعذيبك ولا تعذيب نفسي. اللي في بكفيني. حبني فقط بصدق لأنني لا أعرف الكذب. الرجال يخافون من المسؤولية وأعفيك من كل هذه التفاصيل المرهقة. لماذا نغذب أنفسنا بكثرة الأسئلة والحياة تندفع أمامنا كالشلال؟

لأنك كذلك، يخافك الأصدقاء. أمام امرأة عفوية مثلك يرتبك المرء ولا يعرف إذا كان يحترمك أم يخافك. كل من اقترب منك خرج بهدوء واصطف مع طابور الذين يشتهونك من بعيد. وكم اسمع منهم من الكلام الفارغ والنصائح الميته: يا محايك احذر. مريم نمرة شرسة. جن أحمر. ما تصلها حتى تاكلك؟ إيه، أنت راك تلعب بروحك. هي هكذا ما تقدر تشوف حتى واحد إلا نفسها. أنت؟ الرجل الطيب والهادئ كبحر تحب مريم؟ ستدخنك كسيجارة ثم تضعك تحت قدمها الأيمن حتى تكون الرفسة قوية. . . اخطيك يا خو، خاف على روحك إذا حببت تريح. . . والمثقفون الكبار؟ لا يرون فيها أكثر من بورجوازية صغيرة لا تتغير إلا إذا انتحرت؟ هكذا يقول زملاء أكلوا ملحنا، وأكلنا

ملحهم. لم يكن كلامهم إلا تعبيراً عن هزائم صغيرة كان من الصعب عليهم مواجهتها. هل الإنسان بهذه السهولة ليتحول إلى مجرد جملة تختزل كل التفاصيل الخفية والظاهرة؟ أنا لا أعرف من اخترع كل هذا التبسيط المغري. كم أتمنى أن أستيقظ يوماً وأجد نفسي أمام ابن عربي، الرجل الذي خبر أعماق النفس وأسأله عن حكاية البورجوازية الصغيرة هذه؟ ماذا سيقول؟ أتخيله يسخر من سذاجتي كثيراً قبل أن يسحبني نحو تأمل نظام الحشرات الدقيقة الصغر والكلمات اللامتناهية الدقة التي تمنح الحياة كما تمنح الموت بسهولة ثم يحيلني بعدها إلى نفسي وخلجاتها المشتعلة ويتركني غارقاً في الأجوبة المستحيلة. وقبل أن ينسحب نهائياً يضع في كفي كمشة من الأبجديات المبهمة والملونة وهو يتمتم:

«تريد أن تصير عاشقاً وأن تعبد امرأة، هي ذي أبجدياتك للعبور إذا عرفت كيف تنظمها وتجعل منها كيانا مشابها لمعشوقتك. عليك أن تتعلم كيف تعوم بحرك يا صاحبي.»

وأصبح وراءه: ولكن يا سيدي ابن عربي، مريم ليست امرأة. أو على الأقل ليست ككل النساء. لا أسمع غير رجوع صوتي في داخلي. ليكن يا سيدي، سأحاول أن أعوم بحري.

ثم يتحول إلى نور كما جاء وينطفئ نهائياً.

قلت لعبد عشاب إن ابن عربي قال لي: عم بحرك يا صاحبي. ضحك مني طويلاً بأعلى صوته وهو يكرر مثل المجنون: ابن عربي؟ بورجوازية صغيرة؟ والله معه حق يقول لك عم بحرك. تستاهل. ثم عاد إلى القهقهة وكأس عرق الريان السابعة ولم يجبني عن حيرتي وقلقي ولكنه ذهب نحو موضوع آخر لم أعرفه إلا فيما بعد بزمان طويل.

– هل تعرف بحر سيدي الأعظم؟

– بحر المعرفة.

– ربما. لكن هناك شيء آخر وإلا لن تعرف أبداً لماذا اختار هو وعبد القادر بن محي الدين الموت في هذه المدينة. النور. النور الذي

يفرق الروح . وهذا لا يوجد في حي الشيخ محي الدين حيث ينمان .  
الشيخ محي الدين ، هذا مكان استراحة الجسد فقط الذي تلون باسم  
سيدنا الأعظم . لقد فضلا هذه التربة لأنها كانت أكثر جوعا لهما من  
الأماكن الأخرى .

- ما هو هذا البحر إذن؟

- يوجد مباشرة بعد عبور طوق الياسمين حيث كل شيء سائل  
مثلما بدأت الخليقة في مشوارها الأول ، وغارق في الأنوار والصفاء  
والضباب الذي تنكسر داخله كل الأشعة الناصعة التي تعمي الأبصار أو  
تصيبها بغشاوة .

تأكدت أن عيد كان في حالة سكر كعاداته عندما يتخطى عتبة الكأس  
التي تجعل الروح خفيفة كالريشة . وقبل أن أسأله ابتسم بسخرية :

- أنت الآن تقول عيد تخطى العتبات الأولى للعرق . لا يهم . لكن  
يوما ، هذا المهبول الذي أمامك والذي فشل في كل شيء إلا في حبه  
لسيده الأعظم ، سيربك طوق الياسمين . كل من يمر على هذا البلد ولا  
يفتح هذا الباب أو هذا الطوق الذي توصله الأشجار الكثيفة والنباتات  
الاستوائية الغريبة وقصب البانوب ولا يركب عوامة سيدي محي الدين بن  
عربي ، كأنه لم ير شيئا . الماء والنور هما أصل الأشياء وسيدي كان  
يعرف ذلك جيدا ولهذا اشتهى أن يودع الدنيا وهو بين المنيع والمصب .  
- معك حق يا السي العيد . عرفت الآن شرك الكبير .

كنت أكذب .

في الواقع لم أكن مقتنعا أبدا بما كان يقوله . عيد عشاب عندما يُزِيدُ  
حَبْتَيْنِ ، ينسى أن يفكر بعقله ويفتح صدره لكل الرياح القادمة من كل  
الجهات .

- لا يوجد أي سر . المشكل هو مشكلة العين التي ترى .

عندما شربت الكأس السابعة وتخطيت العتبات المعتادة ، بدأت  
أبحث عن النور المغمشي للأبصار الذي تحدث عنه عيد عشاب . شعرت

بأنني كنت على ظلال وأن عيد عشاب كان يعرف ما يقول . لم يكن  
سكرانا ولكنه كان خفيفا ولهذا كان يرتفع بسهولة إلى علو لم أكن قادرا  
على لمسه . وكان علي أن أزيل كل أثقال وزني لأصله .

كنتُ مثل الآن تماما، أبحث عنكِ بشغف وقلق، فتزدادين بعدا  
وحزنا كلما اقتربت منك، لكن أنينك الذي لا يموت، كان رويدا،  
رويدا، يأتيني مع أولى نسائم هذا الفجر الشتوي البارد، يتزاحم  
كموجات تلاحقها نسائم الربيع وتهدهدها واحدة واحدة، لأنك كنتِ  
هنا . . . قرية جدا .

ههنا تماما، بين النبضة والنبضة، في العمق اللامرئي للقلب  
المتعب .

أيها البعيد القريب .

حبيبي . كم أحبك وكم تزداد بعدا في هذه الدنيا الظالمة . شيء ما يفودني نحوك بشكل أعمى كلما اتخذت قرارا بتركك وبعدم رؤيتك نهائيا . أريد بالفعل أن أرتاح منك وأن تتخلص مني نهائيا لكي أعرف كيف نعيش . ماذا فعلت لي؟ ما سرك؟ ماذا أكلت من يدك أو من جسدك أو من روحك؟ أستهيك إذ أتركك وأخاف عليك من حماقاتي وارتباكاتي وأنا معك . لا أعرف لماذا افتح أبواب الكوابيس والأحلام وأفتش عنك في أكثر الزوايا ظلمة علني أجذك وأوشوش في أذنك : أحبك . ربما لأنك لا تشبه والدي؟

ولأن زوجي كان يشبه والدي ، فقد كرهته وأوصدت كل الأبواب المؤدية له وفتحت كل نوافذ الصغيرة نحوك لأراك وحدي عندما أشتاق لك .

ستسألني لماذا كل هذا الحنين وستقول لي الحنين مدمر وعشي لأنه يسجننا في الوهم ويحرمانا من الحياة ومن إمكانات أخرى؟ لا أملك أجوبة سوى أنني أحملك مسؤولية الخراب الذي لحق بسعادتنا . لا أنتظر أجوبة لحيرتي ، فأنت منذ زمن بعيد اخترت أن تقتلك الفلسفة الوجودية والأسئلة التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الخسارات والصمت . أحيانا أنمادى في خيالاتي وأقول لو كلمني رامبو وأنا نازلة إلى السوق الشعبية

سأصفه ولن أكلف نفسي شرح السبب وأنا أدخل المطحنة القديمة في القرية وأجد كافكا جالسا يتتبع ظلالها لأفرغت عليه كيس الطحين وشققت سحنته النحيلة ولو صادفت سارتر في طريقي لن أكلمه ولن أحضر درسه وسأضع المسامير في طريق نيتشه الذي يسلك كل صباح المعبر الضيق الذي يمر بالقرب من بيننا وسأفش عجلتي دراجته التي يمتطيها وسأشبح بوجهي عن لينين عندما يسألني عن محطة الباص أو المترو. سأنتقم منهم واحدا واحدا لأنني أشعر أنهم كانوا وراء خرابتنا. بعدها أتمقل وأهدأ وأضحك من نفسي. وين أنا؟ وين هم؟ أنت كذلك أحيانا تشبه والدي ولهذا أصاب بحالة هبل كبيرة. فقد قتلت ظلمة الحيرة المستعصية ومقاطعة الشمس والهواء. لا أكلمك لأحصل منك على جواب. هناك الكثير من المآسي في الحياة تكفي لوحدها كجواب، وأي اجتهاد بعد ذلك هو كلام زائد.

لماذا تركتني أذهب نحو الحماقة مفتوحة القلب والصدر؟ ألم يكن بإمكان طولك وقامتك أن تسد في وجهي منحدرات الانزلاق؟ لماذا تركتني أذهب مغمضة العينين نحو حتفي؟ لماذا خفت سحرك عندما أخبرتك بأنني سأتزوج؟ ربما لأنك كنت تريد أن نحل عقدة ضميرك نحوي وتتخلص مني وتقول: ما عليهش هذا خيارها وما علي إلا أن أقبل به؟ كنت تكذب على نفسك وأنت تعرف ذلك.

أحملك الخراب الذي لحق بسعادتنا. ماذا لو تزوجنا؟ ستقول لي بفلسفتك الوجودية المعهودة: لم تنفق هكذا على تقييد حرياتنا؟ ماذا يساوي الكلام أمام الخسارات الكبرى التي لا تعوض؟ لا شيء. نعم لا شيء. أنا أعرف أنك كنت تكابر وأن قلبك كان منكسرا وأنا أخبرك بعزمي لأحرك غيرتك. كنت أشتهي أن تلعنني، أن تضرب رأسك على الحائط، أن تمزقني وتنزع أطرافي مثل اللعبة، أن تأكلني إذا شئت، أن تمنعني بكل النعوت التي تشتهي ولكن أن تقول لي كلمة واحدة فقط: أحبك. في حاجة ماسة إليك. ابقى أرجوك. أو حتى لا ترجوني، لست في حاجة إلى الاعتذار. آه لو فعلت ذلك، لتركت كل شيء بدون أدنى

ندم وتبمنتك نحو حتفي إذا استدعى الأمر ولكنك بقيت صامتا تقاوم كبرياء منكسرا ورجولة زائفة وركبت رأسك. إسمح لي، في هذه لم تكن مختلفا أبدا أنت الذي ظل يقدس الاختلاف. كنت تشبه كل الرجال ولم نشتن نفسك كعادتك من الاندراج داخل المنظومة. يومها، عندما خرجت إلى الشارع رأيت كل الناس يشبهونك مع أنني قبل أن أدخل إلى البيت كنت أراك متميزا وفريدا. كم تتغير الأشياء فينا بسرعة جنونية؟ لا ألومك. ربما كنت على حق. في نهاية المطاف من أنا بالنسبة لك؟ لا شيء، امرأة كسائر النساء، أقل جمالا وذكاء ممن عرفتهن قبلي. عيبي أنك أول رجل في حياتي بعد والدي ولهذا رفضت أن تكون شبيها له لأنني كنت سأكرهك. وها هي ذي صورتك كل يوم تختصر جزءا من المسافة الفاصلة بينك وبينه. كنت أول إنسان اخترق حميمياني بدون أن يشعرني بعقدة الذنب أو لعن جسدي وحرمتي معه. لهذا، عندما أحيتك لم يكن لدي حلم آخر سوى البقاء معك حتى الموت. الزواج؟ وين الخطأ يا ربي سيدي؟ أننا لم نتفق من قبل؟ ما المانع أن نتحدث حوله اليوم ونتفق؟ عفوا. أعذرني، أنا أهذي. امرأة لا تطاق ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليها طفولتها وصدقها.

أعرف، بل متيقنة أنك أنت كذلك كنت تحبني ولكنك كنت جانا وغيورا على مفرداتك وفلسفتك أكثر من غيرتك علي. الله غالب هكذا. في لحظة من اللحظات فضلت علي كتبك وأنا نيتك الثقافية ونسبتي. ولهذا ألعتك شوقا وزعلا وحنينا في كل صلواتي وأرشفك بحبي وبحزني لأنني أخفقت في كل شيء معك، حتى الحققد عليك. ما عليهاش، أنا ما نعرفش نزعف... ربما لأنني أنا كذلك لم أعرف لا كيف أحافظ عليك ولا كيف أحبك.

مهبولتك التي تفكر فيك دوما.

هل تعرفين يا مريم أن المرايا تتعب من كثرة الوجوه؟ وأنا لم أتعب منك. صرت أدمنك وازداد انحدارا نحو الجنون. كلما استعدت وجهك البعيد، أجدني أبرئك من كل التهم الصغيرة والأحقاد الطفولية. ما ألتَم بنا كان أكبر من مجرد نزوة غير محسوبة العواقب. في بعض الأحيان أحقد على الرجل الذي اخترته. صالح لم يولد لك ولم تولدي له. لا أدري كيف تقاطعت طرقاتكما في لحظة ما من لحظات الحياة. لست سعيدا لذلك. كبريائي لم يكن في محله لكن كلماتي كانت صادقة. لم تعط الفرصة للأيام. كان صالح مثل عابر سبيل هو نفسه لم يصدق عندما قبلت بسهولة اقتراحه. مد يده نحوك، فمددت قلبك وجسدك ويأسك مني. قلبت: نعم أنا قابلة. سأنزوجك والحب يأتي فيما بعد، أمي لم تكن مثقفة. في تلك اللحظة أعتقد أنك نسيت أمك ولم تستعملها إلا كمطية. زوجك لم يعلمك إلا العادات التي بنت عليها أمك حياتها بالكامل: الطبخ، البيت، الفراش وإذا أراد الله الأولاد. طوال اليوم أنت لا شيء، مثل الطاولة والكرسي وإبريق الماء والمزهريّة والكؤوس الممثلة وكتب الرفوف العالية التي لا تقرأ وفي الليل عندما تلتهب مدفونات الجسد، يسحبك نحو الفراش ويسمعك كل أغانيه وهزائمه قبل أن يغرق جسدك تحته لمدة دقيقة مثل الدبك، ثم ينهمك بعدها في شأنه وتعودين أنت إلى وضعك الأول. كان أسوأ من أبيك. فأنت بالنسبة له لم تكوني أكثر من سرير يركبه الواحد لحظة احتراق الشبق المدفون، ثم

يتركه ليعود له مع عودة الرغبة التي لا تنتظر ولا ترحم. أحيانا أتساءل إذا كان للحب تعريف يجعل من الأحاسيس العميقة مقصده ومآله؟  
كل أجوبتي منكسرة وأسئلتي معطلة.

- أنت اللي حبيتني نكون هكذا.

- لا. أنت أكبر من هذه الجملة.

- الحب كان معك واليوم، بدأت أنساه. عندما صممت أن أتركك، قبلت أن أكون إنسانة عادية، مثل كل الناس. مثل أمي. رحمة ربي واسعة.

- ربما يكون هو نفسه قد نسينا في هذا الفراغ المهول الذي يزداد اتساعا كل يوم.

- كنا غالطين. الدنيا ليست دائما كما نتصور. يبدو لي أنه عندما نتزوج علينا أن نقبل قليلا بالعقد وإلا فلا داعي. سيتحول إلى خسارة أخرى تنضاف إلى هزائنا المتكررة.

- الزواج الذي لا يحرر من قيد الدنيا، لا أحтаجه.

- هذا سمعته منك قبل هذا اليوم وحفظته. هل بقي لك شيء آخر لم تقله؟ ماذا فعلت لكي لا نخسر فرصتنا ولكي يكون زواجنا محرراً لنا.

- صمت، لأنني بكل بساطة لم أكن أملك جواباً. أنت تحمليني ما لا أستطيع تحمله لوحدي. تجربتنا ليست الأولى ولا الأخيرة في هذه الدنيا. فشلنا في أن نكون زوجين فلنكن على الأقل صديقين راثعين. أين الضرر في ذلك؟

- لا شيء. ليس هذا هو المهم في قصتنا. العواطف شفاقة مثل الزجاج، عندما تتشقق تنتهي، كل محاولة لرتقها لن تزيد الشقوق إلا اتساعاً. ومع ذلك الشيء الوحيد الذي أعرفه في حياتي هو أنني أحبك وكلما حاولت التخلص منك للتفرغ لزوجي، وجددتني فيك أكثر. ألعن رب اللحظة التي وضعتك في طريقي في ذلك اليوم الخريفي الذي كانت

فيه الأشجار تتعري من أوراقها وكنت أشعر بالبرد. ألعن اللحظة التي رأيت فيها السنة الجديدة تنسحب بسرعة ففضلت أن أكتب لك أول رسالة حب في حياتي وأنتظر عودتك من سهرتك لأقول لك أحبك وأصرخ في وجهك : Basta لم أعد قادرة على التحمل.

- وين الحل؟

- تسألني عنه؟ أنتَ اخترته ودفعتهني إلى أن أفعل الشيء نفسه لتتحول إلى أروع خاسرين بالمجان في الدنيا. أنت اليوم لم تعد مطالب بأي شيء نحوي.

أغمضت عيني قليلا لأبحث عنك من جديد، لأعثر على المهبولة التي كانت عندما تركب رأسها، دفاعا عن حقها، لا شيء يقف في طريقها. ولكنني عندما فتحتهما، لم أجذك، كنت بعيدة. بعيدة جدا. ورأيت النيران تشتعل في القصائد والكلمات وفي سفن سان جون بيرس وفي أشعاره. كانت المرافئ التي سحرت الكتاب والفنانين مغلقة. حتى أبواب المدينة التي كنا ندخلها في آخر الليل أو في الصباحات الأولى بعد سهرة مجنونة عند صديق أو صديقة، سُدت عن آخرها ولم يعد العشاق يمرون عبرها.

كنت بعيدة أو ربما أنا لم أكن قريبا.

البرد الشتوي الذي يدخل بهدوء وطمأنينة إلى العظام. والشارع الطويل يزداد طولاً ويضيق مثل القلب ووجهك يختلط بهذه الأشعة التي تكابد للخروج من وسط الدكنة والضباب.

كانت شوارع المدينة التي بدأنا ننساها الآن، شبه ممنوعة، تهتز فقط للمارشات العسكرية والدوريات الليلية وأصداء الرصاص وصرخات القتلة والاعتقالات وصوت الله المبوح الذي صار يشبه جميع الخلائق ولم يعد له ما يميزه مطلقا.

منكسرا أمشي. أدور على نفسي داخل هذا الصمت المطبق. أنسى الخوف والمفاجآت المخاطفة. الليل جميل بغواياته الكثيرة، في هذه

المدينة التي تشبه المدن الساحلية المعلقة في الذاكرة بالأحرف والصور الجميلة. حتى المصاييح القديمة المتسخة تعطي الانطباع بقصة رومانسية من قصص القرن الثامن عشر. لا أدري إذا كنت كلما مشيت، أحاول أن أتذكر تفاصيلنا الأولى ومصيرنا الصغير الذي ارتبط بهذه المدينة أم أنني كنت أبذل جهدي لنسيانك دفعة واحدة. النسيان بالتقسيط قاتل على الأمد المتوسط بينما النسيان السريع مثل السم، لا يرحم صاحبه.

الليل قصير في هذه المدينة الشتوية التي تتحول فجأة إلى قطة أليفة في المساءات الباردة. ويحدث أن نحلم ونحن نبحت عن دفء نادر في فراش كلما مددنا أرجلنا، ازداد صغرا. وعندما يختلط شخيرنا بترترة القطط والكلاب النائمة عند أرجلنا، نرى أنفسنا نجري تحت الأمطار الغزيرة ونركض بدون هودة نحو الجسر الذي يربط المدينة بعالم الضواحي والأحراش. نتذكر البلاد البعيدة وأرضنا التي تزداد كل يوم بعدا عنا. نتمنى أن نعيش نبوءة كل سحرة البلدة بانفصال القرية عن محيطها عندما تنشق الصخرة التي يتشبث بها الطرف الأيمن من الجسر المعلق. يقال في كتب التاريخ القديمة إن هذا حدث مرارا ولكن منذ الأتراك وبعدها الحملة الاستعمارية، تم بناء الجسر الكبير الذي قاوم الزلازل وتحركات الأرض المتكررة. لا أحد اليوم يعلم متى تتخلى الجبال المعدنية عن الصخرة لينهار كل شيء؟ قصة لا أحد يكلف نفسه عناء إيجاد الأجوبة لها. تعودنا في هذا البلد أن لا نستبق الكوارث ونترك كل شيء للصدفة والأقدار. البنايات تتقدم وتتآكل كوجوه مسنة أصابها الجدري بدون أن يتنبه القيمون على البلاد والعباد لها وأنها ستتهار ذات ليل أو ذات فجر أو سيأكلها طوفان أعمى يشبه طوفان نوح. سيستعيد كل مجاريه التي سرقوها منه وشيدوا عليها الطرقات والممرات والبنايات والأسواق. لقد استعمرت الحضارة الطبيعة والوديان لكن الماء عندما يتحرك سينزع تربته ومن الله قوته ويفرق الأخضر واليابس. حدث هذا منذ قرن وسيحدث إذا بقيت المدينة تواجه تاريخها الإنكشاري لوحدها وتأكل نفسها بينما السماسرة والقوادون والقتلة والمقاولون وتجار العملة

والجملة والموردون للفراغ والمستوردون لكل شيء والعسكر  
والمخابرات والقحبات المحترفات والفقهاء والرعاع يحفرون كالجرذان  
تربتها ويشيدون قهرهم وخرابهم ولا يأبهون للمدينة التي تنحني كل يوم  
متر إلى الوراء قبل أن تنهارى بشكل نهائي .

ومع كل ذلك، أشعر دائما أنه ما يزال لدينا متسع من الوقت لكسر  
الجران العتيقة التي أنبتتها الأزمنة الفائتة في دماغينا وجسدنا الصغيرين  
وأنا مازلنا قادرين على الحب .

«ما المانع؟»

«أنت تهذي يا روجي . كل شيء انتهى .»

«من قال هذا الكلام الفارغ؟»

«ياه؟ هكذا تنسى بسرعة؟ ألم أقل لك إن الحب شفاف وهش مثل  
الزجاج، عندما يُشَقُّ أو ينكسر لا شيء يستطيع رتقه .»

ثلاثون سنة فقط .

لا شيء . بعض الصيادين الذين طالت أعمارهم كثيرا يقولون إنهم قضوها في البحر فقط . ثلاثون سنة لا شيء في حياة إنسان يحب الحياة . وأنت تقولين إنك كبرت وشخت؟ لا . هل تحتاجين لأقول لك إنك مازلت في عفتك . ألا يكفيك هذا؟

— مريم خلصينا من هذا القلق الفارغ؟

— أنت عندك كل شيء ما يمشي على هواك ، فارغ؟

ياه؟ هل كان القدر يقاتلنا ويسخر من سذاجتنا ، في الزاوية المظلمة ونحن نجرح أنفسنا بعناد كبير كالصاادين؟ كلما اصدمت أشواقنا خبا رأسه لكي لا نسمع قهقهته ولا نرى تكشيرته الساخرة . ألم يكن ممكنا أن نخاطله نحن كذلك بدورنا ونعبر فوقه ثم ننزوي ونسخر منه وهو يتلوى غيضا منا لأننا خادعناه من حيث لا يدري وانتصرنا لمعادتنا حتى ولو كلفنا ذلك بعض التنازل عن كبريائنا؟

— ثلاثون سنة ليست لا شيء؟ كم يعيش المرء في الحالات الطبيعية؟ لا شيء . لا أريد أن أضيع هذا اللاشيء .

— ثلاثون سنة؟ ياه؟ تغلقين كل الأبواب؟ ما يزال هناك متسع في العمر فلماذا نختصر ما بين أيدينا؟

— كم أحلم مثل المجنون أن أدعو الله وكل أسأتك من رامبو إلى

سارتر وأطرح عليكم جميعا سؤالاً واحداً: هل أحببتكم في حياتكم امرأة بدون أن يكون في ذهنكم شيئاً آخر سوى حبها؟ أعتقد أن الكثير من أصدقائك سينسحبون من أماكنهم ويخرجون وهم يوشوشون: مبهولة. ومع ذلك ما قيمة الأفكار والأديان إذا لم يكن جوهرها سعادة الإنسان؟ وكم أحلم أن أغادر هذه الدنيا وأنا قادرة على المشي والحب والتمييز حتى أستطيع أن أقف أمام الله بكبرياء وحب، أسئلتني له لا تحصى وعليه أن يتحملني كثيراً. سأنتبه. لا أريد أن أدخل عرشه مهدمة وأحتاج إلى من يسندني لأجابه. أريده إذ يراني، أن يحبني لا أن يوكل أمري للأولياء والملائكة.

- سيقولون لك إن الثلاثين سنة لا شيء في حسابات الدنيا.

- يا خويا لست الدنيا. أنا امرأة فقط. امرأة تحب.

- إنها بداية العقل وتجليه وانفتاح الجسد.

- يا روحي؟ يكفي. يزي من التمسخير. لا تعذب نفسك وتعذبني معك. لا علاقة للجسد والعقل بهذه الأمور. نساؤنا يقضين العمر كله وهن لم يلمسن رجلاً في حياتهن. أما العقل، فذاك أمر آخر. لن أكون إلا أنا، كما تراني الآن، طفلة تفقد عقلها بسرعة عندما يسرقون حقها الأدنى في الحياة. سأظل هكذا حتى يرث الله جسدي. أمي أنجبت أغلب بناتها في هذا السن. ما تقوليش. ما تهريش من السؤال المركزي. قلت لك ما دمنا نحب بعضنا، نتزوج وخلص ونعيش الحياة التي نريد وكما نريد. اليوم نفريوها. يا هاك يا هاك. تعببت... عيبت... عيبت.

- الدنيا ليست بهذه المقاسات.

- وليست بالفوضى التي تريدها.

- والحل؟

- أنا كبرت. ثلاثون سنة. نتزوج ونعيش، لسنا أفضل من بقية البشر الذين يحيطون بنا.

وماذا بعد؟

ألتفتُ نحو الحائط العتيق الذي يقاوم السقوط المؤكد.

لا شيء. قلتُ لك لا شيء. ثلاثون سنة فقط وما تزالين حارة مثل الوطن وطفلة تتعشق الأشياء التي تثير دهشة فضولها وحرارة الشواطئ الدافئة، فلنكن ولو لمرة واحدة في حياتنا جيادا لا تتبعها شقاوة الأيام المرهقة ولا وقع الأحذية الخشنة التي تملأ الأدمغة الشعبية وشوارع المدينة الضيقة.

ثلاثون سنة فقط.

فلماذا كل هذه الطبول الأفريقية التي تعذب دماغك وتقرع لحروب وهمية قاتلة. هل السنوات هالكة ومدمرة إلى هذا الحد؟ وهل ضاقت سبلها حتى صارت مخيفة؟

الليل في بدايته وأنجم الفجر لم تحترق بعد، ترمم كل هذه الفراغات التي تفتحها الحياة فينا دفعة واحدة، كأنها تعاقبنا لأننا لم نعرف كيف نحبها أو على الأقل كيف نعيش الزمن الذي منح لنا.

ألتفت ورائي، لا أرى شيئا سوى الضباب ووجه عيد عشاب وهو جالس في قعدة حكيمة، ينشر قلمه، يرشف كأس العرق الأخيرة ثم يخط الكلمات الأولى في مذكراته. كان ذلك عندما رأى من المملح، في الطابق الخامس، جسد جارتة سيلفيا عاريا عن آخره، في الطابق الرابع، في البناية المقابلة له تماما.

«باب الجسد: اليوم لم أفعل شيئا مهما. كنت قلقا وأنا أغادر الرابطة. لم أجد رسائل سهام التي تعودت أن تقاسمني همومها ومتعب مرضها. ربما كانت تستعد لمفاجأتنا بمجيئها. لم لا وهي تنتظر فقط تحديد يوم المناقشة؟ عندما عدت إلى البيت وقفت كعادتي، منذ أكثر من سنة، بجانب النافذة ونصفي وراء البرادي، وبدأت أتأمل سيلفيا التي تسكن الطابق الرابع من البناية المقابلة، وهي تغير ثيابها وكأنها لا تراني. تتخلص من مساسيكها وأمشاطها وتطلق سراح شعرها قبل أن ترمي الثياب الثقيلة على السرير. يظهر جسدها مصقولا غارقا في النور

كنحت يوناني قديم من تحت الالبسة الشفافة التي سرعان ما ترميها.  
الآن لم تعد إلا الحملات والتبان يحتضنون كل هذا الكيان الغض والحي.  
تمسد على جسدها قليلا كمن يتفقد نفسه قطعة قطعة ثم تذهب نحو  
نهديها اللذين أصبحا مكشوفين، ممتلئين وواقفين. تقترب من المرأة.  
تضع الحلمة بين أصابعها. تتحسسها وكأنها تكتشفها للمرة الأولى.  
تعرك الرأسين الموردين قليلا ثم ترمي على جسدها لباسا فضفاضاً  
خفيفاً يغطي كل شيء مثل ستار مسرح كبير، ينزل قبل نهاية المشهد.  
عندما تنتهي، ترفع رأسها قليلا نحو. تنظر إلي وكأنها تراني مع أنني  
أختبئ وراء البرادي الخشنة. تبتسم بملعنة، تضع أصابع يدها اليمنى  
على شفتيها ثم ترسل لي قبلة دافئة قبل أن تنسحب نحو عمق بيت أهلها  
وأنا باق مسمّر في مكاني، تنتابني الهزات العنيفة لتسري في كل  
جسدي. في آخر الليل، عندما أتمدّد على السرير أحلم وأسترجع الصور  
واحدة واحدة وأترك البقية للأحلام حتى يختلط علي كل شيء في  
الصباح. هل رأيت سيلفيا من وراء البرادي أم حلمت بها فقط؟ وهل  
بعثت بالفعل قبلاً من وراء الستائر أم...

من أوراق عيد عشاب

للمقابر رائحة تشبه رائحة الموت: تشكيل من الأبخرة والروائح البرية والنباتات الإستوائية المحروقة والصنوبر المجفف تحت شمس قاسية والزيوت النباتية المعطرة بالخزامى وماء الورد ونكتار البرتقال. القفر والبرد والمدينة التي لم أعد أعرفها أو ربما توقفت عن أن أكون شيئها الذي تعتز به .

أسمع صوتك يأتيني صافيا كسماء ربيعية، يتدحرج قليلا، يخاتل من ينظر إليه ثم فجأة يدخل الأعماق بدون استئذان .

— يا روحي تسألني الآن عن الحياة؟ أشهد أنني بعد هذا العمر حاذيتها ولم ألمسها . لقد كانت قاسية علي؟ بوف لا شيء . موت مع وقف التنفيذ . وحياتك لا شيء . دخل مفجع . القوي يأكل الضعيف . هل يرضيك هذا؟ أعرف مسبقا أنك ستقول لي لا ، وليست هي المرة الأولى التي أخيب فيها ظنك . ليكن ، لم تعلمني شيئا آخر سوى كيف أخاف من لمس الأشياء ولهذا صممت أن أحترق في اختباري للحياة وأن أقول بصوت عال ما في القلب .

Aujourd'hui, j'ai décidé de ne plus mettre de gans; de dire à haute voix ce que je pense quitte à te vexer ou te peiner. C'est comme ça.<sup>(5)</sup>

---

(5) اليوم صممت أن لا أتحرج لقول كل ما أفكر فيه بصوت عال ومسموع حتى ولو أزعجتك أو آذيتك . هكذا .

أنت ربما أحسن مني لأنك تمنح الحياة شيئاً من روحك وتمنحك أجمل الصور لكتبك. أنا لا أملك ما أقاوم به سوى هذه الحرائق التي تشتعل في، والتي لا أملك حيالها إلا الصراخ وعندما أتعب أنام. عفوا أدوخ. الجمال يدوخ أحياناً كما كنت تقول ولكن البؤس كذلك يصرع صاحبه.

ياه؟ كلامك تغير كثيراً. صار مليئاً بالإشارات التي لا يفهمها إلا من اكتوى بها. لا أعرفك الآن. لقد ضاعت علي السبل.

أين كنت قبل هذا الزمن الذي افتقدتك فيه؟ لم تعودني أنت. أشياء كثيرة فيك انسحبت وأخرى حلت محلها. غيرك الغياب وقتل المرأة التي كنت أعرفها؟ كل شيء فيك انسحب مخلفاً وراءه بخار كأس القهوة الأخيرة ودخان السجارة التي كادت أن تحرق الموكيت من كثرة انغماسنا في أسئلة الحياة والخوف والزواج. أتساءل اليوم إذا لم نكن مخطئين بدخولنا غمار الأسئلة التي ليست في النهاية إلا المنحدرات والمهاوي القاسية لإجابات تنكسر رقابها قبل أن تصل إلينا.

لم أعد أعرفك؟ لا تشبهي بوجهك نحو فراغات المدينة. هكذا أنا، أريد أن أرى وجهك حتى وأنت في أقصى حالات الشطط والعزلة. لماذا إذن لم تعلمك أعوامك المتعبة إلا صورة أمك المنكسرة واشتعالات والدك الذي قبل أن يموت، أضرب عن الكلام حتى سحب نحو تربة القبر، والتثبت في حالة الزواج والعمر الذي تربته يمضي كلعبة الريح؟ الآن بدأ يستيقظ فيك ذلك الشيء الحار كالدم والمؤلم كمطرب الرهافة.

فهل أبدأ منك وإليك أعود؟

أم بالمدينة التي أنهكت عيون الأحياء والشهداء والطيبين؟

فأنت والمدينة في النهاية شيء واحد. كلاكما قابل للصياغة والتشكيل والتحول. يحب ويكره بنفس الدرجة. كلمة تشعلكما فرحاً وأخرى ترميكما نحو هوة القيامة التي لا قرار لها. أنتما كهذه الخلائق

البشرية، غير القادرة على التحول بمجرد رغبتها، لكن قسوة الدنيا والمهالك المأسوية قادرة على أن تهزها في عمقها والفعل فيها سلبا وإيجابا. لا أدري. على الأقل هكذا أتصور. ولا أشك في احتمال خطئي فأنا منذ افتقدتك خسرت كل يقينياتي، حتى الأبسط منها. مثلا: ما معنى أن نفكر إذا كان ذلك يفقدنا أعز من نحب؟ ما معنى أن نحاول العيش إذا كانت هذه الحالة تقودنا بخطى حثيثة نحو الموت المؤكد؟ ما معنى أن نفلسف الدنيا إذا كان كلما فتحنا بابا للأسئلة أغلقنا كل أبواب السعادة. ربما كنت على حق وأنت تقولين لي في ذلك اليوم الذي فقد زمنه وملامحه: أفكارك هذه ستقودك إلى الجحيم. أشهد أنني اليوم صرت فيه.

أراك تقاومين صمتك لكن الكلمات تتسرب من بين شفتيك المطبقتين. قلبي إنني بدأت أسقط في التنظير الأجوف وأناي بدأت أنساك. الحب لا يطبق الأسئلة الكثيرة، قلتها لك ذات يوم، فنسيته وحفظتها أنت عن ظهر قلب.

- أنت نفسك تقول إن الحياة شيء آخر. قد نؤخذ بتفصيل صغير لا يهم أحدا ونحتفل به كالأطفال وقد نمر أمام كنوز الدنيا ولا تهزنا أبدا.

- لا أراني مرتاحا في هذا التفصيل. الزواج؟

- وما معنى الحب إذن؟

الحب؟ لا أدري. ربما كان رهافة كلما حاولنا القبض عليها تفتت كالفراشة المحروقة. ربما كان بكل بساطة ديمومة لا يضمناها إلا الزواج؟ الحب؟ قد يكون ربما بناء وكسرا دائمين؟ هل هو لقاء نشوق له بلهفة أم فراق يشبه الفاجعة نخترله منذ أول لحظة لقاء، نقضي العمر كله نجانبه ونتفادى حدوثه؟ ما دخل الموت في الحب؟ هل هي نقيض الله إذ تقضي على ديمومة الأشياء أم هي استراحة الخاسر في معركة الحياة؟ ومن الخاسر، الذي ودع الدنيا بأقصى سرعة أم الباقي وسط الخسارات التي لا تحد؟

- في هذه الحالة كلنا خاسرون في معركة الحياة لأننا كلنا عرضة للموت الحتمي.

.....؟

- لا تقل إنك لا تملك ردا.

.....؟

اعذرني فأنا متعب هذا المساء ولا أحمل في ذاكرتي إلا هواء ساخنا. لكن لا تشيحي بوجهك يا مريم. أعرف جيدا أنني خيبت آمالك الكبرى. ربما كانت هذه الخيبة هي التي تربطنا بعدما تجردنا من الكثير من الأشياء الرائعة. الأشياء الدقيقة التي تحيط بك ليست تافهة أبدا بالقدر الذي تصورين.

لا أدري إذا كانت مدننا هي المنكسرة أم نحن. لقد صارت تشبهنا كثيرا، حزينة ووحيدة. كلما سقطت الأمطار، ازدادت عزلة وانكسارا. نست نفسها وأفقلت ذاكرتها مثل الذي يسد بابا للمرة الأخيرة حتى لا يشم رائحة الذين كانوا معه. ونست شهداءها الأشقياء الذين نبتت الأعشاب المتوحشة على قبورهم.

يحدث أن أساء بسذاجة الأطفال عن تفاصيل الحياة الصغيرة التي تمر عادية وهي ليست كذلك، أو التحول في لحظة غبن طفولية إلى وردة صفراء أتعبتها أرجل المارة، أو إلى مراهن أنهكته شوارع بلدته المسكونة بصوت الرصاص والأوامر الصفراء التي تستفز كل حواسه، فجلس على حافة الطرقات القديمة يتحين فرص خداع المدينة والظفر بمومس من مومسات الشوارع الخلفية اللواتي تبعن اللذة سرا لزبائن ليسوا دائما شيقين.

مريم... يا شريفة كما كانت تسميك نساء القرية، يا غنية القلب والروح والحواس ومرثية الوجداني والقانط، أسألك في غفلة من كل حواسي، هل نتواطأ مع لغة القلب ونبدأ الحكاية كما تبدأ عادة الحكايات الشاقة والجميلة أم نتركها لخرير الوديان وتناسل أمواج البحر؟ مدينتك

التي شهدت ولادتك الثانية وتفتحك، تعشق البحر وتفتخر بأجدادك  
الأندلسيين وبجبال فلاوسن وزندل، التي لا تموت خضرتها، وبالغابات  
الرائحة التي لا ينتهي امتدادها وبالقدّيس سيدي عبد المؤمن بو قبرين،  
الذي باع تاريخه الأنديسي وراهن على الدنيا مقابل ابتسامة هذه المدينة  
وبحرها.

هل بدأنا الحكاية أم مازلنا على الحواشي، نندرب على القول؟ لا  
أعلم. كل ما أعرفه هو أن أصعب الأشياء هي البدايات دائما. هل نخرج  
من عمق الروح المنهكة ذلك الشيء الحار أم نتركه لتكسرات الليل  
والنهار في لحظة تعاقبهما وتداخلهما ولابتساماتك التي تنكسر بسرعة  
على الأوجه الحديدية وشقاء اللحظة وعلى الأبنية العتيقة والأقبية التي  
تعم في الظلام.

قد يكون البدء من عينيك لا يسهل المهمة ومع ذلك فأنا لا أرى  
مدخلا أليق من ذلك، فيهما اختصار الزمن وأصل الحرائق الكبرى التي  
ألمت بنا وكان يمكن تفاديها. حمو المهبول والطيب حليلو وعمرو  
الدانجورو والزهراء عميش التي تسلفت كل الدروب الوعرة، مجانيين  
البلدة الميامين الذين انتهوا فجأة تحت عجلات السيارات العسكرية  
والحواجز المشبوهة، يقولون إن لا شيء سوى العين من يستطيع حفظ  
التفاصيل بألوانها ونبضها وحياتها الأولى. أنت نفسك قلبت لي وأنت  
تحدثين عن أمك أنها حينما تتألم يتغير لون عينيها وعندما يغمرها الفرح  
تشق بؤبؤها ألوان قزحية متداخلة الألوان وتغرق في نور قل ما تجدينه  
في الحياة العادية. عندما كنت صغيرة، كنت تسدين ظهرك على حائط  
مقام سيدي عبد المؤمن بو قبرين وأمك بجانبك ممددة، تتلذذ بترية الولي  
الصالح وبرائحة شجرة التين العملاقة التي يقال إنها خرجت من ضلعه.  
فجأة رأيت شعاعا أبيض يتسرب من بين وريقات شجرة التين العملاقة  
ويخترق عينيها، صرخت بصوت مرتعش: دقيقة يا يما الله يحفظك.  
افتحي عينيك قليلا، فقد رأيت ظلالا وألوانا كثيرة وطبقات لا تحصى  
من التداخلات. تفتح أمك عينيها. لأول مرة تكتشفين أن في عينيها

أسراراً لا تحصى . العين تفضح صاحبها . تفرئين فيهما كل التفاصيل ،  
ترين مثلاً جدك البربري الذي حزم أمتعته وغير مقامه خوفاً من الهجمات  
الرومانية ، ثم تتضح صورة ذلك الوجه الصبوح لرجل ملتج وذو شعر  
طويل . رجل ينفرد بالحكمة وبقراءة القرآن بقلبه ، جدك الأندلسي وهو  
يفارق اخوته بمزيد من المرارة ليتخذ كل واحد منهم وجهة . تأتيك  
الحروب التي قادت جدك في القرن الثالث عشر إلى هذه الزوايا الخالية  
التي لا شيء فيها سوى البحر الذي ينام تحت الهضبة التي كان جدك  
يقيم فيها صلوات الفجر .

الذين عبدوا النار في عيون النساء ، لم يكونوا مخطئين أبداً . كانوا  
يعرفون أن أصل السعادات الكبرى والحروب القبلية المدمرة قد يبدأ  
بنظرة وربما بالتفاته صغيرة لا أحد يحسب نتائجها .

أمي، الله يرحمها ويوسع عليها، كانت شيئاً آخر.

عندما ماتت، كان أبي منكفئاً داخل صمته ولم يكن يعرف أنه فقد المرأة التي ظل طوال عمره يقسم ويعظم بقتلها. كنت أنا في الجامعة ولم يخبرني أحد إلا بعد أسبوع من دفنها. لم يكن أحد يهتم لأمرّي ولا يعرف الدم الذي كان يربطني بها. بكيت وندبت. أيعقل في ست بنات لا توجد واحدة يأكلها قلبها؟ كنت مثل أمي في الكثير من الهبل وأعطيت بسخاء وأهتز إذا مرضت إحداهن. بعدها مرضت وكدت أموت. في النهاية، وقفت على قبرها واعتذرت لها طويلاً لكل ما يمكن أن يكون قد صدر مني. الغريب أنني سمعتها تبكي، ليس من الموت ولكن من شدة البرد والوحدة. أمي مثلما جاءت، عادت، بغرائزها وعفويتها الأولى وأسألتها المخبوءة. قبلت الحياة كما منحت لها ولم تفلسف في يوم من الأيام وضعها. لكنها كانت كلما حزنت، تأتي وتسند رأسها على كتفي ثم تعتم في أذني:

— ما نعرفش علاش يا مريم، كلما تألمت، أشعر بالبرودة؟

— أنا معك يا بما.

— الحمد لله اللي راك هنا. نخاف من شي واحد مين نمشي، أن يكون الموت بهذه البرودة. ما نستحملوش.

— الموت يا بما يحرق القلب ما بيردش.

جميل أن تشعر أن هناك في زاوية ما من هذه الكرة الأرضية من يفكر فيك ويتألم لك ويهتز لألامك وأشبائك الصغيرة. انطلقاً كل شيء في عيني وعدت إلى دراستي في الأسبوع الموالي ونسيت نهائياً أن لي بيتاً وأباً وأخوات. أعذر فقط أختي خيرة التي أكلها الهم فانتحرت وأحن كثيراً إلى أختي الصغرى التي ماتت بوباء الكوليرا وأجد أعدداً حتى لأختي الوسطى التي زوجت برجل أعمى يكبرها بنصف قرن والبقية يا ربي سيدي لوين راحوا؟ فجأة لم أجد نفسي معنية بأي شخص في الدار. ياه كم كنت غبية؟ كنت الوحيدة التي تسأل عنهم جميعاً ولا أحد يسأل عني، أما زلت حية أم مت؟ نعشيت أم لا؟ نمت أم بت في الخلاء؟ مثلما كانت تفعل أُمي.

أُمي كانت شيئاً آخر لا يشبه إلا لنفسه، لا مقابل له.

يصعب علي أن أحدد إشراقها وأن أصنع لها صورة كاملة. شمسنا قاسية، ولا أحد يستطيع أن يواجه حرقها مفتوح العينين. أُمي كانت تفعل ذلك كلما اشتتت أن تبكي أو أن تستشير خيرة الشمس. الشيء الوحيد الذي ظل صافياً فيها ولم تقهره الأيام، عينها. كلما اخترق شعاع ما ضباب السماء، جريت نحوها كالطفلة الصغيرة:

— بما يعيشك، خلّ عينيك مفتوحين شويه، هكذا.

— واش راح نشوفي؟ الهم قتل كل شيء واللي بقى كمل عليه أبوك. يا حسراه!

— أبدا. حتى شي ما بقدر يقتل هذا النور.

— العمر يا ابنتي صعب وقاس والدنيا ما ترحمش.

— غير الموت اللي يقدر على العينين. ما نيش عارفة من وين جيت هذه الألوان؟ تعرفين واش راني نشوف؟ جدي عبد المؤمن بو قبرين وهو يركب سفينة العبداء بصحبة خادمتة مريم وأخته التي تجلس بجواره، ثم اخوته الستة وهم يدخلون إلى القمرة الواحد بعد الآخر، يطأطئون رؤوسهم حتى لا تصطدم بالعتبة. ثم يجلسون بجوار أكداش القمح

والشعير والأفرشة. أرى جدي قدور وهو يحمل بندقية الساسبو ويفتح النار على أولى القوافل العسكرية التي دخلت أرضنا لحرقها ونهب تربتها. حتى التربة يا بما تنهب وقت الحروب الظالمة. أرى خليطا من القرون والألبسة والخيام والنباتات والوجوه والشموس المختلفة والألوان. أرى ما لم أراه في حياتي أبدا.

لم تفقد أمي ألق عينها حتى في أقسى اللحظات وأكثرها عزلة وخوفا. كانت عندما تكتحل، تظهر كل التفاصيل التي تعطي لمحيط عينها، الذي يشبه لوز البلدة الذي يعيش بالقرب من مقام جدي، ألقا استثنائيا. حتى أبي الذي ظل يقهرها قبل أن تقتله بلاغة الصمت القاسية، لم يستطع منعها من رؤية الدنيا كما تشهوها.

هل تعرف ما معنى أن تكون لك أم مثل أمي، يقهرها الزمن ورجل مبتسح حاول طوال عمره أن ينزع من عينها تلك الشعلة الزرقاء والحية وعندما تموت لا تجد حتى من يرفع إصبعها للشهادة هي التي أعطت كل شيء؟ بزاف علي؟

كم أشتي أن أكون ابنة أمي فقط ولا أحد لي سواها.

أمي بكيته بحرقة يوم ماتت. عندنا في البلدة يقولون اللي يتيم، يتيم من أمه.

يوم مات والدي لم أبك. في لحظة أردت أن أمثل أمام الناس ولكن الضبابية التي غلقت وجهي منعتني من كل شيء. بقيت أياما صامتة حتى شعرت أن عدوى والدي قد مستني وبعدها نسيت تماما وانطفأت نهائيا ملامحه في ذاكرتي.

اليوم كلما حاولت أن أتذكره، أخفق. فقد انسحبت تفاصيل وجهه دفعة واحدة. أيعقل أن يمحي من الذاكرة وجه من أعطاك الحياة، بهذه السهولة إذا لم يكن في داخلك قدر من الكراهية لا تستطيع لجمه؟

— تعاتبني يا حبيبي اليوم على قسوتي تجاه نفسي وتجاه الحياة وتجاهك؟ فلومني على رغبتني في الزواج؟ أريد أن أرى أبنائي وأن أذهب

وإنا شبعانة منهم، هل هذا كثير علي؟ لا أريد أن يحصل لي ما حصل  
لأمي، ذهبت وهي لا تعرف إذا ما كان يجب عليها أن تحقد على والذي  
الذي لم يترك لها فرصة الشبع منا واللعب معنا. كبرنا كالقطط وهي لا  
تعرف. بعضنا تزوج وهي لا تدري أن شيئاً من هذا حصل. لا يا خويا،  
اسمح لي، ثلاثون سنة يزاف علي. ما نقدرش.

.....

— ياه؟ ما أقسى صمتك؟ ماذا يجب أن أفعل لأقنمك أنك تملأني  
وأنتي أريدك وأشتهيك ولكني أرفض أن أكون امرأة موسمية. صحيح أنني  
امرأة أنانية ولكنها تحبك. لا تنس هذا. لماذا تبخل علي بشيء يمكن أن  
يمنحه لي أي رجل. يكفي أن أرفع إصبعي. لكني أريد كل شيء منك  
لأنني أحبك؟

هل يحدث لك أن تفكر أحيانا في غير ما نحن فيه؟ أن تفكر في  
قليلاً في لحظات سهوك؟ أتمنى ذلك، لا يكلفك الشيء الكثير. وإذا لم  
تفعل حتى الآن، جرب وقل لي عن حرائقك التي تنهبك من الداخل، في  
الرسالة القادمة.

يا مهبول، لا تنس أبداً أنني مجنونة بك.

- استحفظ على روحك شويه يا خويا. ما عنديش غيرك. ألبس  
مليح، ما راكش في الصيف.

- لبست معطفي والكنزة الصوفية.

- تعرف يا حبيبي، يحدث معي أن أستدرج الشتاء فقط لأراك تلبس  
معطفك الخشن. فهو يذكرني بالصورة الوحيدة لوالدك. فقد كان أنيقا  
جدا. معطفك يدقني. يجعلني كلما هبت الرياح الشتوية المفاجئة  
أحتمي بك. أختبئ فيك كالقطة الصغيرة التي تبحث عن زاوية أقل  
برودة.

- ياه يا مريم تلمسين الجرح بكلامك، بخزرتك، برؤوس أناملك  
كعازفة لها ثقة عالية في نفسها. أنا كذلك مثلك، أحب هذا المعطف،  
ربما لأنني أشم فيه رائحة المنفي وأحاول أن أستشعر قساوة الأحاسيس  
المبهمة التي كان يحسها وهو يعبر شارعاً ما أو وهو يدخل إلى محطة  
أتوبيس أو مترو أو يحدث صديقا في زاوية ما، لاقته به الصدفة  
الطيبة... ؟ ألبسه وأراك تخبئين رأسك داخله تحت دهشة العيون التي  
تربكها الأسئلة.

- ياه؟ أنت واعر. أنت حاب تهيلني. تحاول عليّ. من أين نتحت  
كل هذا الكلام الجميل؟

- ألا تعرفين؟ قلبي والله؟

- والله لا أعرف .

- إنما هو وحي يوحى... ها... ها...

وأفقه مثل الذي نصب لك شركا ليخرجك من صرامتك ومن جديتك المفرطة .

- ألا يمكنك أن تكون جديا مرة واحدة في حياتك؟

- تعرفين يا مريم أن أول درس أعلمه لابنتي هو أن لا تكون جدية كثيرا أمام الحياة وأن تأخذها كما هي وما تقلبهاش غم على نفسها . شوية للرب وشوية للبعد .

- يا بخت المرأة التي تمنحك هذه البنت ! كم ستكون سعيدة؟  
ثم تنظرين إلي بعينين تتقاطع فيهما كل ألوان المساءات وانكسار الأضواء على الزجاج والطرق المبللة منتظرة جوابا تشتهيته . تتممين :  
- ابتك؟ ومن أدراك أنها ستكون ابنة؟

تستدرجيني . أسخر . أخاف أحيانا أن تتحول المزحة الطارئة إلى قدر قاس . هذه كلها جملك :

- ألم أقل لك؟

- لا .

- قولي وحياتك؟

- وحياتك .

- إنما هو وحي يوحى .

- أنت لن تتغير أبدا . ما أوحشك .

البرد والأمطار والعزلة المطبقة، يقوون شهوة المشي في المدن التي تشعل أنوارها متأخرة .

أتساءل اليوم وسط هذه العزلة وهذا الانكسار، هل انتهت تلك السعادات الصغيرة التي كانت طابعنا اليومي؟ هل نسيت أننا كنا نصنع الفرحة حتى في أكثر اللحظات قسوة .

أتحمس تفاصيل الزمن المنزلق بين الأصابع كالماء. أسترجع وجهك الهارب. من الساعات الأولى للصباح حيث لا شيء يعكر صفو اللحظة وانتهاء بالمساء وهو يجبر وراء تفاصيل اليوم بكامله. أراك عصفورة تفتح عينيك بهدوء، ثم وأنت تنهضين بصعوبة من سريرك، بقامتك الرشيقة وجسدك المنحوت بإحكام. تضعين قبلة على شفتي. في فمك بقايا رائحة هود النوار الذي بتنا نمضغه حتى الفجر ونجرب جدواه في الفراش ونحن نسخر من وصايا النفزاوي. يقولون إن عود النوار يقرب الأرواح من بعضها البعض ويعطي الأجساد رغبة لا تقاوم في الاندماج والاستمرار في الحب طويلا. ثم نهز رأسنا: هاه؟ يبدو أن الذين استعملوه قديما لم يكونوا مخطئين. الدليل. ثم تلمين ألبستك الداخلية المبعثرة، الحمالة والتبان ولباس النوم الذي يميل نحو خضرة طمسها ضباب الفجر، كنت أحبه عليك لأنه يعطي لجسدك كل انشاءاته. تنظرين إلي وأنت تخبئين ابتسامة ساخرة:

- شفت عود النوار دمالك واش دار في؟ هبلني.

أغمغم:

- لم يفعل أكثر من أنه منحنا قدرا من السعادة لتنسى أنفسنا قليلا.

ثم تأخذين التنورة ذات اللون البني الغامق وأحمر الشفاه وعطرك وبعض الكتب المتراكمة في فوضى، على الطاولة العتيقة المحاذية للسرير: تغريبة بني هلال، سيرة عنتر، سيف بن ذي يزن، أساطير الأولين والحكايات الشعبية، الشعر القديم، مؤلفات نوال السعداوي الكاملة التي اكتشفتها متأخرة، التي تبعثرت كلها ولا أحد يدري كيف حصل ذلك.

ألبس بسرعة وأنتظرك. وحين أصبح لكي تسرعني قليلا.

- مريم، بسرعة شوية، الوقت يمر وسنصل إلى الجامعة متأخرين؟!

تحورين عينيك كمن يؤنب خصمه، ثم تتركين ابتسامة تتزحلق على وجهك كالموجة البحرية الهاربة.

- لحظة . على المحب يا حبيبي أن يصبر .

أصمت قليلا ثم أجلس في الزاوية، على الكرسي المهمل وأبدأ في التطلع إلى حركاتك غير المنتظمة . أراك في فوضاك المعهودة مثلما يحدث معك عادة عندما تسافر في لوجدك، تصلين دائما في الدقائق الإضافية التي تمنحها الخطوط لمسافريها، لا تغلقين الحقيبة بإحكام إلا داخل التاكسي ولا تضعين الماكياج إلا وأنت متكئة على مسند السيارة، وأنا لا أتوقف عن ملاحظاتي وأغلي:

- مستحيل أن تتغيري . هذا سفر وليس لعبا .

ببرودة غير معهودة فيك تذكرني بنفسى وكأن السحر انقلب على الساحر .

- Que veux-tu, c'est ça ta bien-aimée? Ta femme qui voyage tout le temps en catastrophe. Tu es obligé de me supporter et de m'accepter telle que je suis. Je ne pense pas que tu as beaucoup de choix. Tu es mon professeur en la matière. Il ne faut pas prendre la vie trop au sérieux.

- C'est ça. Je crois que cette fois-ci j'ai bien compris. Même très bien.

- C'est à dire?

- Tout simplement que tu es incorrigible.<sup>(6)</sup>

ثم تنغمسين داخل فوضاك، تبحثين عن أحمر الشفاه الذي ينام عادة بين ركام الكتب المتراكمة، الأساور السبع الرقيقة التي اشتريتها لك من حقوق التأليف التي تلقينها من كتابي الأول . حقيبة اليد العتيقة الجلدية،

---

(6) ماذا تريد، تلك هي حبيبتي . امرأتك التي كل أسفارها حالات طوارئ . عليك أن تتحملني وتقبل بي كما أنا . ولا أعتقد أن لديك خيارات كثيرة . فأنت معلمي، ويجب أن لا تأخذ الحياة بجدية زائدة .  
- تماما . أعتقد أنني هذه المرة فهمت جيدا .

- إذن؟

- بكل بساطة، ميؤوس منك .

التي اشتريتها من أحد محلات الصالحية. الصالحية؟ قصة. يومها كان من المفترض أن ننزل مع بعض ولكن لخلاف تافه بيننا كل واحد سلك طريقة، ركبْتُ رأسي واستغنيْتُ أنت عني. رافقك صالح، واحد من سكان فيلا الإطفائية. لم يكن يطلب فرصة أفضل من هذه. كنت تعرفين ضعفه نحوك ولكنك كنت تعطفين عليه وترين فيه طفلا لا يعرف أذى الناس. عندما تنغلق عليه السبل يبكي أو يطلب النجدة من غيره. عندما أردت أن تدفعي ثمن الحقيبة اليدوية، سيقك ولم يترك لك فرصة الكلام. قال أنا أدفع ودفع. حاولت. أقسم برأس والدته أن لا أحد غيره يدفع. لم تعلقي كثيرا. في الطريق سألك كثيرا عني. كان قلبك ممثلا تجاهي. شعر بذلك. تذكرين كلمته التي قالها وعرفت مغزاها. أرض الله واسعة والرجال كثيرون. نسيبت الحادثة ولكنها تكررت كثيرا بين المسافات الفاصلة بين الإطفائية ومحطة البرامكة التي كانت تقودنا جميعا نحو الجامعة. وذات صباح وأنت خارجة من المدرج دعاك إلى شرب قهوة. لم تمنعي. كنت تعرفين أنه منذ حادثة الحقيبة الجلدية وهو يحاول أن يتقرب منك. هناك أعلن لك عن حبه واستعطفك ببيته وأشعركَ أنه لا يستطيع أن يراك كل مساء تذهبين للنوم معي ويبقى هو في الصالة يستمع إلى تنهداتنا.

ضحكت وحاولت أن ننسي الحكاية. وعندما أصر، صممت أن تضعي حدا لوضع بدأ يرهقك ولم تعد لديك الطاقة لتحمله.

- بالمختصر المفيد واش راك حاب مني. أن ننام مع بعض؟ أن أكون صديقتك فقط؟ أن نتزوج؟

عادتكَ عندما تريدُين حشر واحد في الزاوية الضيقة. صراحتكَ قاتلة. ارتبك وهرب الكلام من فمه وانعقد لسانه على نفسه حتى صار مثل الكرة.

- أ... أ... أر... يد... أن أتزوجك. أنا... أحبك.

- شوف يا ولد الناس، في الوقت الحالي، أنا أعشق رجلا مهبولا مثلي، يملأني عن آخري وحتى ولو كان يرهقني بسخريته وصمته، ما

نبدلوش بمال قارون. ولكن إذا تخلص مني، لا قدر الله، سأ تزوجك.  
مليح؟

برقت عيناه بشيء من الفرح والغبوة.

- مليح.

ثم انسحب نهائيا ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر موضوع الزواج منك  
ولا يتمه.

لم يكن ما قلته أكثر من سخرية لتفادي وجع الرأس، لكن القدر  
كان يكشف عن أنيابه في مكان ما. يوما، عندما فاتحتني في الموضوع،  
اندهشت من تصرفه ولكنني سرعان ما تماكنت نفوري وانزعاجي. قلت  
لك:

- مسكين. خذيه على قد عقله. مصاب بك.

- صالح؟ يحتاج إلى أم أكثر مما يحتاج إلى صديقة أو زوجة.

- يعشقك الله غالب. لا جناح على المصطلم كما يقول الصوفية.

- يا خويا؟ أنت هذا واش تعرف تقول؟ أكلت قلبك؟ ما تعرفش

تغير؟ ولو كان نتزوجه واش راح يصير؟ نغار علي وإلا تقتلني؟

- طبعاً نغير عليك ونقتل اللي يسرقك مني.

أدركت في النهاية بعد المزحة أنني لم أقتل إلا نفسي.

تهديين ثم تحورين مرة أخرى عينيك الغارقتين في البياض.

- Au moins comme ça c'est mieux. Tu me réconfortes mieux.<sup>(7)</sup>

قبل أن تغادر الغرفة، أستحم في عينيك، في شفيتك، في كل زاوية  
من جسدك. لم تكوني المرأة التي يشبع منها المرء. شراستك تبعد عنك  
من لا يحبك فقط. لك دائما شيء جديد، يضعني في كل مرة أمام  
مأزق.

وأحاول بهدوء أن أتلمس رهافتك ورقتك الكبيرة وتفاصيلك التي

---

(7) على الأقل هكذا أفضل. أنت تطمئنتي أكثر.

تستقر في الذهن كأحجار الوديان الثقيلة. أشتاق إلى فوضاك بنهم غريب. ياه؟ كم يتحول المرء عندما يغيب؟ لا نتذكر منه إلا الاستثناءات التي كنا نرفضها فيه عندما كان حيا، فهي التي تميزه عن المخلوقات التي تملأ الدنيا. كنت هنا ثم فجأة لا أسمع إلا أصداك وبعدها لا شيء. لا شيء.

أنت هي أنت. عينان هادئتان، تبحثن عن شيء ما يزال بعيدا، تصفقان من حين لآخر بخجل كبير. على اليد اليسرى، ينام سلك نحاسي صغير في شكل إسورة ذهبية. وعلى معصم اليد الأخرى بقية الأساور الرقيقة الأخرى. ست. أنف دقيق، نافر، كفرس جموح لا تروضه الفرسان. ترابط تحته، عبر خط مستقيم يتعمق كلما ضحكيت، شفتان متقنتان وممتلئتان تبرزان أكثر كلما متتهما قليلا أحمر الشفاه البارد. ووجه طفولي، نبوي الخطوط والإشعاع، يغتسل وسط خمرة معتقة.

«من أين تأتي بكل هذا الكلام دفعة واحدة؟»

«من قلبي. هو منجمي الذي يرحل معي عندما أخرج من هذه التربة.»

«لأ؟ لماذا؟ أنت بالذات قلبك ليس لك وحدك. لكل من يتمدد مساء ويقرأ كتبك ويحاول جاهدا إلقاء القبض على وجهك ويتمنى أن يلمس يدك كالولي الصالح.»

«عندما نكتب نقاسم مع الناس بعض أوهامنا وهزائنا الصغيرة.»

- Non, ce n'est pas seulement ça. Une écriture qui ne fait pas rêver, n'est pas une écriture. Toi par exemple, avec tes mots, tu nous balances dans une vague de nuages bleus, roses et surtout violets.<sup>(8)</sup>

---

(8) لا، ليس هذا فقط. الكتابة التي لا تدخلنا غمار الحلم، ليست كتابة. أنت مثلا، تدحرجنا بكلماتك داخل موجة من الغيوم الزرقاء والنيلية والبنفسجية تحديدا.

وحينما تنتهين من ترتيب نفسك ويصبح بيننا وبين التدحرج على  
إسفلت المدينة لحظة، تكتشفين نفسك للمرة الأخيرة في المرأة بشغف  
كبير كمن يفتح عينه على صخب البحر لأول مرة. ثم تمسدين قليلا  
على شعرك وصدرك وخصرك. تلاحظين فجأة أنك سمعت قليلا.

- السمعة ليست جيدة أبدا. بديت نتبلبل. يا الله، خير من القصة  
اليابسة. على الأقل عندك واش تقبض.

- لا، أنت هكذا جميلة ورائعة.

- أشعر بضيق الفستان قليلا. ما عليهنش، أنا سعيدة، ما دمت  
تحبني هكذا.

- يا مجنونة الله يعقلك؟

- واش ندير بالعقل إذا كان يحرمني من الجنون معك.

عند العتبة، تنتهين فجأة، في آخر لحظة، أنك نسيت المطرية  
الملونة بأشكال قوس قزح. المدينة ههنا، تعيش الفصول الأربعة في  
لحظة واحدة. تضعين كتاب لينين عن المرأة الذي أهديته لك في أحد  
أعياد ميلادك، في حقيبتك اليدوية ثم نخرج. لقد بدأت رحلة الصباح.  
الجامعة، البريد المركزي، السينما أو المسرح ثم التسكع في شوارع  
المدينة قبل أن نندفن في أقرب بار نستدفي فيه بحرارة البخار وبيرة بردي  
المحلية.

تبتسمين ابتسامتك المعتادة، غزالة يعذبها الخوف.

- هيا نروح، الآن أنا لك، دير في واش تحب.

- بعد نصف ساعة سيدخلون المدرج ونحن ما زلنا هنا. لا وقت  
لا للكلام ولا للوم. مساء سنحضر مسرحية الزير سالم اللي أخذ عقلك  
وفي النهاية نمسح تضاريس المدينة حتى الفجر. يا الله بسرعة يا للاً.

نخرج باتجاه محطة البرامكة ونلوح لمن تركناهم في صالون فيلا  
الإطفائية، للأصدقاء الذين تجمعنا بهم حيطان هذا المكان العتيق، ثم  
نخرج إلى قلب المدينة المرتبك. نبحث عن الواجهات، وفي الشوارع

وفي أدمغة المارة الذين لا ينتظرون، عن شيء ما يزال ينقصنا في الأعماق وعن بقايا إبتسامة انكسرت على هذه الخطوط العريضة والجميل التي تتسلق بتكاسل، الحيطان المعوجة والهرمة، بالقرب من محطة البرامكة، حيث تركن باصات أتوستراد المزة.

«السادات ويا غدار...»

«ونستون هي الكمال بالمتعة.»

«أوريانت صولار كوارتز. الساعة التي تأسر الشمس وتضبط مواعيد صلاتك.»

«ريكال سيكون، جينة أبو الولد الأصلية.»

«اليتيمة... الفلم الذي أبكى الملايين، آخر إنتاج الموسم.»

- الاستهلاك الذي لا يرحم والموت البطيء بين جمل الإعلانات التي تفتالنا في كل لحظة وهزائمنا التي نحولها بقرارات رسمية إلى انتصارات.

- هذا هو وطنك. ما هي البدائل التي صنعناها لأبنائنا، ما عدا خطابات الموت التي تقتلنا قبل أن تقتل أعداءنا؟ أنا أقول لك: صفر. لا شيء.

تدحرجت الكلمة في أعماقي ثم واصلنا السير بصمت. نكتشف المدينة، ونحاول أن نفتح أعيننا بصعوبة كبيرة على وجوه المارة والعابرين، متصنعين نوعا من الألفة مع المحيط الذي بدأ يتقاتل في يومياته الصعبة والقاسية.

وحين تمتلئ رئيتنا الصغيرتين، بغازات المدينة، وبأتربة مرتفعات قاسيون الذي تعرى جسده الصلب والقاسي من كثرة الخيبات، نجد أنفسنا فجأة مصطفين مع طابور الواقفين في انتظار باصات الجامعة.

وداخل الباص المكتظ، تتطلع إلينا العيون بنهم غريب. أبحث عن سبب الدهشة، ربما كان شيء ما فينا يدعو إلى ذلك. أمسد على شعري وأدخل أصابعي كلها عميقا لأزربعه ويحافظ على استداراته الصغيرة.

أتحسّس مقدمة سروالي، مؤخرتي، حذائي، وجهك، فلا أجد شيئاً ذا أهمية غير يدي اليمنى التي تنام على خصرك بارتياح غريب. أغمض عيني لأراك في الصورة التي تقربني منك أكثر. أتذكر عود النوار. أضحك. أستعيد كلمات هذا الصباح عندما غادرنا السرير المكتظ بحماقات الليلة الفارطة. واش دار في عود النوار دياك؟ أزداد غوصاً في وجهك الذي صار الآن أكثر إشراقاً وفي النهاية لا أستيقظ إلا على صوت الجابي وهو يصرخ بأعلى صوته عند نقطة التوقف:

- وقف. الجامعة. يا الله يا شباب فرجوني عرض أكتافكم. وصلنا.

ننزل. ننساب بهدوء نحو المدخل الرئيسي للجامعة ونختلط مع مئات الطلبة الذين يأتون من كل الجهات ليتقاطعوا صباحاً عند هذا المدخل الذي يتلع كل شيء، كل شيء بدون استثناء.

دقيقة واحدة ولنمض بعدها في تفاصيل الحياة. أنا الآن متعب ومنكسر. أجد مشقة كبيرة في تجميع أفكارى والوصول إليك.

دقيقة واحدة فقط يا طفلة الأشراق الحزينة ويا مدينة مرجوعة القلب، تعج بالأطفال الفقراء ومساحي الأحذية، ويتاعي الفول وأقراص الفلافل التي تحترق في الزيوت النباتية العتيقة بالقرب من سوق ساروجة، والنساء الجميلات على امتداد شارع الصالحية. يا طفلة ساذجة، تتقاتل في دمها الأسئلة القديمة والجديدة وروائح هذه الممرات الضيقة وهذه الطرقات التي يحدث أن تصبح فجأة مهجورة، خالية حتى من أنفاس أبسط القطط والمخلوقات الأخرى التي كانت تملأها عادة حتى صارت جزءاً مهماً من الديكور العام للمدينة، من باعة وخمارين احتسوا مشروب البراندي أو المازوت كما كنا نسميه وجلسوا في الساحات العامة يستذكرون الفتوحات الغرامية الآفلة والهزائم العربية ويحددون الاستراتيجيات الكبرى لمحاربة العدو القومي. يكون اللحظات المكسورة ويداعبون الأشياء الصغيرة التي تحيط بهم، الحشرات، الوريقات اليابسة التي يعبث بها الريح هنا وهناك وأعقاب السجائر المتناثرة عند أقدامهم والصحف العتيقة التي يحلو لهم أن يشوهوا صور الساسة التي عليها قبل أن يثقلوها بالبول.

كانت المدينة قد بدأت تخسر ملامحها ووجهها.

دقيقة فقط يا صديقي، أشعر الآن بوجع كبير في الرأس، وبعدها

فليبدأ ذلك الشيء الحار، الخجول، ينمو في خفاء ما كطحالب الوديان الراكدة. فالوجوه الغامضة في هذه المدينة التي علمتنا التاريخ وحاربت العدو القومي، لم تعد اليوم مثلما كانت. بطونها النخيفة صارت اليوم دائرية، بيوتها الطينية صارت عمارات وناطحات سحاب وحساباتها البنيكية خرجت من هذه الأرض باتجاه المدن البعيدة. لم تعد أقلية، فقد تكاثرت حتى صارت مخيفة، في كل انعطافة يواجهك رجل يمسد على مؤخرته خوف انزلاقها ثم يقف في الزاوية المواجهة للبنك ينتظر السيارة السوداء التي تمر عليه لتأخذه لتبييض مال النفط والسلاح والمخدرات والبحث عن كل ما يبرر خسائرننا المتراكمة داخل مهرجانات الكذب.

كنت أخاف عليك وعلى عينيك من هذا الموت. فالمدينة يا مريم أكبر من طموحات الصبية الذين فتحوا أعينهم الصغيرة على ليل مشوه شبيه بوردة محروقة، وعلى بقايا جثة تفسخت على خشبة. وربما، من يدري؟ على خيط دقيق من أشعة نافذة لم تستطيع غيوم الأرض وضعها رهن الحجز. ليس سرا إذا كانت تتكسر داخل عينيك المهمومتين نقرات الأمطار، وحطام قطار هاجر فجأة ثم في منتصف الطريق، علته ألسنة النار.

ليس سرا كل هذا.

أحلامك اقتنصتها المدينة وتنام الآن بين ملفاتها السرية.

قلت لك وأنا ألملم أحزاني الصغيرة: يا روحي، أعذرني قليلا، أريد فقط أن أمد راسي وأنام وأدندن في خلوتي... يا نهر الشام... يا نهر الشام.

أنام قليلا لأنسى فقط هذا الهم الذي يأكلني بنهم كالودود الأزرق لكن برد المقابر لا يسهل المهمة، يقودنا دائما حيث يشتهي هو، نحو النقطة الأكثر ألما وحزنا:

«باب الريح: أنا هكذا يا سيلفيا. الريح اللي تجي، تديني. هش ومرهق. غيابك يتعبني ويقتلني. البارحة شربت كثيرا لاني بدأت أشعر باللاجدوى من كل شيء. حوالي الساعة السابعة تلفنت لجورج وأول ما

بدأ يتكلم معي، عاتبني لأنني لم أكلمه منذ عدة أيام. اعتذرت له وقلت له إنني كنت مشغولا مع الأخ مراح الذي زارني من اللادقية وعلمت منه أن والدك ينوي إرسالك للدراسة في أمريكا. جورج طيب ولكنه هو كذلك غارق في تفاصيل الحياة ثم أنني أخشى أن أفتح التليفون، يطلع لي والدك، فماذا سأقول له؟ حزين لأن خطواتك صوبتي قلت. ربما لأنك أنت كذلك بدأت تقتنعين أن والدك لم يكن مخطئا مائة في المائة. ربما يكون مقترح والدك للسفر إلى أمريكا قد راق لك. من المهبول الذي يرفض أمريكا من أجل رجل لم تمنحه الدنيا الشيء الكثير؟ أحيانا ينتابني الإحساس بأنني وضعتك تحت رحمتي. من حقدك أن تري الدنيا من خارجي، خارج إنسان ما زال يبحث في سؤال بدائي لا يقدم ولا يؤخر: لماذا تخلى والدي عني؟

أعذرني حبيبتي على هذياناتي، فانا لا أملك إلا اللغة لمقاومة هذه العزلة القاتلة وهذا اليأس المستشري. أعذري هوسي بك وخوفي على مستقبلنا الذي لم يعد في منأى عن التلف.

من أوراق عيد عشاب

المقابر أمكنة للخلوة وليست مدنا خالية.

من قال هذا الخواء؟

لا أحد غيري. المقابر مدن ممتلئة، أناسها لا يفكرون مثلنا ولكنهم يعيشون صمتهم بمزيد من العزلة والوحدة. آلامهم كبيرة وميثوس منها. عندما نمرض، نحلم دائما بالعودة. عندما ننام، نموت مؤقتا أو نموت قليلا. لكننا عندما نموت بالفعل، فإلى الأبد. الموتى متسامحون مع خطايانا، لا يطلبون منا الشيء الكثير. لا يحاسبونا على سخافاتنا اليومية لأنهم أكبر منا أو ربما لأنهم لا يريدون أن يعرفوا ما يحدث لنا. غلط. الميت عندما يموت ما يطولوش رجليه ولكن قلبه يزداد اتساعا فقط. وإلا لما كان بكل تلك الطيبة التي تجعله مقدسا في أعيننا. ألقت نحو شيء مبهم.

خلفي كان يصعد نشيد يشبه شدة العصفير وهي تستعد للخروج من أرضها. فصول البرد والعزلة سرقت منها دفاها. مريم تذكري معي هذا: أجمل شيء تشتهيهِ العصفير هو أن تموت وهي قادرة على الطيران. بعضهم يقول إن العصفير مثل الأشجار، تموت واقفة. ألم تقولي هذا حينما غامت الدنيا في عينيك والتبست عليك السبل والأشواق؟ تتممين كالطفل المندھش أمام الكوارث التي خلفتها مزحته: كنتُ أمزح فقط. تمزحين؟ وكيف لم تقدرى تبعات المخاطرة؟ كل نبوءاتك صدقت. تعرفين أن الأقدار تأخذ كل شيء مأخذ الجد ومع ذلك تتمادين في حماقاتك وغيك.

في هذه المدينة الغامضة بسحرها وبشيء فيها يستعصي على الفهم، صنعنا أولى خطوات هذا المصير. منحتنا دروبها الشعبية بسخاء لذة الاكتشاف والراحة. فقد كانت أولى المدن العربية التي تعارفنا فيها وتدحرجنا ذات ليلة في شوارعها التي تعيش مجبرة على آلام الولادات القيصرية والأحزان المكتومة. وكان عيد عشاب الذي سبقنا بعشر سنوات إلى هذا المكان هو الذي فتح لنا بوابات المدينة الموصدة والخمارات الصغيرة والأماكن التي تنام في الظل. يقول دائما إن الذي لا يعرف خمارات المدينة وزواياها المظلمة سيمر وكأنه لم يمر أبدا على المدينة.

شيء ما في المدن العربية يجعلها حزينة دوما حتى وهي في أقصى لحظات الفرح.

— ربما الخيبات المتكررة.

— ربما بكل بساطة أننا حرمانها بتخلفنا من أن تكون مدنا ونصر باستمرار على تحويلها إلى حجارة مينة. أنظري حولك وسترين أن كل العابرين على مدنا العربية لم يعرفوا كيف يحبون ناسهم وتحولوا في رمشة عين إلى انكشاريين صغار وماتوا قبل أن يصيروا كبارا.

— يستاهلوا، حاسبين الدنيا ضايعة. لكن مدنا ليست بكل هذه القتامة. فهي تمنحنا من حين لآخر السعادات القلقة على العكس من الانكشاريين الذين استبدوا فيها، لم يمنحوا شعوبهم غير مزيد من الموت

والرخص والتذلل لآسيادهم. ما تزال في مدننا بعض الرحمة التي تجعل الحياة تطاق قليلا.

- Il faut vraiment être aveugle pour ne pas voir qu'on est dans des villes qui meurent doucement et dans l'indifférence la plus totale. D'ici quelques temps il n'y aura que des cendres, et ce sont ces habitants même qui mettront le feu dans la ville qui les abrite?<sup>(9)</sup>

- هم الذين صنعوا هؤلاء القتلة. صحيح ولكن أليس من الأفضل أن يرى الإنسان الأشياء الأخرى التي تمر علينا بسرعة وهي ليست بكل تلك الرداءة؟

كنت صغيرة، والعالم غابة جميلة ومخيفة.

وكنت هائما في عمق الأسئلة التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الانسداد والحيرة والخوف.

كان اليوم أزرق صافيا، يشبه عيون الصبية الذين لم تلوثهم لوحات الإشهار والريح السريع. اقترحت أن نجلس على حافة حائط عتيق، من بقايا الحيطان التي قاومت الغزوات القديمة، كانت عليه بعض الحمامات تنقر النمل وتتحين الفرص للانزلاق نحو غيمة مسافرة. كانت هذه التفاصيل الصغيرة تأسرك، أمور ورثتها عن أمك التي كانت كلما رأت حماما يقطع سماء حقول القمح والشعير أو سطح البحر، متجها صوب القبلية، حملته أشواقها وتمنياتها. تقول إن الطيور تسمع حتى دقات القلب وتفهم حتى البكوش الذي خسر لسانه وأبجدياته المسموعة.

- هذه الحيطان تعطي الإحساس بنهاية العالم لولا هذا الحمام الذي يبعث فيها الحياة؟

- هل العالم بكل هذا السوء؟

---

(9) علينا بالفعل أن نتعamy لكي لا نلحظ بأننا داخل مدن تموت بهدوء وفي ظل الإهمال الكلي. بعد مدة قصيرة لن يكون هناك إلا الرماد وسيكون سكان هذه المدن أول من يشعل النار فيها وفي الحيطان التي تحميمهم.

- في بلدانا، كلما سقطت حجرة لا أحد يرجعها، تبقى هناك في مكانها حتى تلحق بها أختها وهكذا إلى أن يندثر المعلم نهائيا.

- وحياتك صرت لا أعلم، لماذا كلما التقينا نهض الحزن بيننا بقوة؟ هل قدرنا أن نمشي ونأكل ونتنفس داخل هذه الشقاوة؟

- وهل نهرب من شيء هو فينا؟ ألا ترى بأن علاقتنا بدأت تسرق منا؟ أفرغت لك ما في قلبي فصفعتني بصمتك أو التتمتات التي لا تفهمها إلا أنت.

- قد يكون من الصعب تقبل بعض الأمور ولكن عندما تنكسر تجربة ما، هذا يعني أنها استنفدت حدودها ويجب أن لا نحمل بعضنا البعض مسؤوليات ليس لنا فيها أي ضلع.

- هل صرنا مثل هذه الحيطان الباردة؟

- لا. ليس إلى هذه الدرجة. ما يزال بيننا متسع للحب والحرية والجنون. لو فقط ننسى قليلا انكساراتنا الصغيرة.

- لو... للأسف، الدنيا لا تستمع دائما لنداءاتنا الداخلية. أنت الرجل الوحيد الذي رأيته أبني معه شيئا استثنائيا ولكن يبدو أن طلبتي جاء في غير وقته أو ربما ليس من حقي أن أثقل عليك بهذه الأسئلة. مجنونة. وحياتك مجرد جنون لا معنى له. إنس كل ما قلت لك، فقد كان هديانا مني.

- يا مريم، أنا كذلك أحبك ولكني لست مؤهلا لأن أكون زوجا. أعرف أنني سأخذلك بكلامي هذا ولكن أفضل من أن أخذلك وأنا زوج لك. ربما كنت لا أستحق قلبك. أنت أكثر عنفوانا مني وأكثر صفاء. بالنسبة لي كل شيء ما يزال ملتبسا ومرتبكا. أنا رجل لا يعرف نفسه، ما يزال يبحث عنها؟

التفت نحو الحائط القديم. لم يكن يشبه شيئا سوى الفراغ. رأيت الخيبة في عينيك عندما التفت نحو. رأيت شوقا عميقا يذوي مثل الزهرة الذابلة. حتى هذه الخلوة التي اخترناها في هذا المكان الذي يذكر

بمتحف مهمل لم تنفعنا كثيرا. كنا نظن أنها أحسن مساحة لصفاء  
الذهنيات ولكنها رمتنا داخل ذواتنا أكثر. فقد ظل كل منا يركض في  
حقائقه المطلقة ولم يكن خارجنا إلا ديكورا مهزوما ومنكسرا. انطفات  
المصابيح الصغيرة التي كانت تملأ قلبينا وحل محلها الكثير من الظلام.  
البرد. دائما البرد. أحس بما كانت تحس به أمك. أشعر بنفس  
خوفها.

مریم.. شيء يشبه اللعنة صار يكبر فينا. هل وصلت تجربتنا إلى  
الانسداد. هل الحزن قدر لا يمكن تفاديه. كنت دائما تقولين عندما  
ضمتنا سرير البيت للمرة الأولى في حي الإطفائية الذي كنا نقطنه: من  
اليوم حبيبي سألغي كل مواعيدي مع الكآبة والحيرة. ستكون فضائي  
الأكبر الذي أركض فيه وأستعيد أشواقتي وطفولتي وكل حماقاتي  
الصغيرة. ما الذي تغير اليوم بهذه السرعة؟

وحين هممنا بالتهوض ومغادرة السور القديم، اقترحت مرة أخرى  
أن نبقى قليلا لأنك لم تشيعي من وجهي ومن الأشجار التي كانت تظلل  
لحظتنا. وبصمت جلوسنا. كانت عيناك ما تزالان ملتصقتين بالوجوه  
المنهمكة في شططها اليومي وبالسيارات التي تمر بسرعة والقطط  
والشرطة الغارقة في تسيير تفاصيل المدينة المرتبكة.

فجأة تسلفت عيناك الشاردتان بوجه طفلة كانت ترتدي فستانا  
مخمليا فضفاضاً لونه يميل نحو زرقه بحرية هاربة باتجاه أفق ممتد على  
مرمى العين. وكطفل شقي يكشف النقاب عن كذبه الصغيرة، تراقص  
أصبعك بين شفتيك المرسوميتين بإتقان. وكالعادة التفت نحوي باحثة عن  
إجابات مقنعة لتساؤلات قديمة:

- شوف! ما أحلاها.

- جميلة. كلما رأيت صببة تسرح في الطرقات بحرية، أشعر أن  
الدنيا ما تزال بخير وأن الله لم يتخل بعد عن منح الحياة لجنس بشري لا  
يستحقها كثيرا. الحياة استحقاق.

- أسألك؟

- وماذا كنت تفعلين حتى الآن؟ اسألي.

- هل تحبني؟

- ياه... كم هو غريب هذا السؤال؟ وكم هو محزن؟... بعد كل هذا تسأليني إذا كنت أحبك؟

- أريد أن أسمعها فقط. ربما للمرة الأخيرة.

- لماذا المرة الأخيرة؟ أحبك. سأكررها دوما كلما التقيت بك حتى ولو في آخر الدنيا.

- وأنا نموت عليك.

تكررت الكلمات في فمك كجمرات محرقة مخلفة وراءها حمرة خمرية على مساحة وجهك الخجول دائما. أحبك! هل لي كلمة غير هذه لأعبر عن اصطلامي بك واندغامي فيك؟ كم أنك طفلة، لم تكبر إلا قليلا. فأنا دائما، حين أقول بأنك أصبحت كما أشتهي وكما تشتهي دروب المدينة الصعبة، أفاجأ بك تضعين إبهامك في فمك، تتلذذين بمصه وكأنه حلمة أمك. ما تزالين غارقة في أحلام طوباوية، بعيدة، بعد هذه المدن العربية عنا. مدن لا يحلو لها النوم إلا بين أذرع التجار والسماسرة والعساكر والرقص عارية على وقع الأحذية الخشنة والسكاكين التي تحز رقابها.

مشوهون ومحروقون يا مريم كدمى سوداء لعب بها الأطفال حتى صارت مملة ومنظرها يدعو إلى القرف والشفقة. لا شيء ينقذنا من أنفسنا المرتبكة إلا ذلك الشوق الملتهب الذي يأتي من عمق الروح المنكسرة. ذلك الشيء الحار أكبر من مجرد كلمة تنزع من القلب، لتسكن بارتياح دماغا لا يعرف اليأس أو توضع بيؤس في الجيب كأية عملة نادرة.

- التفاصيل الصغيرة تقتلنا وتطحننا بلا رحمة.

أشهد أنني رأيت الكثير أنا الطفل الذي سلبوه حليب أمه في غفلة منه. شربه أدعياء النبوة والصالحون الكاذبون، والأولياء الملتحون.

شاهدت أشياء دقيقة تسرح على خديك ونقلقك حد الإحراج . مسحة حزن منداة بالدموع المسروقة تملأ عينيك ذات الاتساع الذي لا يحد، تحاولين عبثا تخبثتها ولكنها تسبقك . عبثا تجهدين نفسك . تخسرين المحاولة وتسبقك الدمعة المشوشة . هذه المدينة، كلما شعر المرء برغبة احتضانها، مسخت إلى أسراب من الغريان السوداء . وكلما اقتربنا منها، هربت نحو مسافة أبعد .

مزاجك صعب ومزاجي مرتبك .

اقترحتُ مرة أخرى أن تقوم .

- المدينة جميلة، ماذا لو عبرناها في هذا المساء الجميل . أريد بالفعل أن أمشي كثيرا؟

- لنمش . اليوم رائع .

كنا نعبّر المدينة صامتتين . نتدحرج في شوارعها التي لا ينتهي امتدادها . زجاج الفنادق الجميلة والغالية التي نبئت بسرعة عجيبة . الواجهات المغرية التي تجذبنا نحوها، الروائح التي تنبعث منها . الأسعار التي تحرق الأصابع ولكننا نسأل دائما لنجد مبررا يؤهلنا لمثل هذه الأسئلة وحتى لا نظل مشابهين لميتين يمشيان في شارع .

جميلة هذه المدينة إلى حدّ أن من لا يعرفها، يسقط على صدرها الملتهب مغمض العينين . كنا نتمادى فيها بحذر . كل المدن خادعة . ولا نقوم إلا عندما ينتابها الجوع إذ تستيقظ جائعة على طبول الحروب القومية الكبرى، تلتهم أبناءها، ماسحة في أثرها الأخضر واليابس . ويظل الراقص يرقص والحزين حزينا والميت ميتا وكية اللي جات فيه .

- هكذا هي مدننا كما امحمد الهمّ . تضحك ناكلك، تبكي ناكلك .

.....

لا شيء . لأنني لا أملك ما أقوله . أنت سيدة الكلام والنعبير المكشوف والحر وأنا سيد الصمت وغوايات العزلة . ألم أقل لك يا مريم . أنت والمدينة شيء واحد . كلاكما يبحث وسط هذا الخوف

المستشري عن وجهه البحري الأكثر نصاعة والأكثر حياة.

فجأة في الطريق المؤدي إلى شركة الإعلانات، شعرت أننا قرييين من بعضنا البعض حد الاندغام. ربما كانت بيننا تفاصيل صغيرة لم تقل بعد، كل واحد يضمها إلى صدره في انتظار الفاجعة التي تنضج على نار هادئة. أحيانا أتساءل إذا لم تكن سعادة الإنسان رهينة هذا الخواء المقلق الذي لا أجوبة له. ما زلنا صغاراً، على الرغم من أن كلانا يتكور كالجنين في رحم هذه الطرقات الصعبة وهذه الشوارع التي شهدت ميلاد آلامه الشاقة التي تنذر بفقدان قادم. قلتِ وأنتِ تبحثين عن مهرب لخوفك:

- لا. لا. أرفض أن أسلم في الأمر بهذه السهولة. لن أقبل بهذا القدر المسلط علي بسهولة والذي يشعرني دوماً بالفقدان.  
- من يصنع هذا الخوف؟ أنت؟ أنا؟ الله؟ الصدفة الملعونة التي أيقظت فيك فجأة حيننا دفيناً إلى الأمومة؟ لا أدري إذا لم نكن نحن سادة أقدارنا؟

- أرجوك للمرة الأخيرة، هزني بعنف؟ أيقظني من هذا السراب المخيف قبل فوات الأوان؟ لا تتركني أقتل تجربتنا الرائعة. من العبث خسران كل ما بنيناه.

.....

- مرة أخرى تعود إلى الصمت. صمتك يؤذيني لأنني أشعر وقتها أن ما تخبئه مفجع. لا تملك أية كلمة لنجدة هذا الحب؟  
- ربما كانت الهزات العنيفة تقوي الأشياء.

- الزلازل العنيفة لا ترحم لا الهش ولا القوي.  
تزداد الشوارع طولا وامتدادا ويحفر الصمت والحزن فينا أحاديده الواسعة. تهتز الكلمات يتيمة تحت لسانينا.  
تمتمت وكانت يدك في يدي تزداد برودة.

- تعرف لا أدري كيف ولكن أشعر بيدي باردة. أمي...

- أرجوك مريم، قللي من حساسيتك المفرطة. لا يوجد أي مبرر لكل هذه الحيرة. نحن مع بعض وهذا حظ كبير.

- حظ كبير. . .

نظرت إلي. كانت عيناك صافيتين على الرغم من الكآبة التي كانت تخيم عليهما. كنت جميلة ومدهشة.

- أشعر كأنك تحملني هذه الكآبة؟

- بالعكس يا مريم، أحملك كل ما حدث لنا من أشياء جميلة. هل يمكن أن نمشي قليلا بصمت؟

- وإذا تعبنا.

- من الصمت؟

- لا. من المشي.

- عيناك محطتان.

- يا ملعون، تفاجئني دائما بأشياءك الجميلة حتى عندما أقنط منك. أنت تجردني من كل أسلحتي ضدك لإقناعك. كم أشتهيك وأشتهي لغتك وأخاف عليك منك ومني.

فجأة تغير وجهك وكأنك كنت تنتظرين فقط تلك الكلمة الهاربة التي نعيذك إلي. على امتداد الطريق، شاهدت ابتساماتك تنزلق وتذوب كقطع الثلج، ثم تتكسر على شفئك. ابتساماتك دائما هكذا، بسرعة تنقد ويسرعة تنهاوى كالأنجم الهاربة. تحلمين بغزو البلدان البعيدة، لكن في أعماقك تشعرين بأنك عاجزة عن ممارسة المغامرة المعقدة لوحذك. تحلمين بالفساتين الرائعة وبناطحات السحاب التي تتقاتل داخلها الألوان والأحلام والمصالح الضخمة ويتخرم في أنفائها بوميا آلاف الخلق البسطاء الذين يعيشون انهياراتها الداخلية يوما بعد يوم. تمنين أن تصيري مثل أبطال حكايات جدتك التي ماتت وفي حلقها بقايا المخافة الأخيرة. كانت جدتك تحكي وتصدق ما كانت تحكيه. معها ترحلين، تدخلين بلادا تخرجين بلادا، تلتقين بكل الوجوه التي حلمت

بها وأنت صغيرة.. كيف الأحوال يا أهل البلاد؟ أهلا بالأحبة؟؟ هل مرت مرة هنا العصافير وأشجار الياسمين؟ جئت من البلاد البعيدة لتخليصكم من شراسة الأغوال والأهوال وأنزوج بابن السلطان، هل من منافسة في بلدتكم؟ ننحني كل الرؤوس تعبيرا عن الولاء واعترافا بجمالك وأحلامك المجنونة. وتتخيلين نفسك تنشرين عدالة سيف بن ذي يزن وعنترة العبسي. كنت تتعشقين سيرتهما إلى حد الرعدة عند سماع اسميهما.

- جدتي الله يرحمها لم تكن تملك إلا الكلام. به تمرضني وبه تشفيني عندما تراني منكسرة. جدتي صارت في.

وفي النهاية، عندما تستيقظين من غفوة الجدة، وكجميع عشاق القصص والحكايات، تحلمين بفارس يمتشق شوقه الكبير وبقلب نابض بالأحرف الجميلة يحتضن يتمك وشقاوتك وخوفك من الزمن والدنيا ومن أن تموتي قبل أن تري جزءا من لحملك ينفصل عنك ويعطيك الاستمرارية في الحياة.

- كم الدنيا ظالمة وحقودة.

- يعني؟

- لا أريد أن أسمع عليك وعلي هذه الحالة الجميلة. يكفي ما صدر مني.

صغارا نأتي.

ولا شيء نمضي.

شدو العصافير وهديل الحمام، ميراثنا. نبحت وسط الأبجديات المنسية في القمامات، عن حرف براق، قاطع بحد السيف، وجميل، يشير فينا دهشة الخوف.

وحين نخسر فرحتنا، ندرك متأخرين كم كنا غرباء في هذه الدنيا القاسية.

وحيدين نأتي ولا شيء نعود إلى مراثينا القديم.

مريم أشتهي أن أراك مثلما رأيته لأول مرة، مفقوعة بالضحك، دموعك مثل السيلاوات. لم تستطعي التوقف. عندما سألتك، قلبت: Boof, juste un fou rire الله غالب، عندما أضحك، أضحك من قلبي. من لا شيء نحتين القهقهات التي تسمع من بعيد. أريدك هكذا ولكن هل لي أن أحتم عليك حالة صارت مستحيلة الآن؟ كم أحزن عندما تمتلئ عينك بالسواد المنهك والألم، وعندما تتشوه الابتسامات على شفئك اليابستين وتبدأ كل الأشياء الصلبة في الذوبان كأحجار البراكين.

البرد دائما. الأمطار توقفت وأنوار المدينة اشتعلت.

في خلوتنا الصغيرة، تحرقين سيجارة شاحبة هرويا من بؤس اللحظة التي تؤذيك:

— انس الهم ينساك. خذ واحدة وبركة من الفهامة. يا حبيبي، دفء السيجارة يخرجنا من الرخاوة والحزن. ياه كم تغيرت منذ تلك الرسالة الأولى المرتبكة التي سلمتها لك في رأس السنة وأنا خائفة من ردة فعلك. كم هو صعب أن يقول إنسان لآخر أحبك. كلمة من ثلاثة حروف تؤرقنا إلى هذه الدرجة؟

— لو لم تقوليها لتغيرت أشياء كثيرة في حياتنا. كنت أشجع مني وأكثر جرأة فقط. الدخان يا مريم. صحتك. ألم يقل الطبيب إن رثيتك وقلبك لا يتحملان التبغ؟

- يا سيدي! خلها على ربي .

- تهمني صحتك يا مريم .

- تعرف بما واش كانت تقول . اكسيني اليوم وعريني غدوا . لما يجي الموت خليه يدبر في واش يحب . أما الآن أنا ندير في يمات يماين هذه الرثة وهذا القلب المهبول واش نحب . نبرد جنوني فيهم . نشبع من كل حماقات الدنيا .

- ولكن هذا ليس حلا .

- يا خويا لا عليك . المطلوب منك أن تحبني فقط وخليني نموت كما أشتهي . الموت هو أسوأ الأقدار المحتممة .

- أحبك . هل يجب أن أكررها عليك في كل لحظة لكي تقتنعي بأنك تملئين هذا القلب؟

- لا يمكنك أن تكون جديا .

- طيب وماذا أفعل الآن؟

وعندما تنهاوى الأسئلة وتترك مكانها للنكت العارية ، لا نمتلك إلا أن نضحك عاليا ، كعاشقين يكتشفان بعضهما البعض لأول مرة ويتصيدان لحظات السعادة . ثم نذوب وسط زحام الناس البسطاء الذين تركتهم المحلات والجولات المسائية فارغي الأيدي والجيوب . عندما تبدأ المدينة في غلق أبوابها ، أراهم واقفين كأعمدة الكهرباء المتأكلة ، متكئين على الحيطان أو على مقدمة الحافلات القديمة في انتظار إقلاعها ، أو عند مداخل الدكاكين الصغيرة التي تبيع السكر والمازوت والغاز والزيت ، يقومون بآخر المشتريات .

أنظر إلى عينيك .

- نعود؟

- لا . أريد أن أمشي . وإذا استطعت أن لا أتوقف سأكون سعيدة .

إذا تعبت أنت أدخل وإذا كنت تحبني ابقى معي قليلا .

- أحبك ومتعب وبقا معك . مليح؟

- مليح جدا.

نغوص داخل تفاصيل المدينة الهادئة. تنام يدك الباردة في عمق يدي، عصفورا حزينا يبحث عن لحظة دفء. المدينة باردة وهي في مثل هذه الفصول لا ترحم.

- ياه! أين ذهب كل البشر الذين كانوا يملأونها حياة وزعيقا؟

- كلهم ناموا. وفجرا، تستيقظ همومهم وخيباتهم الصغيرة فيعاودون كرة الدوران حول أنفسهم.

- ومع ذلك طلباتهم للحياة متواضعة جدا.

- الإنسان العربي هكذا. يولد ويموت في الهم. وكلما رأى شعاعا صغيرا في الأفق، شعر بتخمة في السعادة وعندما يقترب يصفعه السراب القاتل. الإنسان العربي لا يعرف أنه كلما خطا خطوة إلى الأمام متحاشيا المزالق السابقة، وجد في طريقه من يأخذ بيده ويزج به نحو الحفر والمدافن.

- في مدننا شيء من السحر والغواية لا يعرفهما إلا الشعراء والسكراري والمجانين. هذه المدينة تهبلني خصوصا لما أكون معك. اسمع هذا النشيد وهذه الزقزقات وهذه الأصوات القادمة من بعيد؟ ألا تسمع؟

- بلا. الحكواتي والمسحراتي وبائعو البسطة والعربات الصغيرة المملوءة باللوز الأخضر والفلول الذي يرى بخاره من بعيد ممزوجا برائحة الكمون والكروية والتوابل المختلفة. هنا حافظوا على كل شيء يعطي للمدينة حياتها العميقة. في أرضنا كل شيء جففوه حتى الماء ورحمة ربي.

- أنا مثلك في الألم. حزينه على أرضنا التي قتلها المناضلون والثوار. من فرط جهم لها خربوها وشلوها، بل قتلوها.

جملتك التي تسبقك كلما ملاك شوق البلاد والأحباب. دائما كنت تقولين هذا. وكطفل بدأ يفتح عينيه في مدرسة قروية مهملة، أحفظ ما

تقولين عن ظهر قلب. وهذا ما يدفعني في بعض الوقت إلى الشعور بأن في قلبك خلجانا من الفرح والحب على الرغم من مزاجك القاسي الذي يتعكر بسرعة.

وحين يفاجئنا الفجر بنوره الخفيف ويبدأ عمال البلدية في إطفاء أنوار المدينة، ونهم بالعودة، تنكشين على نفسك كقطعة صوف ملونة. أتطلع في عينيك الحزبتين، فأتذكر شقاوة ومتاعب اليوم بكامله من لحظة خروجنا، حتى هذه اللحظة ونحن واقفين على الرصيف، شبه سكارى بشوق المدينة، في انتظار سيارة أجرة. تنكئ على بعضنا البعض من كثرة المشي ثم فجأة نرى النور في بيت عيد عشاب في الطابق الخامس. نهامس. نشترى قنينة عرق الريان من الزاوية المقابلة لبيته ثم نصعد إليه الخمس طوابق.

تتممين وأنت تلتقطين أنفاسك حتى الطابق الخامس:

– الله لا يوفقك يا عيد. ألم يكن بإمكانك أن تسكن غير هذا الملحق الملعون، بدون مصعد، مثل اللقلق؟ تحتاج إلى من يحبك كثيرا يا ابن الحلال لكي يقبل صعود كل هذه البلاوي.

تأخذين نفسا طويلا. أدق على الباب.

يفتح عيد عشاب الباب بعينين صاحيتين مثل الديك الذي لم ينم طوال الليل، في يده اليمنى كأس عرق الريان المعروف من رائحته القوية التي تُشم من بعيد.

– واش راك يا عيد؟ في البداية خفنا من إزعاجك ولكن عندما شفنا الضوء قلنا الأكيد إنك مازلتَ سهرانا.

– النوم والموت شيء واحد. لا أنام كثيرا. كنت بصدد إنهاء كتابة وقائع اليوم في مذكراتي. في يوم من الأيام أعطيها لك لنقرأها وتقول لي رأيك في تخريفي هذا.

– أن يقول الإنسان ما يشعر به تجاه الحياة، ليس سيئا. نحتاج إلى هذا النوع من المصارحات مع أنفسنا من حين لآخر. بدأنا ندخل في

دائرة كل شيء فيها صار ضيقا مثل النعل . لمن تقول حرافتك وأشواقك؟  
- ما ترعّيش مني يا مريم؟

- ليش أزعل منك؟

- أنا لا أقول شيئا في المذكرات إلا هذه النافذة التي أنسلل من  
خلال ستائرهما لأرى سيلفيا، وألحن صبحا ومساء كل أديان الدنيا التي  
تحرم قلبين من أن يلتقيا . الأديان عوضت شريعة الغاب بشريعة الغباء .

- الأمر ليس بهذه السهولة يا عيد .

- بلا سهولة بلا بطيخ . واش تشربون؟ مريم؟

- عرق . واحنا معك نقدر نقول غير العرق؟

- كان سيدي الأعظم محي الدين بن عربي الله يرحمه ويوسع  
عليه، يصنع العرق من تمور بلاد ما بين النهرين بيديه ويعتقه قبل أن  
يذهب نحو طوق الياسمين لرؤية النور ملتبسا بالأشعة والماء والضباب .  
بعد كل هذه السنوات، بدأت أتعلم الحرفة .

- شهيتنا في طوق الياسمين .

- وعدتك ولم أكن متخطيا العتبات كما كنتَ تتصور . بل كنت  
داخل العتبات ذاتها وليس على حافتها .

- كنتَ محقا .

- الصدفة هي التي جعلتني أكتشف هذا الطوق وإلا كنت سأنطفئ  
من هذا البلد بدون رؤيتها . خادم مقام سيدي هو الذي قادني نحو هذه  
التفاصيل . سهام كانت تشتغل في بحثها عن الصوفية وعن ابن عربي  
تحديدا، لم يكن المرض الخبيث قد أصابها بعد وصممت أن تزوره  
وتزور ضريح الأمير عبد القادر وأن تأخذني معها . خادم المقام هو الذي  
استلمنا منذ العتبة الأولى، في النهاية نصحنا بزيارة طوق الياسمين أو  
باب الأنوار . رافقنا في أحد أصباح الجمعة . ينصح خادم المقام بالزيارة  
فجرا، بالضبط في اللحظة التي يبدأ فيها الشعاع الأول في الشروق . بعد  
أن قطعنا الخلجان وحقول الدفلى التي كان سيدي يحب نوارها، داخل

طقس أسطوري يبدأ بكيفية فتح الطريق وسط النباتات المتوحشة بدون إتلافها حتى طيران السرب الأول من النوارس وينتهي ببروز العوامة التي أركبنا فيها خادم المقام قبل انسحابه. العوامة لا تأخذ أكثر من اثنين: رجل وامرأة أو شخص واحد. الدليل الذي يجلس في المقدمة تكاد لا تراه من كثرة الضباب الذي يغطي جزءا كبيرا من الماء. وعندما تخترق الأشعة الضباب الرهيف، تصاب العيون بالغشاوة ويصعب فتحها وهو ما كان سيدي الأعظم يسميه بالفيض. قضت سهام بقية يومها مصطولة. لم تصدق عينيها أن هناك سحرا في هذا البلد لا يصله إلا من تخطى القوس الثاني. على كل يجب أن تزور المكان مع خادم المقام. سأكلمه. أنا أزوره مرة في الأسبوع ويمكن أن أفتح معه الموضوع. خليها علي.

وعندما يغالبك النوم ونستعد لمغادرة بيت عيد عشاب، قبل أن تطب عليه صاحبة البيت فجرا لترى ما إذا كان قد نام عنده شخص غيره لتطالبه بالزيادة في الإيجار.

يطمئنتنا هو بسخائه وطيبته.

- لا تهتم. خليككم معايا. أنا اليوم مثل العريس. أتحرّك، أمشي، استقبل الأحباب، أبيت عندي من أشياء بدون خوف أبدا. باختصار، أعيش حالة استقلال قلما أعيشها. الليل في بدايته والحجّي راحت عند ابنتها في المخيم. امرأة طيبة ولكن مقلقة. الله يسامحها. منذ أن قاطعني الوالد، أصبحت ثقيلًا عليها. المهم، اليوم بالذات ما فيه حدا راح يطب علينا في هذه الساعة إلا الأصدقاء الضائعين مثلنا.

ثم يفتح قنينة عرق الرّيان التي أحضرناها له، يغسل من جديد الكؤوس التي شربنا فيها، يقول عيد إن طقوس الشرب يجب أن تحترم وإلا لا معنى للجلسة. كلما تم فتح قنينة جديدة، وجب تنظيف كل شيء من دارة وجديد، ثم يقطع قرص الشنجليش ويضع عليه نتفة من زيت الزيتون وقطرات من الليمون. يحضر بعض أقراص الفلافل، يغسل وجهه ثم يأتي ليجلس، مربعا رجله، ويفتح السهرة وكأنها تبدأ لحظتها.



## الفصل الثاني

### الطفلة والمدينة



لو تدري كم أشعر باليتم في غيابك؟  
كنت أظن أن الزواج سيفتح كل أبوابي المغلقة ولكن يبدو أنه  
مؤسسة لا تختلف عن بقية المؤسسات الأخرى التي لا تعمل إلا على  
تغريب عواطفنا وتعليقها والتصديق بالكذبة الجميلة التي نبتدعها باستمرار  
حتى لا نموت قهرا. أعذرني. منذ زمن لم أرك، ربما لأنني أحاول عبثا  
أن أدرب نفسي على نسيانك وأقول لنفسي الآن صرت في بيت رجل آخر  
وعلي أن أظل وفية له وأخادع عواطفني باستمرار. أنت تعرف أن ما كنت  
تحذرني من خطره صار حقيقة. القدر أحيانا يحول سخرياتنا إلى حقائق.  
في حياتي لم أكن أنصوّر أنني سأصبح زوجة لصالح. ركض ورائي حتى  
سحبني نحوه. عرف المفجوة التي تركها في غيابك وجعلني أصدق أنا  
المجنونة بك أنه في النهاية رجل والرجال لا يختلفون كثيرا. لا أريد أن  
أقول لك أنني أخطأت في تقييمي فتلك مسؤوليتي ولكني أشهد لك اليوم  
أنني عاجزة عن مقاومة غيابك. هل تدري كم أحبك وأنني كلما تذكرتك  
رابطت عند النافذة علني أراك. أنا منكسرة وميتة، لا تلمني إذ منذ ذلك  
الصيف الفارغ خرجت ولم تعد. قلت لي:

— أبارك زواجك. صالح إنسان طيب وسيسعدك.

كنت تكذب على نفسك وعلي. كنت منكسرا أكثر مني. قلت لك:

— بإمكانك أن تبقى معنا في نفس الفيلا مؤقتا لأننا لن نتنقل إلا بعد

شهر إلى بيت صغير في الروضة في انتظار كراء شقة ملائمة بعد العودة

من شهر العسل . وضع صالح المادي جيد . لن نزعج الأصدقاء الذين يعيشون كلهم على منح الوزارة في فيلا الإطفائية .

قلت بدون تفكير مثل طفل يكشف فجأة عن كذبه المخبأة :

– تريدني أن أبقى هناك وأنت بين يدي رجل آخر . فوق طاقتي .  
لا أملك الشجاعة الكافية للقيام بذلك . أعتقد أنني لم أستطع أن أمنحك ما منحه لك صالح . كل الخير أتمناه لك .

خرجت ولم تعد . ذهبت نحو حي شعبي وسكنت في عمق حي سوق ماروجا الذي تخبئه واجهة سينما السفراء والمحلات والمطاعم الكثيرة ، تقضي جل وقتك بين الحمام التركي الذي كنت تجد فيه متعة للتأمل مساء والكتابة . حتى في الجامعة صرت بعيدا ، متأخرا تدخل وتخرج قبل الجميع .

هل نقاطع من نحب هكذا؟ نظن . لا أجد شيئا واحدا يكرهني فيك ، بل كل شيء يقودني نحوك . مع ذلك كنت أتحاشاك مثلما كنت تتحاشاني . وافترقنا ، أنا ذهبت نحو أثينا ثم باريس لقضاء شهر العسل وأنت دخلت إلى الوطن . كان قلبك ممثلا وكنت حزينة عليك وعلى نفسي . في باريس لم أر شيئا سوى ما رأيته أنا وأنت في رحلاتنا المسروقة . صالح يتبعني وهو لا يعرف أنني في نهاية المطاف كنت عبثا ، أقتفي خطاك كالمجنونة .

حين عدت متأخرة جدا إلى مدينتنا ، كنت قد احتلتي عن أخرى ولم يعد الزواج إلا جزءا من الخطيئة الكبرى الذي وضعتني في طريق صالح أو وضعته في طريقي . أول شخص فكرت في لقائه هو أنت . أنت فقط ولا أحد غيرك .

لم يبق أمامي إلا الاتصال بك عن طريق صديقنا سيلفيا التي تطوعت للربط بيننا . كانت متأكدة أن ما حدث بيننا لم يكن إلا خطأ علينا تصحيحه بأي شكل من الأشكال . يوميا تؤنبني ، حتى صالح صار يكرهها .

— ولك مجنونة أنت؟ الله أعطاك كل خير وأنت تضيعينه بحماقة.  
ما تدفني حالك حية.

ولا أجد لها أجوبة إلا تحميل الأقدار ومزيدها من الكذب والسخافات  
التي لم تعد تقنعني أنا نفسي فكيف أقنع بها غيري.  
ياه... كم كنت دافئا في تلك الليلة عندما زررتني في غفلة من  
الكل. لم تمسني ولكنني شعرت بحرارتك.

عندما تنتهي غفوتي وأعود إلى رشدي، لا أجد سبيلا سوى  
مقاطعتك ولكنني سرعان ما يعاودني مرضي وأجدي فجأة أركض وراءك  
وأبحث عنك في المدينة. وكالمجنونة، أعثر عليك داخل نفس الحرائق،  
تبحث عني. لم أسألك كثيرا. كنت أريد أن أقول لك بصوت عال:  
خذني إلى بيتك. أخذتني بدون أن تسألني. عرمتني عن آخري وعريتك.  
بكيت على صدري طويلا وبكيت طويلا. اليوم كله قضيت بين ذراعيك  
أغوص في رائحة جسدك. في البداية كنت أخاف من الحمل ولكن مع  
تكرر الزيارة لم يعد شيء يهمني، بل صار يهمني أن أحمل منك. ولم  
أشعر أبدا بالندم تجاه ما فعلته معك. لأول مرة أشعر أنني كنت صادقة في  
حبي ولم أكن أمثل مطلقا. كنت أريد أن ألومك لكن لم أكن أريد مطلقا  
أن أضيع هذه الفرصة.

كلما اشتقت لك، جئتكم إلى بيتك في حي سوق ساروجا الذي لم  
يكن أحد يعرفه، سوى عيد عشاب وسيلفيا، صديقتي الشابة المسيحية  
التي ظل يعشقها من وراء الستائر قبل أن تمنحهما بيتك للقاءات عابرة من  
حين لآخر، كلما غبت عن البلد أو ذهبت نحو الحمام التركي القريب من  
بيتك. صرت كلما مررتُ هليك، من الباب تأخذني نحو جسدك  
كالمفتون. في النهاية تسحب من تحت رأسك مذكرات عيد عشاب وتقرأ  
علي بعض كلماته المشنوقة المنكسرة. أحسست يومها وأنت تحدثنني  
عنه، أن عيد عشاب لن يقتله العرق ولا البراندي أو المازوت كما كان  
يسميه ولكن ستقتله المستحيلات: امرأة دوخته، لم يستطع أن يجاري  
حماقات أهلها بعد أن رفضوا تزويجها له بحجة إسلامه، أب غني لم ير

وجهه إلا في الصور وهو في لباس المحرم يقوم بمناسك الحج، وموهبة فنية لم تجد من يفجرها، ووطن ظل يشبه الضباب والأدخنة الداكنة.

موجوعة بك أيها المجنون الذي لا تستطيع امرأة فهمه مثلي.

موجوعة بحبك. أما زلت تتلقى رسائلتي بشوق كما كنت تفعل دائما؟ العادة قاتلة ومع ذلك نحن أحيانا في حاجة ماسة إليها. في حاجة لأن أمارس معك أبسط الأشياء اليومية، كأن أقول لك صباح الخير. صباح الخير يا روحي. لم أتوقع أنني سأجذك هنا.

اغفر لي أنني لم أكتب لك شيئا في المرة الماضية. أنت معي دوما. أنت في الأعماق. مقالك الماضي في الجريدة قرأته ولكنني أحسست كأنك في الأخير قطعت نفسه. كأنك كنت مستعجلا على إنهائه لا أدري لماذا. ربما كنت مثلي مشغولا بوجه يملأ عليك كل خوائك. لا تزعل، سأمر عليك الأحد القادم ربما استعطت رؤيتك. كم أريد أن أشتهيك وأن أعشقك لكن قدرا غامضا ينحتني من الداخل ويمنعني بل يعذبني ويشغفني في ذلك.

هل نعرف أيها الحبيب الغالي أنني بدأت أخسر الحياة وصار الموت حالة يومية نعيش بقسوة. أشعر بالعبث اليومي وبالخسارات. لا أريد أن أثقل عليك. ستقول لي أيا منا محدودة ومن الأفضل أن لا نلتصق بحالة لا أحد يستطيع أن يهرب منها. على الأقل مادام الوضع هكذا، ليبق الموت في هامش العزلة والنسيان.

يا مهبول؟ أما زلت تشك؟ أحبك... أحبك... أحبك... وأنت لا تتوقف مطلقا عن سخريتك:

— صحيح يا مريم؟

— الذي حدث أنا مسؤولة عليه. لو لم أحبك ما جئتك. أتشك؟

— لا. ولكن ليطمئن قلبي.

— ياه؟ فعلا أنت ميثوس من تغييرك.

مر على عودتنا أكثر من السنة ولم أعد أسأل كثيرا عما يحدث لي

لو كشف أمرى معك وأنا اسرق اللحظات . الحياة نهب مستمر . أندرك  
 أنى كلما بكى طفل فى الجوار، تحسست بطنى؟  
 فى البداية لم أرد هذا الحمل . أسميته الكبول . كل ما يأتى من  
 زوجى لا يمكن إلا أن يكون كبولا لا ذنب له . لأنى كنت أظنه ثمرة  
 صالح، هذا الرجل المتهالك الذى كلما عدت إلى البيت سعيدة، ينظر  
 إلى عيني بعمق ثم يذهب نحو شأنه . لكنى بحسابات صغيرة تأكدت من  
 أنه منك كما أردته . التحاليل التى أجريناها أكدت سعادتي . كنت أريده  
 منك لا منه . عندما عرفت أنها صبية ، زاد فرحى . لأول مرة أشعر أن الله  
 كان يدللنى . سارة، هكذا سأسميها، سأقول لها عن كل شيء عندما تكبر  
 وستفخر لى حبي المجنون لك . أشهد أنك الرجل الوحيد الذى مارست  
 معه هذا الجنون .

سارة هى صِدْقِي الوحيد مع نفسى وسط هذا التفاف المعمم .  
 لعتك تتبعني .

ياه . . . لا أدري إذا ما كان عليّ أن أزعل منك أم أعضك أو أكلك  
 أو ماذا أفعل معك وبك؟ كم كنت غيبا يوم وقعت تحت وطأة فلسفة  
 فارغة وحدك كنت تعرف جدواها وحماقة سرقتني منك وسرقتك مني .  
 ستقول لى هفوة؟ مزلق غير محسوب؟ أقول لك وأنا أضع الأملاح على  
 جراحاتي لكي أتمكن من تحمل قساوتها ليلا عندما يفتح كل شيء نحو  
 المبهم وحتى لا تصوير واسعة وهفنة وتصبح مداواتها مستحيلة، لم يكن  
 من حقل خسراني بتلك البساطة ولم يكن من حقى توريطك فى نفق  
 عظيم أدركت سخافته قبلى .

ياه . . . ما أقصر حيلتنا؟ علينا أن نخادع العالم كله لنحصل على  
 شيء كان يمكن أن نحصل عليه كما نشتهي لو عرفنا كيف نتصرف .  
 شيء ما فى الإنسان يقوده دوما نحو حتفه وتلاشيهِ .

ومع ذلك، ما زلتُ هنا، على هذه العتبة التى لم أردّها، أواجه رياح  
 اليأس وأحلم أن أراك كلما أشرقت الشمس وكلما غربت .

مريمك الصغيرة التى تعيش دوما فىك ولك وبك .

الذاكرة مثل العاصفة أو الجنون، عندما تستيقظ لا أحد يستطيع إيقافها، تجرف كل شيء في طريقها بلا رحمة. كانت الأوراق القديمة التي تشبه مخطوطا من مخطوطات مكتبة الظاهرية تتزاحم في ذهني الواحدة تلو الأخرى. أحاول تنضيدها وتنظيمها ولكنها تتسابق لاعتلاء الذاكرة.

«باب الجنون: اليوم رجعت إلى البيت منكسرا. ذهبت لأرى سيلفيا وأهلها. خبات رأسي بين يدي وزدمت عليهم ولم أعد أسأل عن النتائج. قلت في نفسي قبل الدخول أنا خاسر خاسر، على الأقل أقول واش اللي في قلبي. حتى سيلفيا فوجئت بوجودي. هذه المرة طلبت يدها رسميا من والدها. قالوا لي دينك. قلت مسلما ولكني أحب سيلفيا. ثم كرروا: دينك؟ قلت بلا دين إذا كان هذا يحل المشكل. والاولاد؟ قلت: تسميهم سيلفيا إذا شئت، بيار، جون، هيلين، ماري، ميمون، محمد، لا يهمني مطلقا. تهمني سيلفيا والبقية كلها تفاصيل. قال أبوها كلكم تقولون نفس الكلام؟ المشكل أنك مسلم. قلتُ سأذهب إلى الكنيسة واعتنق المسيحية أو اليهودية فانا قرأت العهدين القديم والجديد وأستطيع أن أكون ما تشاؤون. قال أبوها: دينك يأمر بقتلك في مثل هذه الحالة، ألا تعرف؟ قلت أعرف وأعرف أسوأ من ذلك. لكن الدين، كل الدين، هو ما نحمله من خير للناس. كنت صادقا وعفويا ولكنه رفض. جورج لم يتحمل مناقشتنا المجنونة، خرج ولم يقل شيئا. سيلفيا نظرت إلي ثم إلى والدها وخرجت

بدورها ولم أبق إلا أنا ووالد سيلفيا وأمها والصمت الذي كان يشبه الموت. قلت: ما هو المطلوب مني؟ قال والد سيلفيا: أحسن ما تفعله هو أن تترك ابنتي. حتى ولو رضيت أنا إرادة أخرى تتجاوزني لأنك مسلم بكل بساطة.

خرجت بدوري. كان الشارع مثقلا بالبشر. هاتفت عاشور وصحراوي وذهبت عندهما. كانا عكري المزاج. شربت معهما قليلا من «المازوت» المخلوط بالكوكا وخرجت من جديد إلى الشارع. مررت بعدها على رابطة طلاب المغرب العربي. وجدت إعلانا كتب عليه: على الطلاب غير الممنوحين تسجيل أسمائهم للحصول على مساعدة. كنت بحاجة إلى ذلك. والدي نسيني في هذا القفر. منذ أكثر من ثلاثة أشهر لم يبعث لي شيئا. أحيانا أتساءل إذا كان من حقي انتظار زكاته هذه التي تأتي ولا تأتي. ومع ذلك أشعر به بعيدا عني وأني بدأت أقتنع أنني بدون أب. أعضاء إدارة الرابطة كانوا غائبين، فلم أستطع فعل أي شيء سوى استلام الرسالة التي وصلتني من سهام الطيبة التي رفضت كل الرجال. تقول دائما إنها ستموت قريبا ولا تريد أن تحمل على رقبتها آلام رجل طيب. هي كذلك حياتها تزداد تعقيدا. وضعها يتغير كالريح والسماء. الله يكون في عونها، بين ابن عربي والصوفية من جهة، وهذا المرض الخبيث الذي يأكلها بصمت من جهة ثانية. ورجعت إلى مكاني الطبيعي، وراء الستائر، في الجانب الخلفي للنافذة المطلة على غرفة سيلفيا التي كانت مطفأة ولم تكن بها حياة.

من أوراق عيد عشاب

من أين يأتي كل هذا النحيب وهذه الأصوات التي تنحدر بي نحو مهاوي الفقدان؟ من أين يأتي كل هذا الكم من اليأس والخيات المتتالية؟ جرح عيد عشاب وسيلفيا كان ينزف في.

ثم ماذا أيها الطفل المصنوع من حجر الخوف والوحدة ومن ليالي الغربة التي تأكل أطرافك يوميا، الأشواق الإنسانية ومتاعبها ليست

بالبساطة التي يرسمها لك عقلك المرهق. افتح عينيك أكثر يا صديقي  
وسترى أن المسألة معقدة حد الخوف منها وجميلة حد الجري وراءها  
حتى التهلكة.

هل بدأنا الحكاية؟ أم مازلنا على الحافة؟

أية حافة؟ ياه؟! حافة القصة التي جمعتنا ثم رمتنا كل واحد في  
زاوية. ربما كانت حافة التفاصيل الزائدة. لا يا صديقي لا توجد تفاصيل  
زائدة. كل ما نعيشه من أشياء صغيرة لو جُمعت لأعطت كونا كاملا  
ينبض بالحياة.

هه ومن بعد؟

ثم ماذا بعد يا شقية الذاكرة وشهية القلب، ما يزال بينها وبين  
المدينة ليل من الغموض والمعابر الصعبة والمستحيلة.

أطفالا كنا، نتعشق فيروز والشيخ العفريت وموسيقى رافي شنكار  
وأغاني البلدة القديمة التي ما يزال وقع طبولها الإفريقية يدغدغ أجسادنا  
كلما ركنا إلى قليل من الراحة.

يا عشاق الزين سامحوني.

ياك القلب مكين،

يا بويا حنيني طاب قلبي من كلمة لا... لا.

نتشرب هم الغربية في هذه البلاد التي تعشق بحدة وترتجف تحت  
وقع الأحذية الخشنة كطائر قرصي الألوان مهدد بالذبح العلني. مسكينة،  
مثل جميع المدن العربية، تفتح مجبرة قلبها ورجليها لكل القادمين  
الطيبين والمرشوين والغامضين والسماصرة. تحاول جاهدة أن تقف على  
تاريخها القديم الذي منحها كثيرا من الحروب وبعض النور ولكنها لا  
تستطيع. لا أحد يمهّلها وقتا تعود فيه إلى نفسها. كل واحد يشتهي أن  
يسحبها نحوه مثلما يفعلون مع الله. الغني يبيع ويشترى فروها والفقير  
مزق جلدها حتى آدماء من كثرة التشبث به. مدينة ليست ككل المدن،  
تحتضن بسرعة غرباءها ولكن ضعفها أنها تنسى كذلك بسرعة. يوم

دخلت شوارعها في ذلك الشتاء البارد من شهر فبراير، أول شيء شمته  
كان رائحة المازوت القوية. ضحكت بعفوية:

- غريب هذا المازوت. هذه المدينة لا تشبه مدن ألف ليلة وليلة  
كما كنت أتصور.

وضع أحد الأصدقاء يده على فمي:

- أسستت... المدينة لا تحب من يقول كلاما مثل هذا. إعط  
لنفسك وقتا وستحبك إن أحبيتها.

وأحبيتها بدون أن أسألها عن رأيها. لم يكن يهمني كثيرا أن أعرفه.  
كان يكفيني أنني كلما حزنت أو انكسرت، منحتني أشواقها وباراتها  
وزواياها الشعبية الضيقة التي أشرب كأسها الجميلة فيها تحت النواصات  
التي لا تطفأ طوال الليل.

لم تكن مدينة عادية أبدا. بسرعة صارت في.

الدراسة والبعث والغربة .

كنا مجموعة من طلبة الدراسات العليا، يتفاسمون هما واحدا في فيلا قديمة بحي الإطفائية . أسمانا المناضل، كما كنا نسميه، وهو صديق تعج رأسه بالتناقضات وأوامر أمه التي لا يستطيع أن يعصاها: ناس الكومونة . دماغه متعب بمزيج من الطيبة والرفض للظلم والحلم . كثرة الشعارات اليسارية لم تعلمه إلا رفع يديه عاليا والتلويح والصراخ ملء فمه حتى يتطاير الزبد منه في كل اتجاه .

«إنها لكذلك حتى السحق النهائي للإمبريالية وعملاتها .»

«عاش رجال الكومونة، ليسقط خونة المهد .»

«عاشت الثورة الدائمة التي تفض مضجع الخونة .»

المناضل، نموذج غريب، كلامه لا يحد وطيبته تتقاطع أحيانا مع السذاجة . ذو وجه نحيف، تتدلى منه لحية حمراء كثة، وشاربان طويلان مثل فلاح لبناني . ذات مرة أوقفته دورية أمنية وكانت المدينة تصفي حسابها مع الدين الذي صنعتة :  
- هويتك .

نظر إلى الضابط طويلا ثم قال وهو يتسم، وانفا من كلامه :

- أعرف لماذا أوقفتني . لحيتي لم تعجبك؟ هل هذه هي لحية الإسلامي؟ ثم بريك يا أخي ألا ترى أنها حمراء؟

عندما عرف الضابط أنه غريب الديار، تركه وهو يردد:  
- حمراء وإلا خضراء، الهوية هي الهوية. الله معك. لا تمش  
كثيرا بالليل.

- بلاد العرب أوطاني. . .

وأخذ ينشد كل الأناشيد التي تعلمها بالمدرسة والتي بقيت عالقة  
برأسه ولم تغير السنوات والعمر فيها شيئا.

رد الضابط وهو يفلق باب السيارة العسكرية:

- ولك حبيبي بيكفي، هي الأسطوانة منعرفها. خاطرك.

المناضل لم يتوقف عند هذه الحدود، فقد كان كلما نزل إلى النادي  
أو الرابطة، يضع تحت إبطه عصا ملونة مثل العصا التي يحملها عادة  
الحكام الأفارقة.

«بحيا رجالات الكومونة الصناديد.»

رجال الكومونة بالنسبة له هم نحن. مجموعة فيلا الإطفائية. بينما  
في الواقع كنا بعيدين عن هذا الحلم الذي ألصق بظهرنا، بعدد الأنجم  
الجميلة التي تنحرق شوقا إلى الركض على تربتها كل ليلة.

خليطا من البشر كنا. لا شيء يجمعنا إلا هذه العزلة والرغبة  
المحمومة للدراسة والحب واكتشاف هذه المدينة التي لم تقل كل ما في  
قلبها لذويها.

لنبدأ من البداية.

الأول فينا، لخضر، كان يطمح إلى أن يكون ثوريا يغير العالم  
وينسف الأنظمة العربية العميلة دفعة واحدة. تجول داخل التنظيمات  
الفلسطينية اليسارية، من الجبهة الشعبية إلى الجبهة الديمقراطية إلى جبهة  
النضال إلى الحزب الشيوعي. . . وعندما اشتعلت النيران وبدأ الحصار  
الإسرائيلي لبيروت، ترك الجميع وهاجر إلى بلد غير معلوم. كان مغرما  
حد الموت بطلعة كارلوس ويقسم برأس أمه وأبيه أنه عرفه شخصيا بل  
وتغذى معه في أحد مطاعم بيروت المنزوية في الوقت الذي كان فيه

الناس يقتلون على الهوية. كان يهوى تارة طلعة الجنرال ديقول وديمقراطيته وتارة أخرى وفي جو آخر يصبح شي غيفارا، مغيرا وجهه وشكل لحينه، وحتى المرأة التي يمشي معها لمزيد من التمويه للمخابرات العربية والإسرائيلية التي كان يشعر دائما أنها وراءه، تقتفي كل خطواته.

الثاني، عفان، كان زميلا طبيا، جاء من شرق البلاد. حفظ القرآن عن ظهر قلب ولوحة اللوغاريتم وسحر الأبجديات ونحو ابن جني وشقليات سيبويه، وغسل الألواح بالصلصال حتى أبيضت يده. اشتغل إماما في إحدى القرى البعيدة عندما كان يافعا قبل أن يستقر به المقام في العاصمة في أعالي بوزريعة. اكتشف في النهاية أن هذه العلوم العريقة لم تغيره كثيرا وثبته فيما لم يكن يريد مطلقا. لم تعلمه إلا السجود عند نعال الفقهاء والذين سبقوه في شرب العلم. ذات صباح جمع في ساحة الحي كل الأصدقاء والأقارب وتحت دهشة الجميع أحرق ما تبقى من ألواح الغيب وبنى على هذا الركام رجولة كان يشتهيها منذ زمن بعيد. الزمن القاسي دفع بعفان لأن يرتحل نحو صوفية قلقة جعلته يندفن بين الكتب والأوراق بحثا عن وجه الله الذي كان يتسرب من بين الأبجديات كالبخار والهواء.

والثالث، سامي الأكبر مثل بطرس الأكبر. سميناه كذلك لكبر قلبه واتساع صدره. البعض كان يناديه **Le Saint**. طيبا كان كالكلمات الدافئة ووفيا لدرجة مدهشة. مستعد لنسيان نفسه مقابل رضى الأصدقاء. علمته قسوة الدنيا وجروح الطفولة كيفية التحايل على المصاعب وتجاوز المتاهات المغلقة. أبناء الذين ينتظرون في الضفة الأخرى عودته بفارغ الصبر، يعدون الأيام على رؤوس الأصابع متى تنتهي غربته لكي يشبعوا من وجهه. يحاول جاهدا أن يخرج بسلامة من الدوائر الضيقة، محافظا على نقائه البدوي وصفاء سريرته. لم يكن يطلب من الدنيا الكثير سوى أن تمنحه وقتا كافيا لإسعاد عائلته وأحابيه الذين أعطوه كل شيء ولم يطالبوه سوى بأن يظل وفيا في الغربة لحليب قريته وقيمها.

بجانب هؤلاء كلهم، كانت ماسة. أحسنتا جميعا وأكثرنا اندفاعا نحو الحياة. امرأة تسمع الندى عندما يسقط ليلا وتتحسس أشعة الشمس قبل شروقها وتكتب الشعر. ماسة، طفلة لا تشبه البقية. لا ترى عيناها سوى الرجل الذي أحبه وعشقت طلعتة وأقسمت أن لا تعشق غيره حتى يرث الله كنوزه. رجل قالت عنه الكتب المخفية والخطوط المبهمة، إنه سيقع ضحية المعدن والنار. عندما ماتت، تركت فراغا مخيفا فينا كلنا. ماسة ماتت بين ذراعي الفلسطيني الطيب، فوده وهي توزع جريدة المعركة أيام الاجتياح الإسرائيلي لبيروت قبل أن يلحق بها بعد أيام معدودة.

ثم نبيلة، طفلة الماء. ابنة الجنوب التي تموت على البحر وكل حلمها أن تسكن بجواره، عندما تشيخ. كانت مرتبكة كالرياح. لا تستقر على حالة. بين المد والجزر كموجة هاربة. الحياة بالنسبة لها، ركام من الخسارات المتعاقبة، لا تقبل الفصل والخيار. إما أن تعاش ككل، أو ترفض جملة وتفصيلا. رأت كل الألوان وكوابيس الدنيا. وعشقت وجوها عديدة ثم استقرت على الرجل الوحيد الذي لم تحبه في حياتها للتخلص من ملاحظات المحيط القاسي. نبيلة منذ أن تزوجت خرجت من فيلا الإطفائية مثلها مثل مريم فيما بعد، وهي تحمل في قلبها حقدا لا يوصف ضد الظروف التي رمتها في هذه الدنيا. كلما شربت قليلا، هددت بالانتحار وحرقت نفسها حية ثم تنام. في الصباح عندما تستيقظ، لا تذكر مطلقا أي شيء مما حدث لها ليلة البارحة.

ثم عيد عشاب وسيلفيا اللذان لم يكونا من سكان الفيلا ولكنهما كانا ممن فتح لنا الأزقة والدروب المغلقة عندما وضعنا أقدامنا للمرة الأولى في هذه المدينة. عيد عشاب كان قد سبقنا إلى الغربة قبل عشر سنوات قبل أن تشربه هذه الأخيرة بشهية كبيرة في كأس عرق ممزوج بأقراص مجهولة. كان يعرف أن مصيره شُمع بهذه المدينة. حتى عندما رجع إلى مدينته تبسة، مسقط رأسه، لم يمكث كثيرا. لم يتحمل ثقل المدينة ونفاقها فرجع بعد أقل من شهر.

ثم كنت أنتِ، سيدة الشأن الكبير ونصاعة الرخام.

صغيرة كنتِ، ساذجة وطيبة، بقلب طفولي تحركه أبسط الأشياء.  
دموعك تنهمر بسرعة غريبة تحت ضغط نزوع ديني يستيقظ فيك لحظة  
الضعف. لكن أمام لحظات الحب، تطلقين كل السير القديمة وتنسين  
تماماً أنك أمام طابو علقوه على رقبتك منذ يومك الأول في هذا العالم.  
عندما تسترجعين أنفاسك المتعبة، تحاولين جاهدة أن تجدي مبررات  
مقبولة لحالات الضعف التي تعتريك. أنت تدركين مسبقاً، أن كل ذلك  
لا يعدو أن يكون مجرد محاولة يائسة لإقناع نفسك بأن ذنباً لم يسجل  
عندك. متى كان الحب يتطلب غفراناً. الحب هو المعصية الوحيدة التي  
يغض الله عنها الطرف.

– واش درت أنا قدام الأخريات؟ ثم ماذا؟ من حقي أن أعيش. لا  
أدري بالفعل إذا كان الله هو الذي نظم الحلال والحرام أم البشر هم  
الذين وضعوا الحدود بحسب أمراضهم؟

– من المعتوه الذي يتجرأ على حرمانك من حَقِّك في الحياة؟

– ما أكثرهم. على كل حال لم أقترف معصية في حق الله ولا في  
حق نفسي.

– اللي يسمعك يقول قلبت الأرض على السماء. ماذا فعلت؟ أنك  
حييت؟ وبين الضرر؟

– خلاص ما دامت الفتوى قد جاءت منك، أنا مرتاحة.

ثم تفهقهين بشكل هستيري.

– شفت كيفاش وليت؟ طفلة تحتاجي وتفك.

وصالح الذي حبن التقى بالجميع للمرة الأولى ورأى مريم، قال  
هذه المرأة لي. اللي يدور بها انحي له روحه. ضحك الجميع من هذا  
الكلام الساذج بسخرية، لكنه ظل جادا طوال الأيام والشهور والسنوات  
التي أعقبت علاقتنا حتى حصل على ما أراد. شاب مرتبك. يريد أن  
يشبه الجميع. أن يكون كل شيء ولا شيء في نفس الوقت. على حق

دوما وعندما يناقضه واحد منا، يسترشد بمقولة صناع التاريخ العالمي والوطني الذين حصل له شرف مكاشفتهم والتعرف على بعضهم كما كان يردد دوما. لا أحد من مجموعة فيلا الإطفائية، كان يأخذ كلامه مأخذ الجدية.

والمشحاح أو ابن خلدون كما كنا نسميه وكان يشتهي ذلك ويفرح كثيرا كلما سمع كلمة ابن خلدون. التحق بالمجموعة في وقت متأخر. كان يرفض أن يسهم مع الجماعة في الأكل. لم يكن يدفع إلا ثمن الإيجار. وصمم أن يعيش كالذئب على البصل والخيار والجزر. ذهب في هذا الموضوع إلى أقصاه. صار ينظر له بكل استماتة. يقول بأن مفعولها استثنائي على صحة الإنسان. في الليل يفصل في غرفته ولا نسمع إلا صوت أسنانه وهي تقضم بصعوبة خضره المفضلة كالقوارض. عندما يتجشأ، ويمضغ علكة أمريكية لإزالة رائحة البصل، يخرج لبشرب معنا الشاي. لم يكن شيء يهمه إلا الاستيقاظ باكرا وعد النقود وتنظيفها ووضعها في الوسادة في انتظار تحويلها إلى فرنك فرنسي وبعثها إلى قريته لتوضع في حسابه الخاص.

جماعة بينها حليب النبل ورغوة الشوق. حين التقينا لأول مرة كنا مثل الاخوة، بيننا أشواق البلاد والرغبة في الدراسة والنجاح في الحياة. كنا أول دفعة للدراسات العليا اختارت هذه المدينة. أحيانا نسقط في تناقضات جوهرية لم يذكرها زميلنا المناضل، المغرم بملء فراغات القول بكلمات الصحف والشعارات التي لم تعلمه إلا رفع يده اليسرى بشكل مقوس والصياح وسط الأوجه الكثيرة.

«بحيا رجال الكومونة والبعاقبة. ليسقط عملاء فرساي.»

كنا نارة في عينيه نشبه الكومونيين عندما يكون سعيدا وراضيا علينا. ونارة أخرى تتحول سحناتنا الضعيفة إلى رجال فرساي المتوحشين. والواقع أننا كنا خليطا من التفاصيل الدقيقة. كل واحد فينا يعيش عالما مركبا هو وحده ينتمي إليه.

جماعة صغيرة كنا، لم يقدمها إلى هذه المدن العتيقة صرير أبواب

السجون الحديدية ولا أصوات الرصاص المرعبة، كنا فقط ندرس ونتمنى من القلب والعين، أن نختصر هذه الغربة ليعود كل واحد فينا إلى ضجيج المدن الثقيلة، أو إلى بلدته الصغيرة التي تنام متأخرة وتستيقظ مع صبيحات الديكة.

كنت إحدانا. مريم الشريفة إحدى سلالات الولي الأندلسي الصالح. في قلبك نبض المدن الساحلية وشموخ الجبال المطلة على البحر التي أقام على تربتها سيدي عبد المؤمن بو قبرين كل صلواته، وهسهمة السواحل الموحشة التي لم تمسها أيدي بشر. لم تكوني عظيمة ولا جميلة للحد الذي يدفعنا إلى اللجوء إلى الاحتراق في طقس بوذي انتحاري عجز صاحبه عن مقاومة الأوجه الآسرة. كنت أنت فقط وكان حضورك كافيا لأن يجعلك سيدة كل سهرة أو كل لقاء.

طيبة كنت، وطفلة تعشق الألبسة الوردية وكتب الحكايات الشعبية والقرآن والشعر العربي القديم وقسمات وجه الخنساء المنكسرة. ما يزال في دماغك، ذلك الشيء المبهم المحترق، الذي يدفعك تارة إلى الأمام وتارة أخرى خلف كل الناس الذين يتدافعون قرب عينيك كالنمل.

حين جلست في أيامك الأولى في هذه المدينة تقرئين الكتابات الصفراء والتحقيقات التي كنت مولعة بها، لم يكن لديك وقت للحديث مع أي إنسان آخر. تختارين زاويتك الضيقة في فيلا الإطفائية وتنكفين على نفسك. كل ما كان يمارسه البشر كان يبدو لك تافها ومقززا. وحين نتحدث عن الحب وعن العلاقات الإنسانية، تبسمين بسخرية وأنت مشتتة كعود كبرت:

– الرجال متشابهون، يمارسون نفس الدور. كلش كيف كيف. مين تكون بعيد يجرىوا وراك ومن تلتفت لهم ينساوك. هاذوهم الناس. هكذا دائرين. الله غالب.

– الرجال كالنساء، فيهم القبيح والمليح.

– كل ما أعرفه، هو أنه لا يوجد رجل يستحق أن نحبه بصدق.

كلهم عندما يجدون البدائل، ينسون حبهم الأول.

- معقول؟ ألا يوجد رجل يستحق حب امرأة؟

- وريه لي؟ ما الفرق بينه وبين حمار يبحث عن دابة. عندما يصلها، يركبها ويذهب نحو غيرها. الحمد لله، أنا على الأقل مليحة مع ربي، ما دَرْتُ علاش نَخَاف.

كنتِ ساذجة والأكثر من هذا، عنيدة.

وكنتِ صادقة كذلك لأن هذه التصرفات كانت تنبعث من جوهرك ومن يأسك.

وعندما تخسرين رهاناتك الصغيرة، تلعين الدنيا وخالقها ومحبيها. تنحدر دمعات صغيرة من عينيك. تحفرك كأملاح البحر. تمتد أصابعك مرتدة إلى وجهك. ثم تلوين رأسك في اتجاه آخر حتى لا يعلم الناس لحظة هروبك وضعفك. كنت تعشقين الأتربة والورق الأصفر والناس الذين سكنوا الكتب، رجالات الجاهلية وأيام العرب وحروبهم، سيف بن ذي يزن، عنترة العبسي، الخنساء، البسوس والغبراء، داحس، وجوه القرآن، ونوال السعداوي، والأساطير الجميلة التي دفنتها جدتك في دماغك قبل أن تموت.

لم يكن ما يجمعنا كافيا لأن أواجهك ولكني صممت أن أفعل. ذات ليلة كنا مرهقين من الدراسة. فقد هبنا الدكتور أسعد بتخريجاته عن إبرة. فعل: أبر... الأبر... البر... البثر... ثم يواصل لدرجة أن نساءل إذا لم يكن الرجل واحدا من اثنين: إما عبقر يا خارقا أو مجنونا ساحرا. وكنت مصمما على إسماعك ما لم تكوني مستعدة لسماعه.

- مريم، أنت متعبة وهذا..

- يوصلك إلى الانغلاق والتكوم على الذات. سمعت هذه الجمل قبل هذا الوقت.

- لست ميالا إلى التنظير، ولكنك تقتلين نفسك وشبابك.

- إنها قناعتي يا خويا. أنتم كل واحد لا يشبهكم فهو على خطأ.

- من قال هذا التخريف؟ أنت حرة في تفكيرك ولكنك تتحررين .

- والحل؟

- افتحي عينيك قليلا فقط . الدنيا ليست بهذه القتامة .

- أنت لم تقل لي ماذا يجب علي أن أفعل؟

.....

وفي ذات المساء ، حين امتد الكلام بيننا كالوديان الجافة ذكرك  
بحياتي الصغيرة ، البسيطة . قلت لك أنا كذلك كنت عاشقا للكتب  
الصفراء ومؤلفات سيدي علي النزاري الذي عرى الأجساد ووضعها أمام  
نفسها لتقرأ ضعفها وإنسانيتها ، مبارك الخضير الذي قضى ثمانين سنة  
وهو ينتظر العلامة التي تأخذ في طريقها كل شيء ويتخفى وراء الكلمات  
هربا من الموت . سيدنا التيفاشي وسيدي الجيلالي بن رضوان  
التمساني والكتب التي ذكرت باستفاضة تفاصيل الموت وعذاب القبر ،  
والألباني وأبو معشر الفلكي وابن تيمية ومحنته وسيد قطب وإعدامه  
والطبري الذي لم أكن أفهم ما يقول ولكنني لم أكن أحبه كثيرا ولم أكن  
أرتاح له . تخريفه كان يرهقني . . . وأحوال القيامة التي تتبعها من  
الصعود من أسفل الجبل الأسود حتى قمته زحفا على الوجه ثم ابتداء  
عذاب القيامة مع انفجار براكين الجبل والارتقاء داخل حمم الموت  
الملتهبة ، وكنت حين أنهى القراءة أرتجف كحائط محشو بالتبن والطين  
وروث الأبقار ونفايات الكلاب والأدميين . وصليت وحيدا في خلاء  
موحش على الصخور الباردة وفي أيام الأعراس . ونزعت القميص أيام  
الشتاء وبحثت عن المغفرة بالصلاة عاريا وبتقبيل نعال فقهاء البلدة .  
وحفرت قبوري ذات يوم اتهمت فيه بالجنون ، بأظافري فقط في مدة  
استمرت معي أكثر من ستة أشهر ، سعيا وراء التقليل من عذاب القبر .  
هل تعلمين ما معنى أن تحفر قبرا بأظافرك؟ وحين كنت أضعف أمام  
النساء الجميلات في ماخور عيشة الطويلة ، العاجزة عن المشي ، كنت  
دائما ألبس جلبابي الأسود ، وأتكوم على نفسي بعد أن أغتسل ، وأبدأ في  
قراءة آيات الكرسي وسورا من القرآن الكريم وأقنع نفسي بأن الله غفور

رحيم . وحين أجبر على إعادة الكرة، أصلي ركعتين وأستغفر الله،  
وألعن الشيطان الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس وأقسم  
أن أقتل حواسي . وبعد أيام أكرر نفس الفعلة مع جارتي الطيبة المطلقة .

مع الزمن، لم يعد الله معنيا بنا وبمشاكلنا، ما عنده من ويلات  
الناس يكفيه . نسينا وتناسينا قليلا .

هذه الأشياء الصغيرة التي تأكل من الداخل كاللدودة لم توصلني إلا  
للموت المقنع بالحياة وبالخجل والخوف من أي شيء وربما حتى منك  
أنت . حتى صرت، كلما رأيت امرأة جميلة أشعر بركبتي ترنجانا وبقلبي  
يخفق بعنف، فلا أجراً حتى على الكلام معها .

- من أين ورثنا هذا البؤس؟ سلطناه على أنفسنا بأنفسنا . ثم نمنا  
داخل السعادات الكاذبة قريبي العيون ومنتشين بأوهامنا وإخفائاتنا  
الدفينة . هل أنت في حاجة لأن أقول لك أنني خسرت علاقتي مع الله  
ومع نفسي .

كل الأشياء الجميلة أشعر تجاهها بصعوبة لمسها خوفاً من أن  
تنفسخ في يدي . مع أنني مدرك مسبقاً بأنها لن تكتسب حيويتها إلا  
بمحاولة فك رموزها المبهمة والاستحمام في دماء مياهاها .  
تساءلين:

- طيب، من أين تأتي إذن كل هذه الحماقات التي فينا؟

- من ترتيب العالم السيئ للغاية .

- من صنع هذا السوء؟ الله؟

- لا . الناس الذين احتكروا الغيب والبلاد .

- أنا لا دخلي بهؤلاء . أحب الله .

- الله صار يشبههم ويتماهي في ضعفهم . الله الذي نحمله فينا  
يشبهنا بالتمام . لا أعرف إلهاً يختلف عن حامله . السيئ الجبار ربه  
يحمل كل صفاته والطيب المسالم ربه لا يؤذي نملة . الآلهة بعدد البشر  
الذين يمشون على هذه الأرض .

- وهل هذا يكفي لحل معضلة الوجود.

- لا يهمني كثيرا حلها بقدر ما تهمني حياتي. إننا لن نعيش ثانية. لهذا لست مستعدا للخسارة الفادحة. لا.

ويستمر الحديث حتى الساعات الأولى من الفجر.

ويوم فتحت عينيك، متأخرة قليلا، كانت تفاصيل الدنيا قد تغيرت والزمن صار أكثر إشراقا بالبسته الزاهية التي لم تكوني تريها.

هل أضيف؟

لم تدللني الحياة كثيرا ولكنني أجبرتها على الأقل للاستماع إلي وإلى أنيني الكبير. في التطوع الطلابي، بدأت أمسح جسدي من تشوهات القديمة. وذات صباح من الأصباح، كانت الثلوج تملأ بلدة قنبرا - سيدي بلعباس، وجدت نفسي واقفا أمام فلاح أو جالسا معه، نبحت رغم شقاوة الأيام الفاتئة، عن الدروب الوعرة الموصلة حتما إلى النهايات السعيدة. صحيح أن جزءا من حماقتي القديمة ظل يأسرني، لكنني اكتشفت في بلدتي التي كنت أكرهها، وجوها طيبة مثل التربة، وعاشقا بربريا جميل القد والعيون، في الليل يوزع المناشير وفي النهار يلبس الورود ويحمل فأسا عتيقة، يحرق الأحراش ويفلح الأتربة السوداء ويرغمها على الإخصاب حتى ولو ركبها اليباس.

- لا أدري من هذا الغبي الذي حول القناعات إلى دين؟

- هي ماذا؟

- اجتهادات بشر يمكن أن توصلنا كما يمكن أن تعمينا عن رؤية الدنيا.

لم أكن مستعجلا لأن أرى طيوراً جميلة تحلق في عينيك العاشقتين. بيني وبينك كانت تنمو أشياء جميلة ورائعة روعة هذا العالم المتآكل الذاكرة والقلب، وصلبة مثل جبال زنبدل العملاقة التي كنت مهووسة بها لأن جدك عبد المؤمن بو قبرين قطعها كلها سيرا على الأقدام قبل أن يجد هضبته التي بنى عليها مقامه. كنت أدرك مسبقاً أن

قلبك يعج بأمواج عملاقة، تحركها الأنواء والأشواق الدفينة وحار مثل النار والوطن الذي ما يزال تميمة تندرج على صدرك، تدغدغ نهديك كلما نسيت تربته. مربعك كان صغيراً وأنت التي أحطته بالنار والشبابيك والأقفال. مع أن إمكانات التحليق والخروج من دائرة الضيق، كانت واسعة سعة هذه العيون الليلية الهادئة والرائعة روعة الحناء البدوية التي تصبغ شعرك ورؤوس أظافر رجلك.

حتى عندما صرنا أصدقاء، لم يكن شيء يفرقنا إلا أسئلة الموت أو لنقل الانشغالات الوجودية التي كنا ندخلها من زوايا الأسئلة التي تقود في النهاية إلى حتمية الاختلاف. أو على الأقل هذا ما كنت أراه. كان يبدو لي الزواج مثلاً أرقى أشكال التصفيات الجسدية. تصفية تتم برضى الجميع. العمل الانتحاري الأكثر نقاء.

- بوف... فات الحال يا صاحبي. عندما نصل المنعرج ولا نعرف كيف نتفاداه، الانزلاقة يمكن أن تقذف بنا في عمق الوادي.

- جريبي وسترين، الدنيا ما تزال جميلة وتستحق أن تعاش. والعمر لا شيء. ومضة نور. المهم أن تعرف كيف نقبض عليها.

- عن أية ومضة نتحدث؟ كل شيء بدأ يموت. ثلاثون سنة يا روحي؟ لم يبق الشيء الكثير.

- ما زلت طفلة.

- أنت تقول الشعر والحب، لكن قسوة الحياة شيء آخر. وحياتك شيء آخر غير ما تظن.

ثلاثون سنة يا حبيبي؟! ثم ماذا بعد هذا العمر؟

- لا شيء سوى أن الدنيا بنت الكلب، تلعب بنا كما تشتهي. ولا أحد في مكانه. امرأة تحب رجلا وتريده رفيقا للعمر، فيرفض. وهي، يريد لها رجل آخر كزوجة بكل جوارحه، فترفض وتبحث عن تركها. ورجل آخر يحلم فقط أن يقبل منه أهل صديقه تزويجها له ومستعد حتى لتغيير دينه، فيرفضون؟ بريك؟ ألم تصب الحياة بجنون العيشية واللاجدوى؟

«باب الصبر مفتاح الازمان: نعم. لا شيء تغير ولا شيء جديد. نويت في هذا اليوم أن اكتب رسالة للوالد وسهام التي بدأ وضعها يشغلني كثيرا منذ ان عادت إلى الوطن لتموت على أرضها بسبب المرض الخبيث، لكنني لم أستطع لأن القرحة زادت علي أكثر. البارحة رأيت خيوطا من الدم حينما تقيأت. إنني أعيش على مساعدات الرابطة ولبيرات الأصدقاء بعد أن صمت الوالد نهائيا. منذ استقراره بالمدينة المنورة وتزوجه هناك صار شحيحا. صحيح أن عمله شاق. فهو مضطر للبحث باستمرار عن الأعشاب الطبية التي يأتي بها من الخليج ومن بلاد الهند والسند وكاشمير وباكستان وأفغانستان والصين وغيرها، هذه هي تجارته التي ورثها عن جده الأول الشيخ المختار التبسي بحي الزاوية، لكن كل ذلك غير كاف. كان في الماضي القريب، كلما مر على البلاد، يتصل بي، يبقى معي ساعة أو ساعتين ويترك لي نقودا ويسافر. اتصلت

اليوم بجورج خابيان هاتفيا. الوحيد في عائلته الذي يفهمني واعتقد انه يحبني بصدق. اصبت بخيبة كبيرة. فقد أخبرني بسفره هو وأخته سيلفيا إلى بيروت لقضاء العطلة الشتوية. علي إذن مرة أخرى أن اتعلم كيف أصبر. سيدي الكبير ابن عربي يقول إن الصبر مفتاح الأحزان، ساعمل براهيه وأشرب حتى تعود سيلفيا، من حقها أن تخرج قليلا من هذا الوضع البئيس الذي ورطتها فيه.

من أوراق عيد عشاب

مرة أخرى تخطئين .

ها قد عدنا إلى الحكايات القديمة التي تتأكل في الداخل كالمعادن الصلبة وتتحرك إبرا مسمومة في كل مفاصل الجسد الذي يرتعش للنكتة كما يرتعش لأذان جميل .

حتى يبدأ العشق من عينيك في النمو كشجيرات العليق، كان لا بد من جسر صلب لا تقهره الأنقال . فكانت مصاعب الحياة وهذه الشوارع المكتضة والحوارات التي لا تنتهي والماطلات، والهروب نحو فضاءات المسرح والسينما والسيرك، ورنين أجراس الكنائس، والمشاكل اليومية، وسهرات الأصدقاء التي كانت تنتهي في أغلب الأوقات بالسكر والتقيء والمشاحنات، على الرغم من البدايات الجميلة وقيلاً الإطفائية، وهم الغربة الذي يدخل الجسد كمحات المطر الباردة، تنشره مرغمين كهواء هذه المدينة ورائحة المازوت وقهوة الصباح الممزوجة برائحة الهيل . أمور على تناقضها، كانت تسهم في توسيع عالمك الصغير، في بناء الجدران التي تحولت فيما بعد إلى كتل عالقة عبثاً بالمغارات الباردة .

- كم أحلم أن أنسى نفسي وأطير عاليا .

- إلى أين؟ هل ضاقت الأرض إلى هذا الحد؟

- ضاقت، وضاقت معها سبل السعادة .

- كل شيء مترتب على إرادتك .

- إرادتي؟ لا أدري إذا كنت أصلا موجودة. كل شيء مخرم  
ومكسور كأنما مرت عليه دبابات وجرافات.

..... -

..... -

فجأة تتسع عيناك لترى النور المتسرب عبر كوات القبو الصغيرة.  
تأملين الشمس وهي تخترق الجدران الباردة. يفيض القبو نورا. تشعرين  
بسعادة غامرة سرعان ما تنكسر على رشقات البارود والرصاص  
والانفجارات القادمة من بعيد، ربما نواحي البريد المركزي. تنهارين  
كبنية عتيقة. ترتعدين مرغمة، عصافير هددتها أصوات بنادق لا تخطئ.  
تعذبك هذه المدينة.

يعذبك سنك وهذه الأصوات الثقيلة. تتممين:

- ماذا لو أموت برصاصة طائشة؟ حسنا فعلت ماسة، فقد اختارت  
موتها بجراحة بجانب الرجل الذي أحبته، على أطراف الملعب ببيروت.  
رفضت أن تساوم في حقها. اختارت الموت في بلد كانت تراه فقط في  
البطاقات البريدية أو من خلال صوت فيروز التي كانت تعشقها حد  
الجنون واختارت رجلا كانت رجله على غيمة بيضاء يصير أنها أرضه التي  
تستحق أن يموت من أجلها.

- ماسة اختارت قدرها ولم تطلب من الحياة الشيء الكثير. ركبت  
نفس الغيمة التي عشقها الفلسطيني الطيب بدون أدنى تردد. التردد يقتل  
المواطف والأحاسيس.

- لا أعتقد أن ماسة كانت آلة وإلا لبقيت في فيلا الإطفائية تنهي  
تعليمها. لم يكن الذكاء ينقصها مطلقا.

- لا. ليس هذا قصدي. هناك أناس مرشحون بالفطرة، بالثقافة، لا  
أدري، لفعل أشياء يعجز عنها آخرون. أن تقبل أن ترهن حياتك بغيمة  
هذا يعني أنك لا تعبر اهتماما للحياة كما يفهمها عامة الناس.

..... -

يعذبك هذا التزاوج الذي يأكلك من الداخل كالنار الفارسية . تحيين وتريدين أن يكون حبك كاملا وأن يولد من يومه الأول كبيرا؟ الخوف من العكس هو الخطير، أن يولد الحب كبيرا وينتهي صغيرا كذيل سمكة .

- ما المانع؟ الحب الكبير يجب أن يولد كبيرا .

- المهم أن يظل كبيرا، وإلا سيموت بسرعة .

- لماذا تريده أن يموت إذا انتهى بالزواج والأولاد؟

- هل هذه هي السعادة والكبر؟

- جزء منها .

- يا حبيبتى، هل نمنع أنفسنا أولا من اختبار ذواتنا؟ الحب جنون

ولكنه كذلك لحظة وعي تمارس بمسؤولية . أنت نفسك تقولين مثل هذا الكلام .

- يصبح سياسة وأيديولوجيا .

- لماذا نعلق على السياسة والأيديولوجيا كل أسئلتنا ومازقنا؟

- يا ربي ما أفساك . . .

أعدد في خلوتي رسائلك الكثيرة. أشياء كثيرة تغيرت منذ تلك الرسالة الأولى المليئة بارتباكات الطفولة والخوف. هل نحن كبرنا وبالتالي خسرنا طفولتنا أم أن الدنيا لم تعد تطبق الحماقات الأولى التي نزعل منها ولكن سرعان ما نغفرها؟

كان اليوم ممطرا. أتذكره جيدا لأنه لم يكن يوما عاديا. أنت تعرفين جيدا وقع الأمطار في. تهللني وتحولني إلى طفل في عمر الورد. كنا نتدحرج في الشوارع الخلفية لباب توما، حيث محل عمو طوني، بائع العرق اللبناني الجيد، عرق توما.

مطر، مطر، مطر. تذكرت فجأة قصيدة السياب.

دندنت... ثم التفت نحوي:

— مسكين السياب ما عندوش الزهر. أعطى كل ما عنده لكن الأصدقاء تركوه والله بالفعل تخلص عنه.

— هل وجدت عظيما فعليا في التاريخ مات ميتة مرتاحة؟ كلهم ماتوا في النسيان الكلي والإهمال لكنهم في قلوبنا. نتذكرهم اليوم في الوقت الذي لا أحد يتذكر أصحاب المال الذين ملأوا الدنيا ضجيجا واشتروا العباد والدم.

— يبدو أنها الوسيلة الوحيدة التي ينتقم بها الفقير من الغني. عليه أن ينتظر الموت لكي يسعد. يا خويا؟ وعلاش ما يعيش الإنسان سعيدا وعظيما وغير محتاج؟

- Des fois c'est vraiment incompatible.<sup>(10)</sup>

لأمطار الشتاء وقع غريب فيك . نعثقين الركض تحت السيول  
وترفضين المطريات . تشعرين كأنها تحرمك من متعة السماء وكرمها .  
خصوصا سماء شحيحة كالتي نعيش تحتها . لكن ذعرا ما في المدينة  
يشبه الهوس ، متصبا في الطرقات وفيك ، نهض فيك فجأة .  
حييت عمو طوني وانتحينا زاوية نصف مضاءة . فاجأنا هو بنفسه  
كعادته :

- كيفكم يا شباب .

- كالعادة عمو طوني ، كاستين مدوزين على كيفك .

نظر إلى مريم . لم يرها أبدا على هذه الحالة :

- مريم ؟ شو بك عمو ؟ إذا زعلك هالزلمي ، قولي ، لا تتحرجي ،  
أخرب له بيته .

تتمتمين :

- لا يا عمو طوني . وحياتك ما فيه شي ، بس تعبانة شوي .

- يا الله ها الكاستين من عندي .

يضعهما مع صحن الشنجلش المقطع في صحن صغير ، ثم يختفي  
ويتركنا في الزاوية المظلمة بالأخشاب المنقوشة ونواصة صغيرة وأكياس  
الدقيق والحبوب الجافة .

شجون مريم تسبقها دائما ولا تستطيع مطلقا تخبئتها ، في خزرتها ،  
في كلامها وحتى في حركاتها . لم نتكلم ولكنها أخذت قطعة صغيرة من  
الشنجلش ، وضعتها تحت لسانها .

- م...م...م... ما أطيبها .

- شغل بيت لك عمو مو لعب .

فاجأنا عمو طوني وهو يضع على الطاولة رأسي سلاطة خضراء ، ثم  
انسحب .

---

(10) أحيانا من الصعب الجمع بينهما .

- كاسك مريم .

- كاسك . أرجوك حبيبي ، خذني كما أنا . أحيانا أحزن بلا سبب .

- طيب ، غيري هذا الوجه .

- ماذا تريدني أن أفعل؟ حزينة . لا أعرف لماذا الأمطار في هذا الفصل تؤذيني؟

- حوار البارحة؟

- ربما . اليوم بكامله كان ذهني شاردا ولم أفهم شيئا مما قاله الأستاذ في الجامعة . وحياتك لا أتذكر شيئا من دروس اليوم ، لا درس الدكتور عفيف البهنسي ولا شطحات الدكتور أسعد علي اللغوية الجميلة ولا حتى درس الأدب الأندلسي للدكتور رضوان الداية ولا حتى النقد الفرنسي للدكتور إبراهيم كيلاني .

- لا تعقدي الموضوع كثيرا . أحبك ولكني لست مستعدا للزواج ولا لإنجاب الأطفال . ما زلنا أطفالا يا مريم نحتاج إلى رعاية إضافية .

- لا أريد أن أعود إلى موضوع الليلة الماضية . إنه يؤذيني . ولكن لا تنس أن عمري يزحف نحو الثلاثين . إذا سمعت امرأة تقول لك إن أمرا مثل هذا لا يعنيا كثيرا ، أعرف أنها تكذب عليك وعلى نفسها . ربما كانت الثرية هي السبب ولكن هذا هو القماش .

- حق مشروع ولكن يجب أن لا يتحول إلى حالة لا شيء بعدها .

- ربما كان حبي لك هو نقطة ضعفي الكبيرة . كم أشتهي أن أقضي معك بقية عمري بدون أن أزعجك بقلقي وبأسى ، ولكنك كل يوم تزداد بعدا .

- تعرفين يا مريم ، لقاؤنا كان طفوليا ويريثنا ولم يبين على كذبة الزواج . كل ما أعرفه أنني أحبك . أحبك جدا . . .

- يا أحمق ، أعرف أنك تحبني . هل تتصور واحدة مجنونة مثلي تبقى مع رجل إذا لم يتوفر هذا الشرط؟ لكن من يستطيع أن يثبت حبه

في نقطة البدء؟ لم نعد نفس الشخصين اللذين لاقتهما صدفة الدراسة أبداً.

..... -

تهرب الكلمات من فيمينا. تصمتين. أتأمل عينيك وأتساءل في أعماقي هل أستطيع العيش بدونك. ربما أنا كذلك كنت أكذب على نفسي. ترشفين من كأس العرق مرة أخرى. تلتقي نظراتنا. تنكفين. تنظرين إلى عمق الكأس. ينسدل شعرك مغطياً وجهك بالكامل. أمد يدي. أرفع الخصلة التي كانت تمنعني من رؤية عينيك الحزبتين.

- مريم، ربما أنا نفسي مانئش فاهم روحي. خذيني أنا كذلك كما أنا. لست أقوى منك. ربما كنت أكثر هشاشة.

- آه... كم أريد أن أعيش معك كما أشتهي أنا وأنت. أن لا أحد يحاسبنا على حريتنا. ولكنني تعبت. كلما ذهبت في العطلة علي أن أبرر أمام كل محيطي المتآكل أشواقك لك وحنيني.

- خلينا على الأقل هذا المساء نستمتع بهذه اللحظة. منذ شهور لا حديث لنا إلا هذا المشكل. بدأنا نخسر حتى ما تمنحه لنا الحياة طواعية.

- إذا كان هذا يريحك، أعدك، لن أتكلم في هذا الموضوع. ثم نتهاوى بهدوء شيئاً فشيئاً داخل كأسينا. أسمع نداءاتك. تمدين يدك نحوي. تتركين ابتسامة متعبة تنزلق من شفّتك.

- تعرف، العرق يلعب لي بسرعة برأسي كما البيرة. أنا لست محترفة، أنت وصاحبك عيد عشاب فلسطيني. تحمل مسؤوليتك يا خويا إذا سكرت.

- مستعد، اسكري فقط.

تقهقهين... يختلط صوتك بزخات المطر التي كانت تنقر النافذة الخشبية المغلقة. تنتصين فجأة.

- نخرج. المطر.

- نخرج .

عند الباب يوقفنا عمو طوني . يطبع قبلة على جبينك .

- هيك بحبك يا بنتي . فرفشي شوية . كيف حالة عيد؟

- وضعه أفضل . القرحة تتعبه كثيرا .

- راح أمنعه من شرب العرق لمدة شهر . الله معكما .

- شكرا عمو طوني .

قلناها في نفس الوقت وخرجنا . كانت المدينة ممطرة والشوارع  
مثقلة بالمياه .

- المطرية .

- تعرف أنني أحملها ولا أستعملها . أريد أن نمشي كثيرا . أن نمشي  
بدون توقف .

- المطر يغري بكل الغوايات . يا الله .

- أعرف أنني بدأت أرهقك؟

- أبدا ، أنت تعبرين عن حالة موجودة في داخلنا ، لكن هناك من  
هو أكثر استعدادا لعيشها فقط .

تتمتمين . كلماتك تمتزج بوقع الأمطار . شعرك غارق في المياه . لا  
تأبهين أبدا . تقطرين . وجهك لباسك . تدورين في مكانك كطفلة  
تكتشف أن لها قدرا لا يحد من الحماقات .

تفكرين ثم تنزلقين على الطرقات كقطع الثلج .

- قل أنك تحبني وتموت علي وأنت لن تسلم في بسهولة .

- أحبك . أحبك والبقية أتركها في قلبي . من يسلم فيك لا  
يستحقك مطلقا حتى ولو كنت أنا . مليح هكذا؟

- مليح .

تختبئين تحت معطفي الخشن . تتحركين كفأرة داخل لباسي .

- هذا المعطف أحبه وأنا سكرانة .

تمسحين أنفك من قطرات المطر التي صارت ثقيلة وأكثر صفاء.  
تفتحين عينيك بتثاقل وتنظرين إلي كحمل صغير وبسذاجة ضامرة تعمقين  
أسئلتك.

– أتريدني أن أصبح مجنونة بك؟

– كنت أظن أنني مجنون المطر لوحدي ولكن الظاهر أن هناك من  
هو أهبل مني.

تتلعثم الكلمات في الحنجرة. تصمتين. ثم، كوردة في مهب  
الريح، ترتعدين. تنحنين ثم تستقيمين. تعبت يداك بالمندبل البنفسجي  
الصغير. لا أدري بالضبط ما الذي ذكرني بمحطة القطار والسكك  
الحديدية التي تمتد على مرمى العين والغادين والرائحين بحقائبهم  
ونحيبهم وأصدائهم. ربما كان السبب الذي يوقظ في هذا الحنين  
الملتبس بالأحزان والأشواق هو المحطة القديمة التي كانت عائلي نتخباً  
فيها كلما كان المطر غزيراً وامتلاأت دارنا ماء. أسمع نقرات المطر وهي  
تسقط نقطة نقطة على الأغطية. تتمدد يد أمي إلي. توقظني. أسمع  
صوتها: نوض، كمل رقادك في المحطة القديمة. المحطة أهملت منذ  
الاستقلال ولم تعد حتى القطارات التجارية تتوقف فيها على الأقل للتزود  
بالماء، كما كانت تفعل أيام زمان أو بالوقود.

– النو يا النو هولتي

حبيبي جاي وأنت هبلتي.

– النو ومعها مريم، يصبح الهبل مضاعفاً.

وتحت المطر الذي لم يتوقف بعد أن اشتد وقعه، أقبلك طويلاً.  
خائف من افتقارك. أتحنس برؤوس أصابعي شفتيك، شعرك، يدك،  
وكأنني أفعل ذلك للمرة الأولى. يداخلني إحساس المسافر أو المقدم  
على فقدان كبير. أنفض رأسي وأحاول أن أطرده الصورة المنكسرة.  
أقبض على يدك اليسرى بقوة حتى أتأكد أنك مازلت هنا، ثم ننساب  
بهدوء على طول الشوارع الخالية التي لا يتوقف امتداها.

- المدينة ليست سيئة إلى هذا الحد.

- لأنها عندما تغتسل بالمطر تصبح شهية.

في منتصف شارع ما تتسألين مرة أخرى. لم تعودي تفهمين نفسك كما تقولين دائما. شيء ما فيك يفضحك حتى عندما تضربين عن الكلام.

تتحرك الأشياء الغامضة في ذاكرتك. تتخيلين العالم مثل اللعبة، تتغير فيه الأشكال باستمرار.

أوه. كم أنت طيبة وهشة مثل هواء الفجر.

هو الوهم يا صديقتي الطيبة الذي يتأبنا جميعا في لحظات الضعف عندما يكون تعويضا مقنعا للضعف الذي نواجه به رداءة الواقع اليومي. أنت تعرفين مسبقا أنك لا تستطيعين مقاومة لحظة الحب وأنا في أسوأ حال من وضعك. لكنك مع ذلك مصرة في النهاية على الصلاة ركعتين واستغفار الله ورسوله على ارتكاب المعاصي. أية معاصي؟ فتعوذين بالأشعار والشياطين التي تزين الحرام وتسود الحلال. ليس لديك خيار ثالث. إما أن تحبي، والعصافير قد تحيا بفعل الحب أو تنهارين كوردة برية شحت عنها السماء، فينتهي كل شيء. تعرفين أن وجه المدينة يمكن أن يكون جميلا لكنك مصرة حتى الموت على بشاعته الأبدية كلما هاجمتك الانكسارات الغامضة.

الأمطار جميلة وحضورك يملأ خوائي، لكنني عندما أعود وأحاول أن أنام، سأعلن الحداد بالصمت لأنني لم أستطع أنا كذلك تغيير حزنك الداخلي. فكلامك لا يستطيع أن يثبرا من حنينه الذي ورثته عن أمك المنكسرة التي لم تعش إلا البرودة.

ها أنتِ مريم ما تزالين مثقلة بالعطور النادرة والألبسة الإيطالية الفضفاضة وسجائر مارلبورو الأمريكية الطويلة الأعناق، والألوان البنفسجية وتعتقدين اعتقادا كبيرا أن الدنيا لا تعطى إلا مرة واحدة. ما تزالين طفلة تعشقين الكتب الصفراء وتموتين في سيرة البطل الهمام سيف

بن ذي يزن، وتغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة وما جرى لهم من الحوادث اللطيفة الظريفة والحروب الهائلة المخيفة وقصة مغامس مع بنت عمه شاه الريم وقصة البروديل ابن رشد، ملك العريش ونزول بني هلال وغرقهم في أرض المخضة وغيرها من الأخبار العجيبة والقصص الغريبة. تحيين كل هذه الأشياء التي تؤكد لك أنك مازلت في الطريق المستقيم والمقدمات الطللية للقصائد الجاهلية ولا تتساءلين.

مريم، ما يزال بيننا متسع من الوقت للحب والطفولة. كل هذا الزمن لم نكبر إلا قليلا. وكلما حاولنا، وجدنا أنفسنا في عمق الحياة نتعلم من جديد وباستمرار. تفادينا كل المنعطفات القاسية وهذا المنعطف يبدو مستحيلا. ليس من حقنا قتل أجمل شيء فينا، القدرة على الحياة. الناس في هذه البلاد وفي بلادنا فقدوا حتى الشهوات البسيطة وتحولوا إلى كائنات مقتولة في أعماقها.

كل التفاصيل تندفع بسرعة نحو القلب بالجملة.

حين التقينا لأول مرة لم أكن فارسا عاشقا، بربري العينين، ساحر النظرة والمحيا، أتى على جميع قلوب النساء ولم تكوني أنت يا مريم ابنة أمير حكم البلاد والعباد بالعدل، لم يوقظ سيفه إلا لمحاربة المظالم ودرئها. كنت فقط امرأة من ضوء مشع دوما أو سيدة الأنوار كما سماك أحد الأصدقاء من الذين سحقتهم السياسة وقضى العمر كله يشتم الأنظمة العربية أملا في أن يجد يدا رحيمة تسحبه نحو السجن وتعطيه صك المناضل الذي اشتهاه كثيرا ولم يحصل عليه. كان المشرفون على النظام يعرفون خطره جيدا وأنه ليس أكثر من ثرثار مبشس، يمتنهن مجانية الكلام الذي يضحك الأصدقاء قبل أن يزعج الأعداء.

وبسيطا مثل نهاري وليلي، كنتُ. لا أشبه إلا لنفسي. شعر مكزبر يميل نحو صفرة محروقة. عينا تشبهان لوز امسيردا البري، تتناسل فيهما ألوان البحر والتربة والشمس. قامة ممتدة كخروية الأجداد وأقدام ملتصقة بالأرض بقوة. يغطيني مانطو يميل لونه الأساسي نحو خضرة باردة، كنت تعشقيه مثلما تعشقين الأمطار. هذا أنا، هل نسيت شيئا؟  
- نسيت أن تقول لي إنك تحبني. أصبحت مريضة بك وبالأمطار.  
آه لو تعرف ولكنك لا تعرف.

- أنت مبتلة كثيرا.

- الأمطار التي تحيي الرعشات الداخلية، لا يمكنها أن تقتل.

ركبتك هذه الحالة من جراء حكاياتي القديمة، وتعمقت أكثر يوم داهمتنا أمطار غزيرة في محطة القطار، لم نكن ننتظر سقوطها. كنا نذهب إلى المحطة كل أسبوع ونتأمل وحيدين امتدادات السكك الحديدية التي تغوص كسيف عتيق في قلب السهول والجبال.

خفت عليك من البرودة، فوضعتك تحت معطفي الخشن وحاولت أن أدفئك. ثم جرينا في الأرصفة حتى وصلنا إلى عمق المدينة واختبأنا تحت مظلات المحلات العامة، ننتظر توقف الأمطار أو قدوم سيارة أجرة.

عندما أرهقنا الانتظار، بحثت عنك داخل قلبي.  
كنت نائمة مثل قط صغير استشر الدفء فجأة بعد برودة قاتلة.  
وحين فتحت عينيك من غش النوم، كان الصحو قد أتى.  
وماذا بعد؟ زد شوية...

إضافة إلى هذا المعطف الخشن، حذاء الكلارك الذي لم يغادر رجلي منذ أيام الجامعة التي مرت بسرعة لدرجة أنه أصبح جزءاً مني.  
حين أراه معلقاً في المحلات أشتي أيام الجامعة الأولى، أصدقائي الذين عرفتهم والذين كنت أقطع معهم المدينة البعيدة طولا وعرضا. يتعبون ولا أتعب. وأقنعهم مع الزمن أن حذاء الكلارك هو خصلتي الوحيدة. اشتروه وظلوا يتعبون ولا أتعب.

يتيمة الأم كنت ومن أب صمم على الانتحار صمتا بعدما رأى أن الضرر الذي تسبب فيه للأقرباء لا شيء يشفيه ويوازيه في الأسى إلا الصمت. صمت حتى غادر الدنيا ولا أحد يعرف سر صمته.  
ويتيم الأب كنت ولا شيء غير ذلك.

والدي بكل بساطة خرج ولم يعد. عندما سألت الجدة وأمي المتعبة عنه، قيل لهما أنهم راوه يركب الباخزة الذاهبة نحو مرسليليا وبعد زمن أخبرهم هو بنفسه أنه وجد عملا وأنه بخير. كان والدي يظن أن باب السماء قد فتح ولكنه كان في كل يوم يزداد انغلاقا عليه، في غفلة منه قبل أن تجهز عليه عندما يصير في قبضتها.

«باب الغياب الأكبر: والدي الحبيب اليوم فكرت فيك طويلا لأنني فكرت في الموت. لا أدري لماذا أنا ملتصق بك إلى هذه الدرجة؟ حتى دراهمك لم تعد تعنيني، لقد أصبحت أعيش مثلما تشاء الحياة لا مثلما أشاء أنا. لكنني أتساءل يوميا في يقظتي وفي نومي، أما زلت حيا؟ أما زلت تفكر في؟ حياة الخليج صعبة؟ أفهم ذلك ولكنني ابنك. أنت لم تعلمني هذا الفراق الفجائي. كان عليك أن تعودني مثلما تفعل الحيوانات مع صغارها. السنوات تمر وأنت لا تظهر وأسئلتني في الرابطة عن بريدك صارت تقليدية والأجوبة باردة: ما عندك والو يا السي العيد من عند الوالد. حتى الحجبي التي تحبك ربما لدراهمك، تسال عنك ولما طال غيابك، لم تعد تدلعي كما كانت تفعل بحضرتك. ترتاب في كل حركاتي ولا عمل لها إلا تصيد زواري. هل تعلم أنني أشتاق إليك وبدأت أنسى وجهك؟ لقد صرت أعيش في قفر مثل الذئب. اليوم فقط خرجت من مستشفى المواساة. كدت أموت. سيلفيا بكت كثيرا. قالت: عندما رأيتك تنقيا الدم وتضرب رأسك على الحائط، ظننت أنك ستموت. ثم قالت وهي تغطيني قبل أن تخرج: حبيبي قلل من حماقات العرق، أرجوك. إفعل هذا على الأقل مشان خاطري. والدي الحنون، لماذا كل هذا الصمت؟ هل أذيتك وأنا لا أعرف طريقا للشر؟ كلماتك اللطيفة كانت لي كالبلسم الشافي، تجعلني أتحال مع نفسي وأعتز بها فلماذا الآن غابت وانتفت. فإذا كنت أجتهد وأقاوم مصاعب الدنيا فلأنني تعلمت ذلك منك الكثير. وجودك بجانبني يمنحني قوة التغلب على الصعاب.

أختم رسالتي هذه التي لن تبعث أبدا ولا أدري إذا كان سيكتب لك قراءتها، وأنا استدر عطفك وحنانك. سيدي ابن عربي وجدي الأول سيد الزاوية، الشيخ المختار التبسي كانا يقولان دوما إن الأب مثل الروح عندما تخرج يتهاوى الجسد. ويبدو أن جسدي بدأ يتهاوى ويموت بصمت.

ابنك الوفي دوما لك حتى ولو نسيته في هذا القفر.»

من أوراق عيد عشاب

عندما كان والد عيد عشاب ينطفئ في قفر الربيع الخالي وينجب هناك أبناء آخرين من نساء أخريات فرضتهن عليه سبل التجارة والتحرك بعيدا عن الديار، وكان والدك يضرب عن الكلام حتى الموت متناسيا محيطه وأملك التي أكل المرض والغبن جسدها، كانت أنوار المدن الساحرة والمستحيلة تأكل جسد والدي الذي دخل تلك البلاد مليئا بالأحلام والأشواق وخرج من شوارعها الجميلة جثة هامدة. فجيعات الغربة لم تكن متساهلة مع أحلامه ولا متسامحة مع تماديه في خيالاته.

حبيبي الغالي، كم أنت بعيد؟

وكل يوم تزداد بعدا وتوغلا في مثل المديّة الحادة.

وكم أنا مرهقة وحزينة من أجل نفسي وللوضع الذي آلت إليه حالنا، وحزينة جدا من أجلك، لأن رأسك يابسة كالحجرة. الحب ليس فقط ما نشتهي، هو كذلك ديمومة. ربما هذه قوته ومقتله. الذي علمك كيف تحب، لم يعلمك كثيرا كيف تحافظ على أشواقك حتى النهاية. ستقول لي، الحب مثل الكائنات الحية، له بداية وله نهاية. المشكل ليس هنا ولكن فيمن يصنع هذه النهاية. لماذا نزاحم الأقدار في حماقاتها؟ لماذا نقتل شيئا بإمكاننا أن نحافظ عليه ما دمنا نحب بعضنا بعضا؟ هل كثير علينا أن نكون مع بعض؟

يحدث معي أحيانا أن أسقط في التهويمات وحب الركض وراء غيوم هاربة كانت تركبها الأميرة الجميلة في أحجيات جدتي الكثيرة. وحين أفشل في تحقيق شيء، أحزن بعمق ويتتاب قلبي الإحساس بأنني فقدت شيئا ثميناً قد لا يعوض أبدا. لقد صرت في حاجة ماسة إلى الارتباط بأي شيء يمنحني فرصة التعلق بك والتفاؤل وعدم التنازل للأقدار التي أصبحت تنافسها في سلطانها القاسي.

الإدمان على الحزن يا حبيبي صعب في هذه المدينة الريفية التي جعلت من السعادة والبؤس مبادئها الأساسية. غريبة الأطوار هي هذه المدينة. حتى الحزن يتحول عندها إلى لباس عصري يرتديه الفارغون

والذين يعوضون الفعل بالجملة الثورية المبهرة. كم أشتهي أن أخرج من هذه الدائرة التي تأسرني.

شقاؤك صعب. وأسئلتي بدأت تزداد تعقيدا كلما استحضرت أوضاعنا الخاصة ولم أعد أرى لها أفقا. أنت مثلي، تؤمن بما تحدثه تفاصيل الحياة فينا، من معجزات. لكن يبدو أن الله والملائكة قد غضبوا على المدينة وعلينا ولن ينزل أي نور أو أية حياة على أسوارها، فقد انسحبت الملائكة والناس الطيبون منها. أحبك ولكني لم أجد بعد أجوبتي لما يعذبني. عمو طوني في ذلك اليوم أحس بحزني. رجل يقرأ كل شيء من العيون. عنده حق، لا شيء أؤمن من العين لفك الأسرار. نحن لا نحزن شهوة في ذلك ولكننا نحزن لأننا لا نملك أجوبة لأسئلتنا المستعصية. كلما كنت معك نسيت همومي الصغيرة ورأيت حبات المطر التي تملأ قلبك لكني كلما غادرتك، عاودني الخوف من الآتي الذي لم أعد متيقنة بلامحه. هل تعلم أيها الحبيب الغالي أن لحظاتنا المسروقة تأسرني. أراك الآن ونحن نندفع بشوق مجنون تجاه بعضنا البعض، داخل فيلا الإطفائية التي جمعنا ذات يوم، وفي غرفة ضيقة اخترتها أنا وأنت لتكون لنا ونحرر البقية للأصدقاء الآخرين. غرفة ضيقة توفر لنا فرصة تعاطي كل حماقات الدنيا، لعب الورق، والشطرنج وممارسة الحب والجنس بالشكل الذي نشتهي وفي الوقت الذي نحب. في النهاية نتضحك عاليا كالسكارى، بشكل هستيري ونساءل كيف وصلنا إلى جراحة التعري في أعين بعضنا البعض. من أين جاءتنا تلك الشجاعة النادرة؟ وعندما نتفطن بأن الأصدقاء يمكن أن يسمعوننا، ننكم قليلا ثم نحاول عبثا أن ننام. شيء فينا يستعصي على النوم. عفوا، يستعصي على الموت.

هل نسعني الآن أم مازلت غائبا؟

حبيبك مريم التي لا تغض عينيها إلا عليك.

ياه! كل هذه الدقة وكل هذا التفاني في الإنجاز المدهش؟ لا بد أن يكون الله وهو ينحتك قد استغرق وقتا طويلا. أحيانا في خلوتي، يبدو لي الله مثل الفنانين، عندما يحب شيئا يعطيه من نفسه وعندما لا يكون كذلك، ينزع عنه من روحه. أنت حباك بكل تأنيه وحبه والدقة المتناهية في عمله.

— أنت نبالغ. لست أكثر من امرأة مثل بقية النساء، في الجميل وفي قدر لا بأس به من القبح لا يخفى عليك أبدا.

— تعرفين يا مريم، أنت المرأة الأولى التي لا أرى حرجا في رؤية جسدها عاريا وأتعرى على مرآها. لا أدري مصدر عقدتي؟

— علماء النفس يقولون إننا نسقط جسد الأم أو الأب على من نشتهي. ربما كانت عقدة الذنب هي المصدر الأساسي.

— ربما أو هكذا علمونا. الله غالب. لا أدري كيف وصلت إلى تجاوز كل هذه العقد المتراكمة في معك. معك وحدك.

— أنا نفسي لا أتعرى بسهولة. معك كل شيء مر بسرعة.

في البداية كنا لا نتزع ثيابنا إلا ونحن داخل الفراش.

ثم تغير فجأة كل شيء بسرعة. صرنا نتعرى وكأننا نلعب. نتعاطى الأفراح الصغيرة وعند اللباس تراقبين عيني، هل ما تزالان تحت سواد أصابعي أم راوغتكم وفتحتهما في غفلة منك وملأتهما بجمال جسدك،

ويوم اكتشفت المرأة العظيمة من وراء هذا الجسم الحي، كنا قد تحولنا إلى طفلين شقيين كلاما وفعلا، لا يهمنا البتة إن تعرينا على مرأى من بعضنا البعض أو بقينا بالبلستا.

– هاني وين قدامك، عارية مثلما أنجبتني أمي، فهل تحبني هكذا؟

– ياه؟ إذا كان الله عاشقا، لابد أن يغار عليك.

La main qui t'a taillée était merveilleuse, elle ne peut être que celle d'un Dieu pas comme les autres, très passionné par les femmes.

- Et pourtant, ce même Dieu m'a totalement délaissé.<sup>(11)</sup>

أمد يدي. تصعد الموسيقى من قلوبنا. تتأوهين. أشعر بحرارة جسدك. تتحرك أصابعي مقتفية تنهداتك والموسيقى التي لا تتوقف. أدفن رأسي في صدرك. نقبضين بقوة علي. تنفتح شفطاي على الحلمتين الموردين. تتلوين ويصبح جسدك حارقا مثل النار. أسمع صوتك يأتيني من بعيد؟ لابد أن تكون امرأة مجنونة هي التي علمتك كل هذه الخبايا في جسد المرأة. لابد.

ثم نتكور داخل الفراش. دماؤنا تغلي. نختلط ونصير كائنا واحدا. ننسى في النهاية أننا وسط دوائر مغلقة تشدد ضغطها على ذواتنا ونترك أنفسنا نعيم داخل المطلق.

ثم... تتوقف الموسيقى. نفتحين عينيك شيئا فشيئا. يظهر بياضهما الصافي. تتحسسين جسدي. أصابعك رقيقة. تأخذين يدي. تضعين الشاهد في فمك. تعضينه قليلا لتؤكدني أنني معك. أشعر بالألم اللذيذ. مازلنا هنا ولم نتحول إلى ذرات ضائعة في الفضاء.

تنظرين إلي. تتممين:

---

(11) لا بد أن تكون اليد التي نحتكت رائحة. ولن تكون إلا يد إله استثنائي، مغرم بالنساء.

– ومع ذلك، نفس هذا الإله نسبي تماما.

- ياه... معقول أن هناك نساء لم تلمسن رجلا في حياتهن؟
- أكيد. مجتمعنا لا يوفر إلا هذه النوعيات.
- كم يضيعن من حياتهن. نقوم؟
- مثلما تريدن؟

- لماذا الحياة معقدة إلى هذا الحد؟ ولماذا العمر لا ينتظرنا قليلا  
ريثما نحل مشاكلنا ويواصل؟ لماذا يسرق من حقنا؟

تحاولين نسيان كل شيء وتذكر إلا هذه اللحظة. نسيان هوس  
السنوات المرتعشة التي تتخيلين أنها ذهبت مع الريح أو أصبحت مثل  
النجوم الهاربة، تموت مختنقة بيأسها، تنزعجين فتتكسر في داخلك  
أجنحة الطيور المسافرة وتتساقط محروقة كل العوالم الجميلة. تختمينها  
بحجز نفسك في حجرة باردة قليل شتوي ثم تحاولين النوم عبثا.

«ثلاثون سنة يا ربي سيدي؟»

ثلاثون سنة والحياة مجموعة من الممارسات المكرورة. وهل  
الزواج يوقف الرتبة والموت البطيء؟ تتساءلين، ثم نهزين رأسك بعنف  
كبير كالذي ينفض كيسا أفرغ من محتوياته الأصلية وبقي به كم من  
الزوائد العالقة والأجسام الملتصقة بحواشيه. الكثير مما يحتل رأسك  
يحتاج إلى مجهود كبير للتخلص منه لأنه يرهقك ويتعبك ويحرمك من  
الحياة الدنيا. تحاولين ولكنك تتوقفين إذ تشعرين أن مخك أصبح يرن  
مثل القطع النقدية وأن رأسك صار كشحارة امتلئت حتى أصبح من  
الضروري كسرها.

- مع أنني لا أطلب الشيء الكثير. حبيبي، تعرف أنني في معظم  
الأحيان أسخر من الدنيا، لكنها قاسية كالنار، فأجديني في أغلب الأوقات  
أبحث عن صدر حنون، لا أفتقده ولا يفتقدني. ربما كنت مثالية.  
صدقني أنه الواقع، الدنيا عادية ولا تستحق منا كل هذا العذاب. كانت  
أختي خيرة تنصحنني بالحذر من الرجال وانتحرت المسكينة وهي لم  
تعرف رجلا في حياتها. ظلت تكرر نفس الكلام: إياك من أولاد

الحرام؟ الرجال متشابهون، لا يستحقون دموعنا أبدا. في السنة القادمة ابحثي عن وجه جميل وأرغميه على الزواج منك. أنجبي منه أطفالا حتى يصبح رهن إرادتك مثل خاتم سليمان. اركبيه إذا استدعى الأمر، ورطيه، ولكن إياك ثم إياك أن تسلميه جسدك قبل أن يشتريه منك بعقد الزواج.

- اليوم، المسافة التي صارت تفصلني عن أختي خيرة ازدادت مع السنوات والهوة تعمقت وها أنذي أمنحك جسدي بإرادتي لأنني بقدر ما أحبك، أستهيك ولا أطمح مطلقا أن أكون قديسة مثلها أبدا. يقهرك حضور خيرة في ذاكرتك. تتألّمين لها. تصمتين.

تنظرين إلى السقف بعينين صافيتين مثل حبتي مطر. تشعرين بالغنى يأكلك في العمق. كنت أخاف عليك أن يظل هذا القهر ملازما لك حتى الموت. كل شيء فيك يتبدل بسرعة. ذهاب خيرة ترك فيك فجوة كبيرة من العبث. صحيح أنها ارتاحت من اللاجدوى ولكن ألم يكن من الممكن أن ترى الحياة بشكل آخر؟

- يبدو لي أن الله لا يعرف جيدا أصدقاءه وأحبته.  
- مثل البشر، يضعون وقتا كبيرا في البحث عن اللاجدوى ويتركون الحياة تعبر. والحياة لا تنتظر أبدا.  
- ما العمل إذن؟

- لا شيء. من حين لآخر علينا أن نتذكر أن وجودنا مع بعض حظ كبير وليس أمرا هينا ولو بدا من حين لآخر عاديا ومستهلكا. سيأتي علينا زمن لن نجد في حتى هذه الفرصة.

تعود نغمات الموسيقى الناعمة. تدخل المسامات بهدوء كحبات المطر الدافئة. تنظرين إلي قلبلا. تحفرين قسماتي ثم تخمضين عينيك مثل الدمية، تعضين بلذة أكثر على إصبعي الصغير ثم تنامين على ذراعي الأيسر، قريبة من قلبي، تماما في النقطة التي تعودت أن تسندي عليها رأسك.

### كيف أصبحت اليوم؟

منذ مدة لم نلتق. كيف هو مخبأنا الصغير في حي سوق ساروجا؟ كيف هو عمو طوني الذي لم يرنا مع بعض منذ مدة طويلة؟ كيف هو أبو هيثم، الكندرجي الطيب الذي يؤجر لك البيت؟ هل يزورك الأصدقاء أم مازلت مقاطعا لكل محيطك لتكتفي فقط بسيلفيا وعيد عشاب؟ يبدو أننا ضعنا يا حبيبي. لا أعرف إذا ما كان علي أن أحقد عليك أم أعبدك؟ طوال هذه السنوات لا أنا استطعت التخلص من وجهك ولا أنت استطعت أن تحسم أمرك مع نفسك؟ سارة عندما تكبر سأحكي لها عن كل شيء. كل شيء وستغفر لي حماقتي التي مارستها مع الرجل الوحيد في الدنيا الذي هز كل يقيناتي.

الطبيب أصر علي بعدم الحركة لأن ذلك كله سيؤدي سارة. كما أعرف سخريتك، لو تراني، ستضحك مني كثيرا. لقد صرت مدورة كالنفخة. سارة بدأت تتحرك في بطني وتضرب برجليها وكأنها تريد الخروج بسرعة. صالح لم يعد يقترب مني كثيرا ربما لأنني لم أعد شهية أو ربما لأنه مل من المحاولات البائسة. بعد شهر من القطيعة معه في الفراش، حاول معي البارحة، ثم حاول فرفضت، كنت مسكونة بك. ثم حاول فانصعت لأن خوفا ما انتابني لا أدري مصدره. حتى عندما أرضيته لم أكن إلا معك.

## كيف أنت؟

رسائلك تصلني عن طريق صديقتنا المشتركة سيلفيا. تعرف أحيانا أغان من حريتها. أجد أنها تشبهني كثيرا. حل عينيك؟ نخرب لك بيتك لو كان تدور بها؟ أمزح. سيلفيا طيبة ومتفهمة وكبيرة القلب وتحبنا ونموت في صديقها عيد وأعرف أنك تساعدنا قدر ما تستطيع.

لقد كنت مريضة ولزمت الفراش مدة طويلة. ولذلك نغيبت عنك. كل هذا لم يمنني من التفكير فيك. كلماتك هي التي تخرجني من قلقي ومن يأس. وقنوطي. مقالات الأسبوع الماضي لم أطلع عليه لست أدري ماذا كتبت فيه. لقد فاتني. حتى صالح لم يعد يشتري الجريدة التي بها مقالاتك، أو يشتريها ويمزقها في الطريق قبل أن يصل إلى البيت.

ياه؟ كم أنت غبي؟ بعد كل ما كتبت لي نألني؟ أنت الوحيد من يفهمني فهل يعقل؟ حتى ولو كانت حماقاتي كبيرة فأنا لا أملك إلا أن أحبك. القلب الذي وسع الحب الكبير يسع الغفران الكبير. الحب مثل الموت مخيف. هكذا أنا اليوم. ماذا بقي لي أن أقول بعد جملك الكبيرة. سأعيش عليها وأعمل بما نشتيه. أنت الآن الوسيلة الوحيدة للحياة وسارة. ها أنذي فيك. أستمع إليك: «مريم، امرأتي الهاربة من حلم مجنون، افتحي عينيك على وسعها ولو مرة واحدة في حياتك. وسترين أن الدنيا جميلة وتستحق أن تعاش. جربي، فلن نخسر شيئا. غير قيود الثلاثين سنة التي نأكلك في هدوء. وعقدة الكبر ونصائح أختك خيرة التي انكسرت قبل الأوان، والضباب، الضباب الذي يعمي البصر والليل المتهالك في عينيك المرهقتين اللتين لم تعد تبرحهما هالة المتاعب. جربي فقط وسترين.

أنا ما زلت هنا، في المكان الذي تركتني فيه آخر مرة، عند المنعطف المؤدي إلى اللاجدوى أو إلى الجنة، لا أدري، أنتظر بدون أمل كبير في رؤيتك... أنتظرك...

أرايت واش راك داير في أنت وعود النوار دبالك؟

علمت أنك ستسافر لمدة عشرة أيام . اذهب وعد لي بالسلامة .  
سأنتظرك دائما . أرجوك لا تُطل كثيرا ، فوجودك وحده بهذه المدينة ،  
يعطيني الإحساس بالطمأنينة والراحة . سألد بعد مدة قصيرة وكم أتمنى أن  
تكون حاضرا في المستشفى وأن تكون أول من يرى سارة وهي تفتح  
عينها على الدنيا .

معذرة أيها الحبيب الغالي ، أنا دائما أخطئ حيث أريد أن أكون  
استثنائية في حبي لك . لا تزعل مني . تحمل حماقاتي كما فعلت ذلك  
دائما . من جهتي لا أفعل شيئا مدهشا ولكني أحاول وسط هذه العزلة أن  
أجعل الحياة ممكنة التحمل .

وين تروح مني؟ مهبولتك دوما وأبدا.

## الفصل الثالث

### بداية التحول

,

أتساءل اليوم وسط هذا الخواء المخيف هل بقي للسنوات معنى؟ لا أشعر الآن إلا بالحياة وهي تهرب مني كالعصافير الضالة. لقد ابتعدت الحياة وصار الموت قريبا. حتى أغاني فيروز التي كنا نعشقها وسمفونيات موزارت انسحبت فجأة. كلما بحثت عن وجهك الضائع بين الوردية والسكين، لا أجد إلا أصدقاء كلماتك وهي تودع السنوات الماضية برمشات عيون حزينة وعاجزة عن إيقاف انهيارات الزمن. شيء ما ينخرنا من الداخل لا نستطيع أمامه أي شيء سوى إعلان فشلنا الكبير.

لست شقيا رغم أنني ورثت الحزن عن كل أجدادي الذين مروا من هنا. الشقاء ليس مهنتي لكنني عندما أكتب علي أن أشعر بعمق الخسارة وفسوتها.

من يتذكر باريس ذات سنة خلت؟ أنا أتذكرها. إنني أسمعك تقولينها وأنت تسرحين شعرك الساحلي الجميل أمام مرآة عالية. أراك معلقة على النافذة المطللة على الطريق السريع، في ذلك الحي الجامعي الكثيب. في الليل شربنا واكتشفنا أن لنا جسدين يستحقان أن يُحتفى بهما. وعندما عدنا إلى مدينة الشوق كنا حزينين. كان دفء الغربة كافيا لإيقاظ الأعماق الدفينة.

وأنا أعبر الشارع الخلفي الذي يمتد من لوكسمبورغ إلى سان ميشال رأيت وجهك هاربا نحو مخابئ الروح. إلى أين؟ إليك أيها البعيد؟ هل هناك غيرك في هذه المدينة؟ تركت كل شيء وجئت معك؟ هذا لا

يكفيك لتعرف كم أحبك وكم أشتاق إليك حتى وأنت معي. أسمع صوتك. يأتيني نقيا كشمعة. وأنام عليه على الرغم من بحة الفرحه والانكسارات الدفينة.

أقرأ رسائلك الأخيرة المجللة بالسواد والحب والخوف. أرتعش أمام الكلمات وأمام حالة الصحو التي تخطين بها حروفك. يا بختك ما أقوى قدرتك على التمييز. أنا منذ زمن لم أعد ذلك الكائن الذي يقرب كل شيء ويقوده نحو ما يرضيه. أخذ الدنيا كما تأتي ولا أفلسها كثيرا ولو أن اللوثة كما تسمينها التي جاءتني من قراءاتي، ما تزال في. لا نتخلص ممن أحببناهم ومنحونا فرصا كبيرة للسعادة والفرح داخل الكلمات، هكذا. أدخلني سارتر داخل السؤال العادي وحفره معي حتى فاض الجوهر كما يفيض ماء العين وفتح ماركس عيني على محيطي وعندما أردت أن أشيح بوجهي قبض على رأسي ومنعه من الحركة وجرتني رامبو نحو الجحيم، كنا نمشي ولم يكن يابه للحرارة التي كان يخلفها وراءه وكسر نيتشه كل يقيناتي وجردني من كل أسلحتي القديمة ولم يعطيني إلا قطعا مفككة وطالبني باستعمالها وجعلني كافكا أكثر هشاشة من أية لفحة صباحية، أنكسر وأفوم ثم أنكسر وأعاود القيام بصعوبة.

لقد تغيرنا كثيرا أيتها الحبيبة والحياة أيضا لم تعد كما كانت، ببساطتها وعفويتها واندفاعاتها. أحس وأنا أقرأ ما تكتبينه أننا لا نرتاح إلا داخل شهوة فقدان. خسرنا كل شيء إلا مبادرة الكتابة والحنين إلى الكلمات التي تدخل إلى القلب مع موسيقى الليل والياسمين التي كنا قبل زمن لا ننام إلا عليها. أما زلت تفعلين ذلك إلى اليوم؟ أما زلت تقولين لنفسك أو لصالح أنك تخافين من الصمت والموسيقى تزيل وحشة الأشياء وتملأ المكان بالحياة؟ أم أن شروط الزواج تملي عليك فسوتها وتقودك حيثما نحو قبول شروطها القاسية؟

يقول المجربون الذين خسروا العزوبية ثم الزواج بعد ذلك: «الزواج محنة، الداخل له مفقود والناجي منه موعود؟»

تتمتمين رداً على سؤالتي :

- وقيل أنت ما تعرفينش؟ منيش بنت البارح. مهبولة وسأنتهي بنفس هبلي. ما نعرفش نرقد بلا موسيقى. ما نقدرش نبقي مع رجل مع يعرفش يسمع. الله غالب يا صاحبي. أصلاً عندما يعم الصمت في البيت أشعر بالظلمة التي لا تقهرها إلا الموسيقى.

- هل يوجد غير الموسيقى من يعطينا شهوة الحلم والذهاب بعيداً في حيننا؟ نتحمل قسوة الحياة وصرامتها، لأن الموسيقى من حين لآخر تفاجئنا بعنفوانها ودهشتها وتشعرنا بطفولتنا الدائمة وإلا من يملأ هذا الخواء المفجع الذي يزداد اتساعاً فينا كل يوم؟

أفتح رسالتك الأخيرة. أشم عطرك. أشمك. أرى جسدك وهو يتخبأ من وراء الحروف الواقفة حتى لا أراك عارية. عبثاً تهريبن من نظراتي. تركضين من هنا وهناك واضعة يديك على عانتك مثل حواء. تموهين. تتلوئين داخل حرف القاف، تستقيمين من وراء الألف، تحدودبين مثل حرف الدال ثم أراك تتمددين مثل الباء... ثم أخاتلك لتجدين نفسك وجهاً لوجه معي. وين راح تروحي مني؟

قبلة... حبيبي... روجي... ثم الغوص في حالة نسيان كلي.

أراك في كل تفاصيلك. أحاول أن أنام.

يهرب النوم من عيني وتحضرين أنت.

صباح الخير أيها الغالي .

صباح الأشواق حبيبي المنفي في دمي .

سعيدة أنك لم تتأخر كثيرا . بدأت بسرعة أفتقد كلماتك التي عودتني عليها وسط هذه العزلة التي اسمها البيت . ما زلت كما تركتني في المرة الأخيرة ، مدورة كالشفاحة ولا أخرج إلا نادرا . صالح ، المتحمس الوحيد لحبه لي ، بدأ يقلق . أحيانا أشفق عليه ولكني لست سيدة قلبي . أعتقد بمجرد ولادتي سأتركه وربما هو نفسه سيفعل نفس الشيء إذا تخلص قليلا من أنانيته ومن غيرته منك . سأخبره بالحقيقة حتى ولو آذيته . لا شيء يجمعنا سوى حماسه ولا حديث لنا إلا أنت ومرضه بك الذي صار مزنا وعصابة أصدقائه الذين يأكلون وقته ولا يجدون متعة إلا ذمك وشتم كل من يحبك . يحسدونك لأنك أنت . أشعر أحيانا أن غيرة الرجال قاسية لأنها جافة . لست أدري الموجهة المجنونة التي قادتني نحوه . كنت أريد أن أنتقم منك فانتقمت من نفسي وربما منه كذلك . الوحيد الذي لم ييأس من صدي له . أغفر لي حماقتي ، لم أكن أريد أن أثقل عليك . نجلس أحيانا لنكتب شيئا فنجد أنفسنا في مواجهة جمل لم نكن نتصور أنها ستقفز أمامنا بسرعة وتفرض نفسها علينا .

سيلفيا هي التي أخبرتني بعودتك من سفرك الأخير ولهذا سارعت

بهذه الرسالة. منذ زمن لم أر فصل الربيع معك. منذ عودتنا من باريس في تلك السنة التي صارت اليوم بعيدة، ذهبت السعادات الصغيرة التي كنا ننهيا كلما كان ذلك ممكنا. هاهو شهر ماي يعود بمصافيره. يحرك كل مكاني. لم أعد أراه إلا من وراء النافذة وأنا أحاول أن أتحرّك حتى لا أصير ثقيلة. لماذا يؤرخون بالسنوات وليس بالشهور الجميلة. تخيل كم مر من شهر منذ خلق البشرية؟ كم أشتهي مثلاً أن أقول أنه في ماي المليار والسابع والعشرين من سنة كذا... وُلد فلان؟ سأشعر بأن هذا الشهر المرقم بهذا الشكل هو ملكي.

هذه الأيام، بدأت أشياء كثيرة تضايقني. أصبح الموت يسكن معي. يأكل بجواري في نفس الصحون وأحياناً يتعدى عليّ علانية. أخاف فقدانك. قلبك مرهف وشفاف وأنت لا تأخذ أي احتياط فيما يتعلق بصحتك. أحياناً أتساءل ماذا يحصل لو فاجأني الموت أو فاجأك قبل رؤية سارة؟ سألعه ولن أدخل القيامة المهيأة لي وسأحتج على عزرائيل. ليس من حقه أن يسرق مني أموتي. ثم أهدأ وأقول، سمعت هذه الأحاسيس من كل امرأة تنهياً للولادة. أمي كانت تقول إن قبر النافسة يظل مفتوحاً أربعين يوماً. لست الأولى ولا الأخيرة التي تستلک هذا المعبر الذي اختارته ودفعت ثمنه. تخيل امرأة تدفع ثمن رجل تحبه بشكل معلن؟ يبدو لي أن هذا لا يحدث إلا في القصص الرومانسي فقط.

لقد صرت بعيدة عنك. لم اختر هذا القدر النافه ولكنه جاء. معذرة عن كلماتي السابقة إن كان فيها ما يؤذيكَ. المهم كيف حالكَ؟ طمّنتي؟ مقالكَ النقدي الأخير اطلعت عليه وفهمت من تقصد. أولئك الكتبة الذين يبيعون ويشترون. قناعاتهم شعارات وأقنعة ولكن لا تأبه سيسقطون مثل اليباس وأوراق الخريف من أعين الناس لأنهم خاسرون. مع ذلك أنا أتلذذ بنصوصك الأدبية أكثر. لو خيرت، لقلت لك توقف. النقد يكتبه اليوم العاطلون عن الحلم ويستهلك وقتك. سيقوم النقد على رأسي ويشتمونني لأنني تعديت على مساحتهم ولكنهم لا يستطيعون منعي من أن يكون لي رأي كأيّة قارئة مجتهدة. سيقولون عني ما تعودت سماعه

قبل أن نلتقي، ولكن غير مهم. خلبك وسط جنون الإبداع. كلماتك التي تمنحتها، تمنحنا فرصا لا تموض للحلم. وحياتك كلما قرأتك شعرت بالدفع وبشيء من السعادة. أستعيد شيئا ضاع مني ولو ظل في دائرة المبهمة. ألم نقل لي ذات مرة ونحن في شبه غيبوبة في طوق الياسمين، داخل العوامة، على الحافة المظلمة من مصب نهر بردى:

- L'écriture doit d'abord nous faire rêver, si non elle ne sera qu'un ensemble de petits mots sans grandeur.<sup>(12)</sup>

وإلا ما جدوى الكتابة خارج الحلم والجنون؟

أنت أعرف مني في هذه الأمور ومع ذلك أسمح لنفسي بالدخول في عوالمك الخاصة، ولكنني لا أستطيع أن أكون معك حيادية حتى وأنت بعيد عني وربما لم أعد أعني لك ما كنت أعنيه قبل سنوات. لا أدري؟ فأنا هكذا. كلما قرأتك اهتز في شيء عميق لا أستطيع تحديده وانتابني السكر. عندما لا أشعر بذلك أكتب لك لأخبرك بأن شيئا ما في غير مكانه.

أحبك وأفكر فيك كثيرا.

مهولتك التي تحن إليك وتتمنى عبثا أن تنساک. مريم.

---

(12) على الكتابة أولا أن تمنحنا فرصة للحلم وإلا فلن تكون إلا مجموعة من الكلمات التي لا شأن لها.

كنا ههنا نقف . تماما، في هذا المنعطف المؤدي إلى طريق بيروت .  
برد الشتاء في هذه المدينة لا يعمل إلا على إيقاظ الجروح القديمة .  
المطر . أخبئ رأسي بين يافطة معطفي الخشن وأراك تأتين بكل طولك  
وعرضك وأنت تعبرين ممر المشاة متأخرة قليلا عن الموعد .

«خيلتك تستناني؟ عذرا حبيبي .»

قبلة ، ثم نعبّر الشارع باتجاه عمق المدينة .  
مرة أخرى يأتيك ذلك الشيء المبهم الذي يستعصي باستمرار على  
فهمي . يتسرب داخل الدم كالرغبة .

اكتشفنا بعضنا بسرعة وكأننا كنا متعارفين قبل هذا الزمن . أول مرة  
التقينا ، قبل أن تتخطي العتبة وتكتبين الرسالة الأولى ، كانت أسئلتك  
غريبة . تشبهك . لم أكن أملك ما أقاوم به فضولك .

— إذن أنت تكتب؟

— أخربش . لكن في كل الأحوال لا أكتب إلا ما يسعدني أولا .  
— تعرف ، أنني عندما قرأت لك في الصحف الوطنية لم أكن أتخيلك  
هكذا .

— ياه؟ وقيلة أنت مسلطة ضدي . كيف كنت أبدو لك؟ خبيث  
ظنك .

— لا أدري لماذا ولكنني تخيلتك دائما أكبر من هذا السن وأكثر  
قصرا واستدارة .

ربما حدث معك ما يحدث مع الكثيرين. كنت تتوقعين رؤية رجل أشقر. أسر الجمال. حارق العينين. قهر جميلات الحارات الشعبية وغواني البيوتات العالية. يمتطي صهوة براق أبيض كالحليب. طيب وصدرة باتساع الموانئ التي لا ينفذ ركابها ومسافروها. ويزوق وجهه بلحية كثة ورثها خطأ عن «تشي غيفارا» وبشاريين طويلين مثل «سالفادور دالي»، شقا صدر البحر وعواصف الرمل وبنظارتين صغيرتين مثل نظارتني «أنطونيو غرامشي» وعكازات إنجليزية، وشعر مصبوغ الأطراف ببياض يعطي الإحساس بالشيب والوقار.

لم أكن شيئا من هذا. كنت أنا فقط.

- لم أكن أتوقعك هكذا. أنا لا أمزح.

- الله غالب. وماذا كنت تنتظرين؟

- رجلا غيرك.

- من سوء حظك.

- يفترض أن تكون شخصا آخر.

- مثلا.

- أن لا تشبه هذه الخلائق البشرية.

وضحكيت، ظننتني أسخر منك، حين صارحتك لأول مرة بأني كبرت بين الأغنام والذئاب وأن وجودي بهذا المكان هو مجرد صدفة وكان يمكن بكل بساطة أن أكون مهربا للمخدرات أو مجرما أو راعيا، لا شيء كان يؤهلني لأن أكون ما أنا عليه اليوم. وطفلا بثيسا تربيت، قبل أن أدخل هذه البلاد التي تفتح عينيها على الغادي والرائح. وعملت فلاحا عند أحد أعمامي في أرض جافة لا تنجب إلا الياس. كنت مولعا بالجري وراء كلاب الحارات الضيقة ومطاردة القطط الضالة لأنني كنت أظنها كلها مريضة وأنها هي التي أصابت كلبي الصغير بعدوى الكلب مما تسبب في موته. ومهووسا بممارسة لعبة الحرب مع سكان الأحياء المقابلة. كنا دائما ننتصر لا لأننا كنا الأشجع ولكن لأننا كنا الأكثر

عددا، وأتذكر جيدا أننا ذات يوم ألقينا القبض على طفل من الحي «العدو» فأكلناه الزبل وروث البقر والأعشاب المتوحشة التي تسكر وتدفع إلى القىء. كاد أن يموت بين أيدينا لو لم ينقذه السي ابن زيان، شيخ القرية الذي رقص الجن ودوخ النساء وكنا نخاف غضبه.

– زد تمسخر بي. واش من بعد؟

– أشياء لا قيمة لها.

وقلت لك أنني تربيت في أحضان الجدة لأن والدي قضى كل عمره في الغربة. عشقته حتى أكلته. أبي ابتلعتة مناجم الشمال وأشواق المدن المضاعة التي لم يكن يراها إلا في البطاقات البريدية التي كان يرسلها لنا. فقد قضى العمر كله في ظلال المدن الكبرى يبحث عن شمس ظلت بعيدة، بعيدة بعد هذه الأنجم التي تشرق وتنطفئ كل يوم بالآلاف وبالأعداد التي لا تحصى. وذات ليلة باردة دفن تحت ردم المنجم ولم يعثر له على أثر. بينما كانت البلاد تحتفل باستقلالها، كانت أمي تبكي وتبكي أرضه التي ورثها رجال غامضون.

فهقهت. لا تصدقين أذنك وعينك.

ظننتني أتمادى في السخريّة.

– إيه يا سيدي وماذا حدث بعد هذه الكوارث؟

– لا شيء. كبرت واخترت الحياة على الموت والسهولة.

تحترق أشياء كالأوراق العتيقة في دماغي. ألزم الصمت لحظة. إنها البداية. لم يحزنني الأمر كثيرا، مع أنني كنت اشعر من حين لآخر بأشياء تفور في دماغي كالبراكين الخامدة. فقد كان هذا القلب الذي ورثته عن القرى المعلقة في الذاكرة، أكبر من أن يحاسب طفلة ما زال بينها وبين إدراك ضعفها عمر محفوف بمخاطر شجيرات القندول والأشواك المسمومة والنباتات اليابسة التي تقدد لحم الأرجل. مع كل ذلك، كنت جد معجب بصراحتك التي قد تصل حد القسوة. كانت عوالمك جد ضيقة مثل عين إبرة ولكن صراحتك أذهلتني وضايقت يقيناتي.

التفت نحوك وسألتك بنفس العدوانية والشراسة وكأنني كنت أَدافع  
عن مساحة كنت تحاولين احتلالها في .  
- إيه؟ ولأَ واش تكون .

- لا شيء . Un rien du tout أنت لا تعرفني . أنا لست كاتبة . أنا  
قبل أن آتي إلى هذه المدينة كطالبة دراسات عليا ، كنت مديرة . أُسِير  
معهدا بكامله وكان علي أن أكون امرأة ورجلا في الوقت نفسه . الرجال  
لا يرحمون وخزراتهم تعريك كل صباح . كل من فشل مع زوجته يأتيك  
صباحا يجرب معك . كنت دائما أقولها لهم : الذي يفشل مع زوجته لا  
يمكنه أن ينجح مع امرأة أخرى . شوفوا ارواحكم أولا . ينكمشون .  
الرجل يقبل بسرعة خسارته ، ليس مثل المرأة التي تعطيك الانطباع  
بالخسارة ولكنها تظل في خفاء ما تبحث عن أكثر الأسلحة فتكا .

- ذكرني بأنك لم تكوني سهلة لأن الحياة لم تمنحك فرصا كثيرة  
مثل غيرك . وكان يكفيك أن تفرضي نظرتك على الآخرين . أحبك  
الكثيرون ، لجرأتك ولشجاعتك أو ربما فعلوا ذلك نفاقا حتى يسلموا من  
شرك . كانت شق الأسماء الشرقيين المفروشة والملونة بأحلى الألوان  
والموسيقى التي تنبعث من زوايا موهومة ، تدوخك وتمنحك فرصا  
صغيرة للحياة . تعشقين كل ما يعطيك الإحساس بأنك أصبحت كائنا لا  
يخضع لطقوس هذه الأرض . كنت ضمن شلة لم تكن تطالبك بالشيء  
الكثير . أن تتقاسمي معهم بعض الحنين والأشواق والانكسارات العريية .  
كانوا يسمون كل شيء وكان زملاؤك من الجزائريين لا يعرفون شيئا في  
السياسة . كنت تظنين أن كل من ينتقد الوضع السياسي للبلاد هو عميل  
لقوى أجنبية قبل أن تكتشفي أن الدنيا كانت أكثر تعقيدا من حالة التبسيط  
هذه . المشاركة فتحوا عينيك على التفاصيل الصغيرة التي لم تكوني  
ترينها .

- شفت؟ لا شيء يثير في حياتي .

- الناس ليسوا مجبرين أن يمروا بنفس المسالك .

- آه؟ نسيت أن أقول لك أنني مولعة بالأدب العربي القديم وليفي ستروس الذي اكتشفته مؤخرًا. أشعر أن في الخرافة تفسير لحياتنا وكذلك لكل ما تركناه يموت بغباء. وأنت تقرأ هذا الشعر تشعر أنك أمام عوالم قائمة بذاتها. عمران، لا يمكن أن يكون ثمرة سنة أو قرن ولكن ثمرة تراكمات لا تحصى. لا أدري لماذا تركنا أشياءنا الجميلة وسلمنا فيها بسهولة؟

- ربما لأن الحياة لم تعد على ما كانت عليه. شيء يمس كل الآداب العالمية.

- ومع ذلك. نحن دائما نبالغ.

- ما دمت تحيين هذا الأدب اسمعي قليلا.

انتحيت جانبًا. ابتعدت عنك قليلا وفعلت ما يفعله أصحاب الحلقي عندما يستعدون لقص قصصهم. صفقت ثلاث تصفيقات حارة ثم بدأت أتحرّك في مكاني:

«يا السامعين ما تسمعوا إلا سمع الخير. كان بكري، في الزمن الأول حيث كل الأشياء كانت تتكلم قبل أن يصاب بعضها بالخرس. كانت هناك قبيلة يقال لها بنو هلال. كانت منازلهم في أيامها الأولى غزيرة المياه، كثيرة الأعشاب والخيرات حين نزلت بها المجاعة. ففاضت آبارها وبيست أعشابها وذوت أشجارها ولم يعد للحبوب فيها أثر ولا خير. وظلت الحالة على هذا الحال سنوات لم يبق بعدها لبني هلال صبر ولاجلد، فاجتمع مشايخ القبيلة وقصدوا مضارب الأمير حسن ابن سرحان وتحدثوا إليه بما آلت إليه الأحوال وطلبوا منه مغادرة الأرض إلى مكان خصب تتوفر فيه المياه والخيرات، قبل أن يموت أفواج القبيلة من الفقر والحرمان. وما كان منه إلا أن أعطى الأمر بطي الخيام والتوجه نحو الغرب حيث الخصب والحياة...»

- يزي. وقيل أنت لا تستطيع المرء أن يكون معك جدياً؟

- مريم؟ لا تأخذي الأمور بهذه الحدية. الحياة ليست بكل هذه

الصرامة. عندك حق. وأنا مثلك أحب الشعر والخرافة والقصص القديم. فقد تربيت عليها. لكن للحياة منطقها وقليلًا ما نسألنا عن رأينا فيما تريد فعله.

التقينا على أسئلة حادة وافترقنا على نفس الأسئلة وكأننا طوال الزمن الفائت كنا فقط نتدرب للحصول على إجابات فشلنا في إنجازها. ما تزال إمكانات الخصب قائمة داخل ذاتك التي بدأت تتكسر كأحجار الوديان الجافة. لم تكوني في حاجة إلى قطع مسافة بني هلال المرعبة لتدركي كم كنت مخطئة قبل هذا الزمن حين ضيقت الخناق على الحياة. حياتك.

حين ذكرتني بمخزون قلبك وذاكرتك المرهقة أدركت، وكنا قد التقينا في هذا القبر المظلم الذي يتسع للنمل من خلق الله، كم أنك ما زلت هشة وناعمة، وكم أن عينيك ما تزالان كعيني صغار الأرناب مغلقة ومندھشة من نور هي مجبرة على اكتشافه. الأيام التي مضت كالبرق، كانت عاجزة عن تسريب النور إليهما.

وحين أعرتك كتيبي، ووضعتها بين يديك، بدأت تكتشفين أن الدنيا ليست فقط الحرام والحلال أو السير القديمة ولكنها بعض الجنون والحرية والحب. بعد زمن قصير بان لك فجأة سيرة سيف بن ذي يزن مهزوزة، وتحولت طيبة الملك أفرح إلى سذاجة وغباء كبيرين. لم أقل شيئًا ولكنني كنت أعرف أن قلبك كان يزداد اتساعًا كلما دخله هواء جديد. ثم أقسمت أنك في العطلة القادمة ستتطوعين لصالح الثورة الزراعية كما كنت أفعل، وتدخلين البلد وتضحين بعطلتك الصيفية. وستقنعين أهلك بحقك الذي لا يناقش في خدمة البلاد والأحياء الشعبية. رفرفت أجنحة قزحية في عينيك.

وأصررت على أن المسألة جدية.

وحدث أن سألتني ذات مساء وأنا ملتف في برنوس أسود قديم ورثته عن رجل كان يطمح في أن يكون فقط مواطنًا صالحًا، لكنه لم يظفر بهذه المواطنة التي احتكرها وامتصها الرجال الغامضون الذين قدموا

من بعيد. من وراء النار والبحر والانتصارات التي أتت بهم ووضعتهم على أجساد الذين مزقتهم الحروب والفتن المتتالية.

- أنت مثلا. كيف أصبحت بهذا الشكل؟

- نعمت على نفسي.

- هل سأخضع لنفس المتاعب حتى أصبح مثلك؟

- لكل واحد معابره.

- لم أفهمك جيدا؟

- التجربة والحلم والإصرار على الحق في الحياة.

- هذا ما كان؟

- فقط لا غير.

نساءلت في خلوتي لماذا مريم تعذب نفسها؟ عندما نريد أن نشبه شخصا آخر، هذا يعني أننا بدأنا نعشقه وأن القلب بدأ يخفق لشخص بعينه. شعرت بك تقتربين بخطى حثيثة نحو قلبي وكنت من جهتي أركض لأبتعد عنك ولكنني في كل مرة كنت أزداد قربا منك. نظن أنفسنا نقاوم حبا ولكننا باستمرار، نثبت خطوة تقودنا نحو نقطة اللارجوع.

حكيت لك عن كل اللحظات التي ساهمت في تحويلي على الرغم من هذا الضعف الذي ما زلت أحمله والذي علي أن أقهره. وأعجبت في ذات مساء بحركة التطوع الطلابي لأنها تمنح فرصا استثنائية لاكتشاف الناس، وجوهر الأرض التي استقبلت أولى الصرخات المكتومة التي نولد بها. وذكرني بأختك الكبرى خيرة التي فتحت لك كل الأبواب وأغلقت باب السياسة. قالت لك أكبر مضيعة للوقت أن نركض وراء الأفكار الفاسدة التي تشيعها السياسة والساسة.

- يبدو أن خيرة لم تترك لك أية فرصة لتكوني أنت.

- خيرة ضحية كل شيء. لقد تكاثف الجميع على قتلها. الأهل،

المحيط، المجتمع والذين صوروا لها الحياة بالشكل الذي دفعها إلى الانتحار حرقا.

- يجب أن تخرجي من هذه الدائرة .

- خيرة عبدت لي الطريق، أو على الأقل هكذا كانت تظن .  
وضعت أمامي الصلاة، الزواج، ولكنها لم تقف في أي يوم من الأيام  
ضد دراستي . كانت المسكينة مزيجاً من أبي وأمي وخالتي وجدتي ولهذا  
لم تتحمل طويلاً .

- خيرة لا يمكنها أن تكون إلا هي . ثمرة لكل هذا الخليط . لم  
تنح لها فرصة واحدة في حياتها للحياة كما يشتهي عمقها وإلا لما كانت  
كما هي وربما ما انتحرت .

- غريب، أنت تقول شيئاً عادياً ومع ذلك فوقه علي يبدو غريباً .  
كل يوم أشتهي أن أستمع إليك أكثر . أنت وقيل سحار؟  
- سحار لمن أرد أن يسمعي وربما أن يحبني .

- أحبك . . . عفواً لمن يحبك .

كالطفل الذي يكشف فجأة عن كذبه، ارتبكت ثم تماسكت .  
صمت قليلاً . هزت الكلمة مكانها للمرة الأولى . منذ تلك اللحظة  
تأكدت أن في قلب مريم شيء من الرعدة والهشاشة نحوي وبعد أيام  
قليلة كتبت رسالتها الأولى .

- أنت لا يمكن إلا أن تُحب .

أحبيبي يا مريم بالقدر الذي تشائين، لن تجدي أمامك إلا ابن  
الوديان وصديق الخلاء والذئاب والبراري والمدن الحية والقرى المعقدة  
في القلب . ابن القرية المرمية على الهوامش التي نسي واضعو الخرائط  
ذكرها . لن أكون أبداً حتى ولو اشتبهت ذلك، سيف بن ذي يزن، وهو  
أحد الذين أحببتهم . لن أشرب لبن غزالة حمراء اليمن ولن تطاردني  
رماح سيف أرعد . تذكرني يا صديقتي أنني كبرت مثلما يكبر آلاف الخلق  
الفقراء فلن تأخذني ملكة، جبال القمر ومنايع النيل، زوجة الملك  
الأبيض من ملوك الجان، إلى حضن الملك أفراح . وضعت من ثدي أم  
أذبله الفقر والجوع والمارة الغامضون وذوو الأحذية الخشنة الذين كلما

سمعت أصداءهم اهتززت كالطائر المذبوح. لم أضع مع الجنية عاقصة، ولست قادراً على الجلوس على ركبتني يا شامة وأقول لك في لهجة وحش الفلاة بعد أن قطعت القفار والمفارز الخطيرة.

«ما يبكيك يا أجمل ما في الدنيا؟»

وتنظرين إلى وجهي، يبهرك جمالي الروحاني الذي ورثته عن قمرية، أمي، التي قتلت زوجها وسقطت بين سيوف ملك الأحباش وحكمة سرقديوس.

«أنا أيها الشاب المليح بنت ملك وسلطان. وقد تزوجني عفريت من الجان. أنا شامة وهذه أسوار مدينتي وهؤلاء أهلي وأقاربي.»

ويصعب علي يا صديقتي الغالية، أنا البدوي، ضعيف السحنة والذراعين، أن أنزع يد المارد المختطف وأدميه في مقتله. فالجن لا يسيل منها الدم وإنما الدخان لأنها خلقت من نار. أنا أصغر من كل هذه الشهوات التي تملأ ذاكرتك وبصرك. لا أملك لا سحر ولا قوة ابن ذي يزن ولا حتى سوطه.

أحبيني بالقدر الذي تشائين لكن لا تري في عيني صهيل جياذ أهل حمراء اليمن. خذيني كما أنا، ذئب ضائع في برية اسمها المدينة. ليس لدي صبر مفاسم الذي أرققه حب شاه الریم. فبنو هلال يا صديقتي على طبيعتهم، خطيرون وقتلة. سيوفهم لا تعرف الأغمار.

أحبيني، عندما يفاجئنا الموت لا نتذكر إلا الوجوه السمحة التي منحت لنا القلب والجسد والروح بسخاء وغضت الطرف عن الحماقات الصغيرة التي لا تغير كثيراً في نظام الأشياء. الأيام وحدها شاهدنا وفرصتنا لضرب أجمل موعد مع الحياة.

قولي أحبك، ما الذي يمنع قلباً من أن يهتز لدمه؟

أليست الدنيا جميلة وتستحق أن نعيش بعمق؟  
أظن أنها كذلك .

- عندما يمتلئ القلب لا أكنتم صراخي : آه يا يما الحنانة وعلاش  
أنجبتي بنتا؟

قلتها بحزن ثم تمددت على ظهرك بعياء ورشقت عينيك في السقف  
كمن يبحث عن مرفأً مستحيل .

- مريم لم تعودتي كما كنت . شيء فيك انسحب بسرعة .  
- ماذا تريدني أن أفعل في عالم أضيق من حدائي . العمر يركض  
وأنا لم أفعل شيئاً بحياتي .؟

- وهل انغلقت الدنيا إلى هذا الحد؟

- يقتلني هدوؤك وراحة بالك . إذا كنت ترى غير ذلك ، قل لي؟  
وحياتك متعبة . أشعر كأن هناك قوة طاغية تسحبني إلى الوراء لا أملك  
خيالها أية طاقة .

هذا الصباح لم يكن كغيره من الأصباح . لم نخرج كما هي العادة  
دائماً . بصعوبة تسللنا من دفاء الفراش وتزحلقنا إلى النافذة . أيدينا على  
قليبنا . نخاف أن تفاجئنا العجوز أم عمر ، صاحبة البيت ، ذات ليلة  
كفأرين . في حوزتها نسخة ثانية من المفتاح . تجد لذة كبيرة في التجسس  
على كل حركاتنا . ستقلب علينا الدنيا رأساً على عقب . فنحن عندما

دخلنا بيتها أقنعناها بصعوبة أن الفتيات يأخذن حجرة فيما بينهن ويأخذ «الشباب» كما كانت تسمينا، الحجرتين الثانية والثالثة التي كانت كل واحدة منها تحتوي على أكثر من سريرين. نمارس كل شيء بخوف كان يترسب ويكبر في الأعماق.

كانت الشمس تظل بخجل كبير وراء بناية هدمتها الحروب الفاتنة. أطفال البيوتات الواطئة الذين يستيقظون وينامون على قرحة الجوع، كانوا يلعبون في الساحة الكبيرة التي اتسخت بالنفايات والأتربة السوداء التي تنبعث منها روائح المازوت وأوراق الصحف القديمة. الأمطار الخفيفة التي بدأت تتساقط بشكل مغر، توقف في شهوة الخروج إلى الشوارع التي تنام على ظهر الأقبية، والجري والنط كصغار الأرانب، في كل الاتجاهات.

المدينة ليست ساحلية ولكنها تعطي إحساسا غريبا بأنها ساحلية وأن البحر ينام على أطرافها الأكثر انحدارا.

نظرت إلي من تحت عينين شبه مغمضتين.

ونظرتُ إليك برغبة من يريد أن يعرف.

ولحظتها تمنينا لو كنا طائرين صغيرين نحلق في فضاء لا حد له. نغني. نرقص. نشرب حتى السكر. في حاجة لأن ننسى العالم قليلا. ونجري بدون توقف.

«هل جرب أحد منكم الجري تحت الأمطار ثملا؟»

«باب المستحيل: أنا. نعم أنا في اليوم الذي خرجت فيه سيلفيا من صمتها. التقينا في بيت أحد الأصدقاء. كانت تبكي. قالت سأهرب معك. ضحكْتُ، قلتُ ليكن ولكن إلى أين؟ قالت عند والدك في المدينة المنورة، مادام غنيا ويعيش في بلاد بعيدة. قلت: والدي؟ لم أعد أتذكر إلا لون النقود التي كان يبعثها لي كل شهر للدراسة. اشتقت إلى وجهه الذي غاب فجأة. أكثر من ذلك، سترجعين من الحدود الوطنية أو الحدود السعودية وساتهم بالتشجيع على الزنى ولن يرحمنا أحد ويصبح

المشكل الصغير كارثة تضاف إلى إخفاقاتنا الكثيرة. كان جورج معنا ويحب سيلفيا كثيرا. قال لها: يا حبيبتي تريشي لك شوي، مو هيك الشغلة. بدك تقنعهم وحكاية برا هي، مو ضابطة. البابا ما يتركك تعيشين مثلما تريدن. ضحك مرة أخرى ثم قلت بكل بساطة، نذهب لأية كنيسة ونزوج. قال جورج، هذا اختيار أزيل، أنت ما تعرف المسيحيين في هيك مسألة؟ ثم خرج ولم يعد. أول مرة أبيت مع سيلفيا. لا أدري ما الذي جعلني تلك الليلة أسكر بدون عرق حتى الفجر حينما غادرت سيلفيا المكان قبل إطلالة صاحبة البيت اليومية. عندما انطفأ سيلفيا عند العتبة، خرجت وراءها وأنا أصبح كالمجنون: هل جرب أحدكم الجري تحت الأمطار ثملا؟ أنا. سمعت صوتها ولكنها كانت بعيدة.

من أوراق عيد عشاب

وتمنينا لو كنا طفلين، نلبس ألبة وردية ونخرج باكرا أيام الأعياد، قبل كل الأطفال وننط في الأزقة من باب لباب، نتباهى بما كنا نرتديه ونحمله في جيوبنا من نقود.

لكن يحدث معي أن أحس بأشجانك حتى عندما تريدن كتمها. أن أشعر بابتساماتك وهي تنطفئ عندما يصيبها دعر قلبي قاتل. من لحظة لأخرى، كانت ترعبك الأصوات الغامضة التي تأتي من أماكن مختلفة فتتخيلين العجوز أم عمر عند الباب. تصيح، تتكسر صياحاتها بين شفيتها المعوجتين. ترتبكين. ثم فجأة تقلصين فتتحولين إلى قطة تتبع ظلال الأزقة هربا من أصوات البارود.

يا لطيف من أم عمر. دكتاتور صغير من أسوء الطرازات. لم تعلمها زياراتها لجدة ونيويورك ولندن وروما والإمارات، إلا البؤس والتخلف وتدقيق أنفاس المخلوقات. لو كان الأوكسجين بالنقود لقتلت جميع المخلوقات وحرمتهم من التنفس إلا إذا دافعوا. مع أننا يوم أذخلنا عليها العقاري لأول مرة، كانت طيبة وقامت بنفسها وهيات لنا القهوة العربية، لكنها سرعان ما تحولت إلى حيوان عجوز يشمم كل شيء

ويتصيد الحشرات . فهي كما قالت تخاف من القيل والقال . وأكثر من ذلك كله ، تخاف الله ورسله وملائكته ولم يكن يزعجها مطلقاً أن تنهبا . تعلمت بدوري اللعبة التي صرنا جميعاً نتقنها . كلما رن جرس الباب ، انقلبت الأوضاع ، يقفز الشباب نحو الحجرتين وتقفز البنات نحو الصالون أو حجرتهن . نظمثن العجوز على النظام العام . تتأكد ثم تشرب شاياً وتحكي أيامها الخوالي وقصة والدها الذي مات مع الدفعات الأولى التي دخلت فلسطين للدفاع عن القدس وتخرج . ولم ترتاحي منها ومن نزلاتها إلا يوم وقعت صك الزواج مع صالح . كان مثلك عندما دخلت أول مرة هذه المدينة . يعيش حياة لم تكن موجودة إلا في دماغه .

مرغماً ، نظرت إليك بعطف ولا أدري أصلاً لماذا . وكم كنت تكرهين الذين يعطفون عليك .

المطر ازداد ضراوة في الخارج بينما كانت الحرارة تصعد من أقدامنا مثل الخيط الذي يزرع الدفء في كامل الجسد .

الحجرة دافئة في الداخل . لباس النوم البنفسجي الذي كنت ترتدين يلتصق بجسدك ، كان جميلاً حد الإبهار . وكنت كأني أكتشفك وأكتشفه للمرة الأولى . وقع الأمطار يبدل نظرنا للأشياء . غمزتك . كنت تبسمين .

نظرت إلى الفراش الذي ضمنا الليل بكامله . كانت أغطيته مبعثرة كالعادة ، تعطي الرغبة الملحة في العودة إلى النوم مع البرد الذي نخيلنا وجوده بالخارج .

شعرت بيديك ترتعدان وتعلو وجهك حمرة خمرة جميلة مثل هذا اليوم .

– هذا الجو يسحرني .

– كل شيء جميل يسحر . أحياناً نهزنا هذه التفاصيل الصغيرة أكثر من كل شيء .

– الحلم والجنون متشابهان . أحياناً أقول في خاطري ، لو كنت

عصفورا، لن أتوقف أبدا عن التحليق حتى الموت .

وفضلنا يومها أن لا نخرج وأنذكر أننا اندغمنا في الفراش كالخرف الواحد ونسينا كل المحيط الذي كان يأسر حركتنا .

- كم أنا في حاجة ماسة لكسر الغلاف الكاذب وإعادة اكتشاف الزوايا البكر في نفسي؟ خيرة الله يرحمها دارت في حالة . لم تطلب من الدنيا الشيء الكثير .

- الضيق والمنع يحولان الإنسان أحيانا إلى كيان مغلق . جميل أن يدرك الإنسان أن فيه أمكنة عليه حفرها لوحده وزوايا مظلمة لا أحد غيره قادر على اكتشافها .

ورأيت أنت نفسك عصفورة تحلق في الفضاءات الواسعة، وتبحث بين دخان المصانع والسيارات والشاحنات عن لحظة للتنفس بنقاء وبعثق .

المرء معك، يشعر دائما أنه يكتشفك من جديد .

قبل أن نتلوى داخل الفراش المبعثر همست في أذني .

- أتعجبي؟

ضحكت:

- يبدو .

- درك نوريك اللعب انتاعك وين يوصلك .

ثم صعدت على صدري . قبلتني . انحدرت قليلا بشفتيك الملتهيتين:

- أنا الآن فوقك . أشعر بقوتك . هل تعجبي هكذا؟

- أ... ح... ب... ك... هكذا أحسن . ألمسك . أحضنك .

أحس بك . أمامي وأراك في كل تحولاتك .

انزلقت شفتاك أكثر من العنق إلى الصدر وأنت تتمتمين:

- ابنة خالتي المطلقة تقول الرجل في بلادنا يشتهي عندما تكون

المرأة تحته. يشعر بقوته وهيمنته. تقول هذه وضعية حيوانية بحثة. وحدهم العشاق يمنحون فرصة تغيير المواقع لبعضهم البعض. تقول ابنة خالتي كذلك، كلما أحب رجل امرأة، منح لها فرصة النوم على صدره. - ابنة خالتك ليست مخطئة أبدا. حتى طريقة النوم وممارسة الجنس لا تخلو من فعل الهيمنة. يبدو لي أحيانا أن البشرية نفسها لم تسلك دائما الطرق الأكثر إنسانية والقريبة لا من غرائز الإنسان ولكن من عمقه الروحي الكبير.

- هي على الأقل كانت تعرف ماذا تريد أما أنا فكل شيء مرتبك ومختلط علي. أحيانا أجدني في أحضان نوال السعداوي فأزداد حبا لنفسي ولجسدي وأشتهيك وأحسب الدقائق المتبقية لأراك في الليل بكل حرية وفي أحيان أخرى يختلط علي كل شيء. أجدني بين يدي زينب الغزالي فأكره نفسي وأكره نوال السعداوي بل حتى أنت لا تنجو من كراهيتي لأنك تقودني نحو دروب جهنم.

- وما العمل إذن؟

- كما نرى. لا حول لي، بين يديك وعلى صدرك. أعرف أنني عندما أخرج من هذه السعادة سأبكي ندما وأشتعل حبا فيك من جديد. دورة مغلقة.

- لا أدري من قال هذا الكلام ولكن معه حق: عندما تدق السعادة على الباب، وفر لها مجلسا مريحا لكي تمكث أطول مدة ممكنة. للأسف، نحن نعمل كل ما في وسعنا لطردها من الباب.

- Je me force de faire abstraction de toutes mes peines, des fois j'arrive, d'autre je n'y arrive jamais malgré mes grands efforts.<sup>(13)</sup>

وطوال الصبيحة لم تتركي صدري. نمت طويلا كالطفل الصغير

---

(13) أبذل مجهودات كبيرة للتناسي، أحيانا أفلح وأخرى أفشل على الرغم من مجهوداتي الكبيرة.

حتى أيقظك كلاسون سيارة بائع المازوت. فقمتم لأفتح له الباب  
وتبعنني بعدها بخطوات مثقلة.

قبل أن نخرج انزويت وبكيت. لم أسألك لماذا ولكنني سحبتك  
نحوي واحتضنتك.

في الطريق حدثتني عن أمك وقلت إنك تشبهينها في كل شيء،  
حتى في طريقة ندمك. كانت مسكينة لو رفعت صوتها قليلا في وجه  
واحدة منا، تظل حزينة طوال اليوم حتى تبكي وتعتذر فترتاح قليلا. قتلها  
الغبين والسرطان. أشعر كأنها ماتت وحيدة وكان يمكن إنقاذها لو كنا في  
غير وضعنا وكان والدي حساسا تجاهنا قليلا. السبب كان تلك الخانة  
الملعونة في العنق التي كانت تعبت بها يوميا حتى نزعتها فتطورت إلى  
حبة سرعان ما تضخمت وانتفخت وصارت موجعة. عندما ذهبت إلى  
الطبيب، أعطاه دواء أحمر وقال مجرد بشور سرعان ما تحترق بهذا  
الدواء وتنطفئ. لكن الذي حدث هو العكس. كان السرطان قد أكل  
كليتها اليمنى لثموت ذات صباح وترتاح وترتكنا ينامي.

- يومها بكيت كطفل سرق منه ثدي أمه وهو في حالة جوع.

- الأم حنان لا يعوض. يبدو لي أحيانا أننا عندما نحب فنحن  
نبحث في الوجوه الأخرى عن الأم. أم أكثر جرأة، قادرة على الذهاب  
بحيها إلى أقصى الحدود ضاربة عرض الحائط بكل الموانع.

أصداء آلام أمك وصباحاتها تحفر ذاكرتك المتعبة وتعذبك كلما  
تحدثت عنها، لكنك في كل صباح تواجهك الحياة لتذكرك أنك ما زلت  
هنا وأن عليك أن تعيش. تحاولين النسيان. تنامين طويلا ثم تستيقظين  
هادئة وفي قلبك أشياء أخرى.

- أحيانا أقول لنفسي إذا لم أكن في حاجة لرجل يتحمل معي فقط  
عناء الذاكرة. الشخصان الوحيدان المستعدان لسماع تخريفي هما أنت  
وصالح.

- هاه؟ صالح؟ صالح يا الزين يا كحل العين.

- يزي من التمسخير. صالح طيب ولكنه مقلق قليلا. مخنث بعض الشيء ولكنه غير مؤذ. هو كذلك يبحث عمن يسمعه. عندما أكلمه تنقاسم الأدوار لنستطيع الحديث عن دواخلنا. أحيانا يضايقني بفتوحات عائلته المجاهدة والغنية والمالكة لنصف خيرات الغرب الجزائري. يؤلمني عندما يحدثني عن أمه التي ماتت في ولادته لدرجة أنه يشعر بعقدة ذنب. لا أدري مدى صحة ما يقوله، لكن تكرار الأسطوانة، يجعله ثقيلًا عليّ بعض الشيء.

- ومع ذلك أشعر أنه يبحث فيك عن صورة الأم ولكن كذلك المرأة التي يعشقها وربما يتزوجها.

- بوف؟ صالح يجب أن لا يؤخذ بجدية. كل يوم أسمع منه كلاما قريبا من هذا. لا يتجرا ولكننا نفهم بعضنا البعض. هو على الأقل يحاول، وحد الناس لم أسمع أبدا على شفاههم ذكر كلمة زواج؟  
- وهاذوك الناس شكون؟

- عارفين أنفسهم. تحب نقول بجمع... ؟  
- مفهوم.

- تعرف كم أشتهي أن أكون لك بكلي؟ أن أحبك أكثر؟ أن أنتظر في بيت نبنيه أنا وأنت فقط؟ أن أنجب منك نجمة أو سارة، ابنتنا المشتركة. لكن الظاهر أن الله سيرث أرضه ونحن ما زلنا نراوح أمكتنا الأولى.

- الزواج مسؤولية كبرى وإنجاب الأطفال مسؤولية أكبر.

قلت بمرارة ارتسمت في عمق عينيك :

- أنا كبرت يا صديقي. ثلاثون سنة ليست أمرا هينا في عمر امرأة.

- لماذا كل هذا الإصرار؟ شجرة البلوط كلما كبرت ازدادت صلابة وجمالا.

- ولكتني يا صاحبي امرأة ولست قطعة خشب وفوق هذا أحبك ولا أملك أي سلاح لمقاومة اندفاعي نحوك.

لم أتفاجأ كثيراً. فقد شاهدت في الأيام الأخيرة غيوماً هاربة. كانت تعبر بؤبؤ عينيك بذعر وحالة تثبت ظلت تتكرر معك باستمرار. بدأت أشعر بخوف من احتراق الأشياء الجميلة التي جمعتنا في مدينة لم نكن نعلم أنها تخبئ لنا أجمل المواعيد وأحلامها.

قلت لك :

– ما زلنا صغاراً على احتراف مهنة الزواج.

قلت وأنت تبحشين عن مرفأ لأحلامك وأشواقك وأحزانك المرتبكة :

– لنجرب، فنحن لن نخسر إلا الأسئلة الفارغة.

– المسألة أعقد من هذا التصور.

– تخاف.

– لست في وضعية تؤهلني لأن أكون زوجاً.

– وأنا سني يريكني. صرت أخافه. لننزوج ونسافر أينما شئت. نقطع العالم ولا نلتفت وراءنا، لكن قبل ذلك أريد أن أكون المرأة التي تستحقها وتستحقك. زوجتك التي إذا نامت معك في نفس الفراش لا تقضي كل الوقت وهي تتحابل في متعتها معك كيف تتفادى الحمل وكيف تقنع عائلتها في الصيف بأن ما تحمله لها يتجاوز الصداقة وأن نوابك في الزواج كبيرة.

لست أدري من كان يتكلم فيك، أنت، مريم التي أعرفها والتي تحاول أن تكسر أصفادها، أم أختك خيرة التي انتحرت ولا أحد يعرف لماذا؟

وأقنعتني في ذات اليوم أنك من سلالة سيدي عبد المؤمن بوقبرين وأن بلدتك قاسية ولا ترحم. الكلام الكثير يؤدي. وأنت تريد أن تكوني أنت وتعيشين مثلما تشتهين وأن حريتك مرهونة بالخلاص من هذه المعضلة التي لم تعد بالنسبة لك مقنعة ولكنها مثل الدواء المر، نشره لكي نتحرر من المرض، أما هو في حد ذاته، فلا معنى له. سنك

يرهبك، فعمر المرأة ليس مثل عمر الرجل. السنوات تزحف. والواقفون في الطرقات، عيونهم لا ترحم والخطاب كثيرون، البعض نصابون والبعض الآخر محتالون والقلة القليلة طيبة القلب ونواياها صادقة. في كل صيف، عليك أن تبرري لكل القبيلة عن رفضك أبناء العمومة؟

- لتزوج وننجب طفلة نفتحم بها المدن الجميلة. ستفقدنا جميعا. أنا ممثلة بها. أريدها منك لأنك حبيبي.

- لا أدري إذا كنا على نفس الموجة، ولكنني عاجز أن أكون زوجا كاملا. أخشى أن تكرهين حياتك معي.

- يا خويا كن زوجا ناقصا، ولكن على الأقل كن زوجا.

ونفترق على مشاحنة صبيانية. نرتمي في الفراش في وقت مبكر، كل في زاويته وفي الصباح الموالي نكون أكثر التصاقا من أي زمن مضى.

صار ما يحدث لنا مثل الطقس الضروري.

شيء مبهم كان يملأ حياتنا لم نكن قادرين على فهمه ولا على مقاومته، مثل التيار، كان يجرفنا أحيانا نحو الوديان العميقة وفي أحيان أخرى يجرفنا نحو أمكنة لا نعرفها بعد أن يلعب بنا مثلما يشتهي.

أرجوك توقف قليلا، لقد تعبت.

أقبل أن أدفع الثمن في صمت ووحدة ولكن أرجوك لا تحملني شقاوة الدنيا كلها؟ لا أستطيع. لقد صرت هشة جدا ويمكنني أن أصاب بالمعطب المزمّن بسهولة. أنا لم أطلب منك سوى أن تجمع مصائرك الصغيرة ولكنك اخترت طريقك مثلما اخترت أنا داخل الضيق والعبث الذي لا معنى له على الإطلاق.

عتابك يقتلني ويعذبني. يا ربي كم أحبك وكم تبدو بعيدا. ماذا يحدث فيك؟ ألم تكن أنت من اختار هذا القدر؟ تختار قدرا ونستدرجني فيه لتسهل محاكمتي؟ ألم تكن أنت من فضل ارتكاب هذه الحماقة ضده وضد نفسه وضدي. كلامك يقتلني. يعذبني وسأجن إذا استمرت الحالة على ما هي عليه. فأنا لا أملك حبالك إلا الحب والجنون. ولكن خياراتي الآن صارت معدومة. فقد وضعت نفسي داخل موت محتوم علي أن أقاومه أو أنسحق فيه. أنت غادرت فيلا الإطفائية منذ الإعلان عن زواجنا أنا وصالح، ونحن كذلك انسحبنا من المكان. صالح يريد أن ننسى حياة العزوبة وأن تنفرغ لحياتنا الزوجية. ربما كان محقا. أريد أن أنساك لأرتاح منك دفعة واحدة. لست أدري كيف سلمت الورقة الأولى لجنبا لتوصلها إليك. كان يجب أن لا أفعل ذلك. وها أنا قد انغمست في دوامتك من جديد. قالت لي سيلفيا إنها تعرف مكان إقامتك في حي

ساروجا، لكنني لا أريد أن أعرف لأنني أدرك سلفا أنني إذا رأيتك لن أستطيع مقاومة. سيلفيا تحبك كثيرا ولهذا لا تترك فرصة إلا وذكرتك بإعجاب لو لم أعرفك لقلت أنك أنت من كلفها لكي تقول ذلك الكلام. مليح أنني أبذل مجهودات مضاعفة لكي أنفادك في الجامعة فلا تطلب مني المستحيل وإلا ستضطر إلى دفني حية. غيابك يقتلني والحماسة التي أنا فيها تجهز على ما تبقى من عقلي.

حبيبي. أقولها لأنني لا أملك غير ذلك. حبك يشلني ويقهرني. أنا كذلك اليوم أشعر بالقرق، من نفسي أولا ومن كل ما يحيط بي. هل يعقل علي أن أتحايل على نفسي لكي لا أراك وأنا أتحرق داخليا فقط لأثبت لمحيط معتوه ومنكسر أنني الزوجة المثالية؟ لست الزوجة المثالية ولا أريد أن أكونها. هذه المثالية السخيفة تقتلني. لكن وحياتك، فأنا أريد أن أنساك. ما جدوى هذا الشطط الذي لا معنى له؟ أشعر باضطراب كبير. لم أحاول اليوم رؤيتك في الجامعة ولكنني اكتفيت بفعل ذلك من بعيد وأنا لست سعيدة من نفسي. في هذه الفترة أمر بظروف صعبة يطول شرحها. صالح صار صعبا وأنا لا أطيق كل هذه القيود. الله غالب، هذه هي أنا وهذا هو طبعي. أعذره أحيانا لأنه يعيش مع امرأة لا تستطيع حتى أن تبادله شيئا من التفاق العام المتفق عليه. لا تعبت علي إن لم أكتب لك. سودت كلمات كثيرة ولكنني فشلت في تبويضها. وكلما تذكرت حماقتك أتمنى أن أحرق كل شيء بما في ذلك قلبي. لماذا تصر دائما على إيقاظ جروحي؟ أنت مجنون. الوقت بل الحياة نفسها لم تعد ملكي. أن تمسك قلما وتخط جرحا على الورقة معناه أن تملك قدرا كبيرا من العزلة والجراحة وأنا اليوم يا حبيبي خسرت أهم شيء في، جرأتي. قلبي الذي ينبض على وقعك لم يعد يتيح لي فرصة الكتابة. إنه يغار منك علي.

الشريط الذي بعثته لي مع سيلفيا كان مذهشا. من أين تأتي بكل هذا الذوق؟ يا بختك؟ ما أفسى قلبك علي وعلى نفسك؟ أنت تؤذي بحماقاتك التي لن أغفرها لك أبدا. سجلته ولكن التسجيل كان رديئا.

شعرت بحزنك من المحيط الذي يعاتبك على خياراتك الحياتية، لا تهتم، الناس دائما هكذا. يبحثون عن كل شيء يلصقونه بالآخرين. الغيرة هي التي تحركهم. الغيرة والإحباط والأناثية.

أرجوك لا تزعل من ردي البارد، فأنا حزينة ومتكسرة. عندما أروق سأكتب لك عن كل هذه التفاصيل. لا أقول لك شكرا فأنا أعرف عواطفك وأعرف ما أعانيه من أجلك. لا تسألني عن حبي لك، فأنا دفعت نفسي نحو الموت والحدق والضعف من أجلك. أفكاري مشتتة. مجرد عاصفة وستمر.

كن كما أشتهيك أن تكون، رجلا لا تتبعه متاعب الضباب والظلمة، في الأفق دائما شيء آخر، ألم تقل هذا وأنا أضع رجلي على العتبة للمرة الأخيرة؟

تمنيت أن لا أكتب شيئا لأنني في حالة لا تسمح بذلك وها أنذي أكتب ولست راضية عما كتبت.

أغفر لي هذا الأسلوب المرتبك والذي يشبهني في كل تفاصيلي، ليست هذه لغتي ولكني لم أجد سبيلا آخر للصراخ في وجه صمتك إلا هذه الكلمات القليلة التي قالت ما لم أشته قوله.

مريمك الحزينة دوما، التي تتمنى أن تعضك لتستيقظ من غفوتك.

فجأة توقفت عن الحياة .

توقفت عن القراءة نهائيا . دروس الجامعة لم تعد تشغلك كثيرا .  
حتى الكتب التي أهديتها لك ، وضعتها في أعلى درج في المكتبة  
حتى لا تضطهدك بحضورها وحاولت أن تشغلي أصابعك بأي شيء  
آخر .

سألتك في ذلك المساء وأنت تهيين حقبتك للذهاب لا أدري إلى  
أين؟ كانت أشياءك الصغيرة مبعثرة والأفق لم يكن به أي خيط أزرق ولا  
بنفسجي :

- واش بك؟

- مانيش مليحة .

كنت أظن أن نقاش الصباح لم يرق لك .

عندما نظرت إلى وجهي ، كانت ملامحك متقلصة وبعثة في صوتك  
الذي كان دائما صافيا وواضحا . فكرت فيك وعما يدور برأسك . خفت  
عليك من حماسة ترتكيبها في حق نفسك .

كنت حزينة كمن يكتنم ألما قاسيا في أعماقه .

- أنت لا تحب إلا نفسك ويجب أن نفترق . نحتاج إلى شيء من  
العزلة لنتمكن من البحث في أعماقنا هل ما زلنا نحتاج إلى بعضنا  
البعض .

- مريم؟ واش بك؟ ماذا حصل؟ أنا لم أعد أفهم هذا التصرف المفاجئ. يتبعك ويتعبنى.

- تفاديا لذلك في المستقبل، لياخذ كل واحدنا منا طريقه ولو مؤقتا. مليح للجميع.

- أحب نفسي؟

- كلام فارغ. أنا لوحدي مهبولة.

- هذا غير مقنع؟ أريد أن أفهم ما الذي غيرك بهذا الشكل.

- قلت لك. يبدو لي أحيانا أنك لا تحب إلا نفسك. لا تفكر فيما يمكن أن يحصل لي بعدك؟

- بعدي؟ نحن مع بعض؟ ماذا حصل؟

- راسك خشن. راح نقول لك وأرجو أن لا تعتبر كلامي فارغا. العادة تأخرت هذا الشهر وهذا يقلقني كثيرا.

- وهل الأمر مهم إلى هذه الدرجة.

- حظ روحك في مكاني وراح تشوف. ماذا يحصل لو أحمل منك؟ مجرد فرضية.

- حذرنا بشكل كامل.

- Le risque zéro n'existe pas. Suppose.<sup>(14)</sup>

- سيكون ابني والسلام. وسأكون معك ومع نفسي في هذه المحنة إذا افترضنا أنها محنة. ولكن، هل هذا يدعو إلى كل هذا الحزن وهذا القلق.

- كل هذه الأعصاب الباردة وكأن الأمر لا يعنيك مطلقا. أتمنى أن تستيقظ ذات صباح وتجد نفسك فجأة امرأة حاملا وتشوف فقط ماذا يعني ذلك؟

---

(14) اليقين المطلق غير موجود. لنفترض.

- أنت تبالغين. حتى الآن هذه مجرد احتمالات. التحليلات هي التي تبين الحقيقة. قد يكون ذلك مجرد تأخر للعادة الشهرية.

- تبسط كل شيء. كنت أريد منك صبية ضمن ظروف أخرى غير هذه، أحسن وأفضل.

- لم نصل بعد إلى هذه الوضعية.

وأصررت أنك حامل مني. لم تغادرك حالة الاكتئاب حتى ونحن نعبّر عتبة عيادة الطيبية النسائية. الدكتوراة عواطف الحفار. زرتها مراراً عديدة ونحن من زبائننا الذين تحبهم كثيراً. آخر مرة كانت عندما شعرت بتقلبات في بطنك مثل اليوم تماماً.

حينما فحصتك، بدا لها رحمك منتفخاً على غير العادة. نصحتك ببعض التحاليل و بانتظار أسبوع على الأقل قبل العودة إليها وبضرورة تناول بعض الأقراص.

تشوه العالم قاطبة في عينيك وبدا لك أن الدنيا مقدمة على انفجار كبير لعدم الحياة على وجه اليابسة. رأيت كل شيء يتهاوى ويموت. الناس. الأشجار. الحيوانات. الأفكار. الكل يبس وصار خطباً ميتاً. حتى العصافير التي كانت توقظك صباحاً، ماتت شذوها. جف دم الأبطال والحكايات القديمة التي كانت تأسرك وتلاشى حليب الأمهات اللواتي أصبحن كأشجار الخروب العتيقة.

ولم ترتاحي إلا عندما استيقظت ذات صباح تحت تأثير رائحة دم العادة الشهرية التي كانت تقرفك وتجعلك تكرهين جسدك والدورة ومتاعب آلامها.

صحت بأعلى صوتك من عمق الغرفة:

- هورا... هورا... أخيراً.

- هه.. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

- الفطازيا والإيمان.

- الحمد لله اللي جات سليمة وإلا كارثة.

وتسرب الليل الذي كان يملأ دماغك فجأة. وعادت عيناك إلى اتساعهما. وتحرك الدم بكثافة على وجهك الخمري. حركتك ونطك. أخيرا وجدت مريم التي عرفت لأول مرة وهي تستفزني محاولة أن نضعني في الزوايا الضيقة.

ضحكاتك على انكسارها المفاجئ، عادت. وأقسمت بكل ثقة أنك في المرات القادمة ستحتاطين من تبعات الحماقات السريرية. ستحذرين حتى لا تضطرين إلى العيش على أعصابك، أسبوعا بكامله. وستلجئين إلى الحساب كما تفعل النساء المتزوجات. الحبوب نصحوك بعدم استعمالها. فقد ورثت عن أمك الابتناسات التي تتكسر بسرعة على شفئك ومرض القلب والخوف من برودة الأشياء.

وعادت حكايات سيف بن ذي يزن تسري في دمك وتملأ قلبك وذاكرتك المثقلة.

- تعرف؟ شامة تزوجته وهي صغيرة.

- الأشياء تغيرت كثيرا منذ ذلك الزمن.

- لكن الإنسان هو هو، لم يتغير كثيرا. ما يزال يأتي إلى هذه الأرض زائرا ثم يعود وهو لم يفتح بعد عينيه على الدنيا.

- هذا جدل بدء الخليقة. ماذا نستطيع أن نفعل سوى العمل على جعل هذه الحياة أمرا يطاق ويُحتمل.

- صالح يقول إنه مولع بي ويشعر أن علاقتي بك علاقة غير جدية. في البداية كان يعطيني الانطباع بأنه يمزح لكن مع الزمن تأكد لي أنه لم يكن كذلك.

- شغلته: الأفضل له ولنا جميعا أن يبقى في مكانه. في المرة الماضية سألتني عن مدى جدية علاقتنا لأنه يريد أن يطلب يدك. يروح يملح على راسه.

قلت له: عفني يرحم والديك، لست والد مريم. تريدها، أطلب يدها منها. مريم كبيرة وتعرف شغلها.

- وماذا قال لك؟

- بكل غباء، قال إنه سيفعل.

- فعل. طلب يدي ويبدو أنني سأقبل.

ارتبكت. لاحظت مريم الهزة العنيفة التي أحدثتها فيّ على الرغم من أنني لم أظهرها. كدت أصرخ: أنت بالفعل مجنونة، أي واحد ما عدا صالح؟ أنت نفسك غير مقتنعة به؟ لا أدري كيف لطفت كلامي ووجدت المفردات اللبقة.

- أنت تمزحين؟ وحياتنا؟

شعرت بها تركب رأسها وكأنها وجدت الورقة المناسبة. كنت على يقين أنها كانت تتحرر على طريققتها.

- يا حبيبي، يبدو أن كل شيء ضدنا بما في ذلك نحن. الآفاق مسدودة. هذه الحياة لا أستطيع تحملها. تتجاوز قدراتي العقلية المتواضعة. صحيح أنه في بعض الأحيان يتصرف كرجل أبله ولكنه ليس سيئا. أراهن على تغييره وتطوره.

- Ma parole je n'arrive pas à croire mes oreilles.

- Je crois que la vie est ainsi faite.<sup>(15)</sup>

كنت أدرك جيدا قسوة الحالة التي كانت تأكلك من الداخل ولكني لم أكن قادرا على فهم ما كان يؤجج أحقادك الصغيرة وحرائقك واشتعالاتك المفاجئة. كلما حاولت وجدنتني على حافة الأسئلة المستعصية.

لم أنم ليلتها.

أدركت أنني كنت مرتبكا. أليس الارتباك هو أقصر علامات الحب وأكثرها بروزا؟

---

(15) - وحياتك لا أستطيع أن أصدق ما أسمعه.

- يبدو لي أن الحياة هكذا.

سألتني :

- أعذرنني . لقد تعبت وأتعبتك معي . لم يعد ما بيننا حب ولكن قسوة متكررة علينا تحملها .

- يا مريم أنتِ أدهشتني بقرارك . ألم يكن من الأفضل الانتظار قليلا . ما زلنا صغارا لدخول غمار هذه المسؤولية .

- ثلاثون سنة . لم أعد صغيرة . على الأقل بالنسبة لي . أنت حر في خياراتك الحياتية .

- تسدين الأبواب هكذا .

- الأبواب غير مسدودة . يكفي أن تدفعها أنت بالذات برأس أصبعك الصغير لكي تنفتح . ولكنك لا تريد وأنا لم أعد قادرة على تحمل كل هذا الشطط .

وبتنا تلك الليلة كل واحد في القارة التي صنعها من الخيالات والقلق والخوف والأزمة المنكسرة .

عندما غزرت عينيك المائلتين رأيتُ كارمن بكل توحشها.  
وضعتِ الحقيقة عند الباب. وقفت قليلاً ثم التفتُ نحو الحائط  
المواجه للمساحة العامة حيث يركض الأطفال عادة.  
التفتُ نحوي ولم تقولي شيئاً.

هذه المرة كنتِ مصممة. حملتِ حقيبتك وقلتِ إنك لن تعودى.  
عندما تركيبين رأسك لا شيء يوقفك ولا أحد يقنعك.  
حديث الليلة كان قاسياً. كلانا بقي داخل جزيرته. أنتِ جعلت من  
الزواج حالة انغلاق كلي وأنا حررتي كانت البدء والمنتهى. كل واحد منا  
وهو يتكلم، كان يصغي إلى نفسه أكثر مما كان يستمع إلى الآخر. كل  
في عالمه بعد أن سد وراءه الأبواب والنوافذ وحتى المنافذ الصغيرة.  
في لحظة من اللحظات شعرت بك تختبرينني فقط أما قراراتك  
كانت قد اتخذت من قبل.

قلت:

- أعتقد أنني كنت عمياء، فهو يحبني.  
- صالح؟ ربما. لكن احذري. هؤلاء الناس يشتهون أكثر مما  
يحبون. صالح ليس حالة شاذة أبداً، جزء صغير من نظام معقد.  
- سنتزوج قريباً. وهذا هو المهم. تعبت وكبرت.  
- إعط لنفسك بعض الوقت لمعرفة على الأقل.  
- الوقت في غير صالحى. قرارى اتخذته. إذا غيرت رأيك  
ستجدينى أمامك.

شعرت بجرح يُرسم في الأعماق. ردي كان باردا. الغريب أنني لم أوقفك عند خروجك. كان علي ربما محاولة إقناعك والعودة إلى الحديث بدل تركك تخرجين هكذا من حياتي. ربما كنت غيبا، ومن قال المحب ذكي؟ لو كان كذلك لانتهد كل القصص الإنسانية بشكل جميل وسعيد. ولأننا محملون بقدر كبير من الغباء، لا نرتاح إلا إذا كسرنا أجمل الأشياء فينا.

- على كل حال، حياتك وأنتِ سيدة الشأن.

- لنفترض أنني تزوجت صالح واش راح بصير؟

- هل فكرت جيدا في ضخامة المسؤولية التي ستحملينها؟

- واش من مسؤولية؟ يا حبيبي، وهل تظن أن حبك كان سهلا علي؟ أنت لا تعرف شيئا مما قاسيته مع الناس والعائلة. واش راح بصير يعني؟ سأطلقه إذا لم نتفق.

- هكذا، بكل بساطة؟

- هكذا. ولا شيء غير ذلك. عندنا في البلدة، المطلقة أحسن بكثير من البائرة. أرفض أن أنتهي باثرة. اطمئن، سأكون المسؤولة الوحيدة عن خطي ولن أخرجرك ورائي.

- أدرك أن الخيارات صعبة. ولكن لماذا تحشرين نفسك داخل وضع قد ترفضينه بعد أيام. إعط لنفسك على الأقل بعض الوقت. لا ضرر في ذلك.

- كل الزمن الذي مضى، لم أفكر في شيء غير ذلك. أنت اتخذت قرارك لأنك واضح مع نفسك وعلي أن أتخذ قراري.

في داخلك كانت تتذبح الأزمنة الفائتة وأمواج البحر التي تأتي من أبعاد سحيقة لتتمزق فجأة على صخور الشواطئ المعزولة. لم تنامي جيدا. كان وجهك مرهقا بالخيبات والكوايس والظنون والارتباكات التي لم تكوني ترين لها حلولا.

عند العتبة وقفت قليلا. نظرت إلى وجهي مليا، لم تقولي شيئا.

قبل أن تخرجني انزلتني مني بعض الكلمات الهاربة التي لم يكن لها أي معنى إلا طعم الخوف والعزلة والفداحة :

- هكذا تذهبين . هل فكرت جيدا؟

كدت أقول لك : إبقى أرجوك . أحبك . ولكني لم أقل شيئا . ماذا كان سيحصل لو فعلت ذلك؟

- أنا أذهب لأنني فكرت جيدا . تعبت وأتعبتك معي . يبدو أننا نفكر بنفس الطريقة ولهذا من الصعب أن نتفق حتى على الحد الأدنى .

- ليكن . في الأفق دائما شيء آخر .

وسبقتك إلى الخروج منكس الرأس . ولكنني بحركة عفوية كسرت الكأسين اللذين تعودنا أن نشرب فيهما العرق ووطئت الشمعة التي كانت شاهدا حيا على جنونا .

رأيت قطع الزجاج المبعثرة والشمعة المنكفئة . لم تمدي يدك نحوها ولكنك خرجت بسرعة بدون أن تلتفتي ورائك .

كنتُ على يقين أنها في نهاية المطاف حالة جنون مثل تلك التي تعودت عليها وستعودين إلى حالتك الطبيعية . عاصفة وستهدأ . قلتُ في خاطري ، هذه هي مريم ، قلبها طيب ولا تسلك في نهاية المطاف إلا الطريق الصحيح .

في المساء عندما عدتُ لم أجذك .

مريم لم تعد مريم .

تذكرتُ جمعتي المرتبكة ولا أدري ما الذي ذكرني بها ولا الدافع الذي قادني لقولها :

«في الأفق دائما شيء آخر .»

لم أبك ولكنني رغبت في ذلك .

لم أحمل شظايا الكأسين ولم أشعل الشمعة المنكفئة .

كان كل شيء قد انتهى .

لم أرك على الرغم من أنني سألت عنك كثيرا.  
بعد يومين لمحتك في مقهى الجامعة. كنت منعزلة في زاوية،  
تظلمك الإعلانات الإشهارية السياسية وبعض الكلمات من خطاب الرئيس  
الموجه للشبيبة، كتبت بأحرف حمراء بارزة. لا أدري إذا كنت شعرت  
بسعادة وأنا أراك أم لا؟ ولكنني وجدت نفسي، بدون إرادة مني، أتجه  
نحو الطاولة التي كنت تجلسين فيها منفصلة عن كل المحيط الذي كنت  
فيه.

- مريم، تسمحين.

لم أكن أصطنع، فقد شعرت بك بعيدة كل البعد.

- نحن أصدقاء على الأقل، ليش تقلبها غم هكذا.

- لم تدخلني إلى البيت؟ هل الأمر يستحق كل هذا الزعل؟

- أبدا لا يوجد أي زعل. أنا في وضع صعب وفي حاجة إلى  
الابتعاد قليلا لأجد نفسي. لا تشغل بالك، أنا بين إيد أمينة، تحبك  
وتحبنى. أخذتني سيلفيا، صديقتنا إلى بيت أهلها. طيبة وحزينة  
لوضعيتها مع عيد عشاب وللوضعية التي آلت إليها علاقتنا. ويبدو لي أنا  
نعطي للعناية أكثر مما تستحق. الدنيا بنت كلب، لا تستحق منا كل هذا  
العناء. لناخذها كما تأتي والسلام.

في لحظة من اللحظات، وأنتِ تلتفتين نحوي. رأيت انكسارك.

رأيت البنت التي قامت في عمق الليل نحو المكتبة ومزقت كل الكتب التي عليها اسمها. مزقت ألبوم الصور. أوقدت النار في الذكريات الجامعية دفعة واحدة. بان لها لينين رجلا يبيع الطماطم الفاسدة في سوق مهجورة. وبان سيف بن ذي يزن دونكيشوتا مترهلا يمشي على حمار عجوز، يغزو بسيف من حطب جثثا تفسخت على أجنحة الطواحين الهوائية.

كانت لحظة التشوه قد بدأت تنشب أظافرها في دماغك.  
قلت في تلك الليلة، إنك لم تفهمي نفسك. وإنك شقية وبئسة لدرجة لا يمكن تصورها.

- والله صرت أخاف أن أنتحر ذات يوم.

- وهل هناك ما يستحق هذا كله؟

- ربما لا ولكن هذا هو الوضع العام.

قلتُ مهما يكن، صالح ليس رجلا سيئا. وسيحل لك مشاكلك العاطفية المستعصية. فأنت يتيمة وعائلته من الذين يحلون ويربطون وأنت تعبتي ولم تعودتي مستعدة لمزيد من المتاعب والشقاء.

- سأتزوجه، أخبرته بذلك البارحة.

- قرارك الأخير؟

- وهل هناك مخرج آخر؟ كان يجب أن أقول له أحاسيسي بدون كذب ولا مداراة. فقد قبل بكل شروطي ولم يسألني عن أحد. حتى علاقتي بك لم يتوقف عندها كثيرا. قال بطريقة لامبالية: حياتك وماضيك ولا شغل لي بهما، ما يهمني هو ما يجمعني بك بدءا من هذه اللحظة. كان متزنا في كل كلامه.

بدأت الطحالب والأشجار الناتئة وأشواك السدرة تنبت فيك. في خفاء ما، كنتُ أحاول عبثا أن أستعيد وجهك الذي بدا لي مخروما من آثار حفر الجذري التي تعمقت حتى أصبحت مثل الأخاديد.

وحتى عندما عدتُ إلى البيت بعد أيام، انزويت في حجرة ماسة

التي ظلت مغلقة منذ استشهادها في بيروت وهي توزع جريدة المعركة .  
أمضيت فترة لا تحدثين إلا نفسك وانكساراتك أو سيلفيا التي كانت  
تزورنا من حين لآخر أو تسأل عنك باستمرار .

لا تكلمين أحدا من الزملاء . في كل مرة ترفعين رأسك نحو صورة  
ماسة مع صديقها فوده، الفلسطيني الطيب التي كبرتها وعلقتها أياما قبل  
أن تلتحق به في بيروت . تنظرين إليها مليا ثم تغرقين في التفكير بدون  
القدرة على الحديث مع أي واحد من الأصدقاء .

عدت إلى تلاوة القرآن بصوت خافت وإلى الأساطير القديمة وإلى  
سحنة البطل الهمام سيف بن ذي يزن والسيد علي ورأس الغول وإلى  
حرب البسوس وإلى ما قاساه الهلاليون من الأهوال والمغامرات  
والمعارك والهوى والغرام والمكايد والحيل في رحلتهم إلى تونس .  
تسهرين على غير عادتك في الصالون حتى ساعة متأخرة من الليل .

كل الأصدقاء عرفوا المشكلة ولا أحد استطاع أن يتدخل .

كنت حينما أقوم ليلا، أفاجا بك منكفئة على وجهك، في لباس  
النوم الأخضر المخملي . جالسة، مأخوذة بتفكيرك في فراغ ما؟ تتناهي  
الرغبة لأخذك من يدك وتنويمك على صدري ولكني كنت أخاف من  
رفضك وتحريك مواجعك . أكنم آلامي وأحاول أن أنام عبثا . كان العد  
العكسي في حياتنا قد بدأ .

وبدأت أفكر جديا بمغادرة المكان في أقرب الآجال . لم أكن قادرا  
على رؤيتك مع شخص آخر . ربما كانت أنايتي هي السبب .

افتقارك لم يكن سهلا . تبدأ الحرقنة تنمو في القلب كالبركان وتعود  
كومة التساؤلات القديمة التي لا تنتهي، تتحول إلى حلقات سلسلة ثقيلة  
تكبل الجسم تكيلا مانعا لكل حركة .

أتذكر يومها أنني في خلوة ماء، مزقت أنا كذلك كل الكراريس  
احتجاجا على نفسي وعلى طيبي وعلى ارتباكاتي . شعرت بغبن كبير أمام  
حماقة لم أكن قادرا على مقاومتها . وضربت على الباب بقوة كالذي

يطلب نجدة ولا أحد يسمعه. وفي الأخير شرعت النوافذ عن آخرها قبل الاختناق. وحين عدت إلى وعيي حاولت أن أعيد ترتيب كل الأشياء من جديد. جمعت قصاصات الكراسيات التي مزقتها واحدة واحدة. قضيت اليوم كله وأنا أحاول عبثاً أن ألصقها مع بعضها البعض. كانت حالتي مضحكة، رجل يمزق ثم يجمع ما مزقه. لعبة؟

ماذا صار في؟ هل انتهى كل شيء؟ هل هي العلامات الأولى للجنون؟ لم أسأل كثيراً، خفت أن تقودني أسئلتني نحو الحقيقة المرة التي بقيت طوال عمري أتفادها. شعرت بكآبة ثقيلة على قلبي. تذكرت كلمات قديمة لشاعر مات ورغوة الجنون ما تزال في فمه.

«احذر. لا تخاطر مع الحقيقة. اكتف بما لديك من جزئياتها، حينما تعرف الكل، لا شيء ينفذك من حتمية الجنون.»

كنت أحبك. وأقاوم عبثاً السيلاوات الجارفة التي كانت تزداد اتساعاً في داخلي، مدمرة في طريقها كل ما كانت تصادفه.

رأيت العيون الرائعة التي كانت تستسلم لقاتليها ورأيتني أبله، يسأل الناس عن اسم هو نفسه كان عاجزاً عن نطقه باستقامة:  
مريم... مريم... مريم...

ماذا حدث؟

«باب قطومة: لا شيء. ورأس جدي المختار التبسي، لا شيء. البارحة سيلفيا خرجت زعلانة. أولاً لأن والدها يريد تزويجها في الصيف القادم فاقترحت علي أن نهرب، ثانياً لأنها منشغلة بدروسي لأنني أهملت كل شيء. واقسمت أن لا تعود حتى نهاية الامتحانات. لهذا قمت هذا الصباح منهك الأعصاب والقوى وذهبت عند عادل لأذاكر معه حتى الساعة العاشرة والربع وأذهب بعدها إلى مركز بورسعيد للامتحانات. كانت مادة الامتحان هي العلوم العامة والصحة. كنت خائفاً منها لأنها هي التي تقرر مصيري. لم يكن الامتحان سهلاً ومع ذلك أجهدت نفسي من أجل إرضاء سيلفيا. في المساء نزلت إلى رابطة طلاب المغرب العربي. لا رسائل مطلقاً، لا من الوالد ولا من سهام المغبونة. وأنا أغادر

المكان وإذا بقطومة تناديني. كانت مع اختيها. طلبت مني أن أصحبها نحو البيت لأن شبابا كانوا يتحرشون بهن، فلم أرفض. كانت قطومة جميلة جدا...جدا...جدا...لكن مخها لم يتغير كثيرا. كنت أحيانا أرمي يدي على ظهرها وفي أحيان أخرى أتركها تنام في حضن يدها. كان كلامها دافئا ولو أنني لم أفهمها جيدا وهي تسألني عن سيلفيا:

– مسيحية والمسيحيات وأعرات.

– حتى المسلمات ما عندك ما تقولي فيهن.

– أنت تسخر ولكن المسلمات تكتفين برجل واحد. شوف مثلا سهام أحببك من كل قلبها ولكنك لم تلتفت لها.

– سهام إنسانة غالية علي. لا أنا تركتها ولا هي تركتني. لسهام فلسفة خاصة في الحياة، اختارتها بكل وعي وربما من القليلين، إذا لم أكن الوحيد الذي يعرفها. ثم من قال إن المسيحيات تركضن وراء عشرين رجلا؟

– دينهم الذي شوهوه يسمح لهم.

– كلام فارغ.

– أنت في حصة. لن يزوجوها لك إلا إذا تمسحت وإذا تمسحت يصبح دمك مباحا عند المسلمين لأنك ستعتبر مرتدا. هذه هي قوانيننا ما عندك وين تروح يا المجروح.

– يا روبي، أعرف أنك امرأة تشتيهك كل الأعين التي تراك. لكن، هل جربت أن تحبي بصدق وجنون؟ مستعد أن أصير أي شيء من أجل سيلفيا، الله غالب. أتمسح أو أتهود، غير مهم.

– كبيرة هذه يا عيد. مع ذلك، قلل من سكرك. العرق يؤذي صاحبه ولا يرتاح إلا إذا قتله.

– وبين المشكل؟ كلنا ذات يوم، سنذهب وراء تلك السحابة الغامضة التي يسميها الجميع الموت.

أتساءل أحيانا، لا أدري من الصق هذا التخريف بأذهانتنا في بلادنا؟ كل من ليسوا مثلنا فهم أعداء لنا وأن المسلم هو الوحيد في الدنيا المالك

للحقيقة المطلقة وما عداه مخطئون مظلّون؟ الفنطازيا والجهل. لكن لفظومة حس آخر، صوته المضملي الرائع. كانت مثل ماسة لا ترتاح إلا إذا نامت على هدهدات فيروز. كانت لفظومة تحيي كل الحفلات الطلابية وظلت تحلم أن تدخل التليفزيون ولكنها مع الزمن يئست وأجلت كل شيء لما بعد فترة الدراسة.

ونحن نعبّر الشارع الأخير المؤدي إلى بيتها بدأت فجأة تدندن أغنية لفيروز: ورقو الأصفر شهر أيلول تحت الشبايبك... حفّزتني. كانت تعرف أنني أحبها. صوتها النادر، يدخل الأعماق بسرعة.

في الطريق عرفتني على اسمي أختيها ولكنني نسيتها بسرعة ووعدتني أن تزورني وأن نسهر مع بعض في أقرب وقت.

– والله راح نجيك. حتى أنا قلبي معمر بالهم. حابة نحكي معك ونغني مثل أيام زمان. ربما... الأسبوع القادم إن شاء الله.

– أن شاء الله. يا يما؟ صوتك يهبل.

– فقط؟

- Une façon de parler, si non tu es magnifique.<sup>(16)</sup>

من أجل لفظومة التي أشعرتني بوجودي، كتبت هذه الصفحة حتى لا أنسى أبدا أمسية الصدفة هذه وأتذكر وعدها.

من أوراق عيد عشاب.

ماذا يحدث عندما يخذلنا يقيننا؟ عندما نتوقف في منتصف الطريق ونتذكر فجأة أننا نسيتا شيئا مهما فنعود ركضا نبحث عنه وعندما نصل لا نجدّه؟ ماذا يحدث عندما يمر حبنا عاديا ورتيبا أمام أعيننا لأننا نعيشه ثم فجأة عندما ينطفئ نـشـر ليس فقط بعمق الخسارة والفقدان ولكن العزلة ولا جدوى الحياة؟

الآن لا شيء في اليد ولا في البيت. الذين كانوا هنا مضوا، وبقيت

---

(16) - مجرد كلام وإلا فانت مذهلة.

وحدي أتأمل هذا السقف العالي لبار محطة الكرنك الذي يرتاده المسافرون عادة، الذين يأتون من الأطراف أو من مدن الجمهورية البعيدة، يشربون كوكا أو كأس عرق، يرتاحون قليلا، يقضون مغامرة الرحلة على بعضهم البعض بمزيد من الحماس خصوصا في هذه الأيام حيث الطرقات لم تعد سالكة منذ حادثة المدفعية في حلب وتبعاتها حوادث أخرى كتلك التي وقعت بالأزبكية والتي روعت البلاد واغتيال رئيس الجامعة... يقضون ثم يمضون باتجاه الأهل أو الأصدقاء الذين ينتظرونهم.

وأنا أنظرك في هذا المكان المعتم حيث أرى الجميع ولا أحد يراني. لا أدري إذا ما كان علي أن أنفاداك حفاظا عليك أم أنه علي السير وراء غيتك وحماقاتك التي ربما كانت هي الصحيحة، وتفادي يقينيائي التي لم تكن كافية لوضعك في منأى عن الموت؟ أبدا، لا شيء، سوى أن القلب بدأ يخسر قوته وأني أدركت متأخرا، أني فتنت بك.

عفوا، جُنتُ.

عفوا. نسيت. لا شيء.

وحياتك لا شيء.

لا شيء، سوى أنني في خلوة ما قتلت نفسي ثم... قتلتك.

## الفصل الرابع

### مسالك النور



هل أذهب؟ سأذهب. ماذا أفعل هناك؟ لن أذهب.  
الليلة بكاملها لم أنم إلا ساعة واحدة من وقع الأسئلة المربكة. بين  
أن أذهب أو أتفادى الذهاب. شعرت بأن صالح كان يسرق مني مريم.  
بعد تردد كبير أقنعت نفسي أن لا شيء يسرق إلا إذا وضع نفسه موضع  
السرقة.

«في هذه الحالة سأذهب إذن.»

أغمضت عيني وذهبت، ضاربا عرض الحائط دروس الصباح مثل  
جميع سكان فيلا الإطفائية. سيلفيا لم تحضر لأنها اتهمتنا بالحمافة  
والهبل بينما عيد عشاب لم يفارقنا لحظة واحدة. قال: من أجل الحمافة  
أنا مستعد للتوقيع بأصابعي العشرين على أي شيء يجمع امرأة برجل.  
- توكلوا على الله فقط.

للإعلان عن خطوبته وزواجه، اكترى صالح جناحا واسعا بمطعم  
علي بابا وعزم كل الأصدقاء ولم يستثن أحدا. كانت مريم جالسة  
بجانبه. جميلة مثل دمية صينية كانت.

كنت حاضرا في مساحة من الغياب تشبه الضباب الداكن الذي كثيرا  
ما كان ينزل على مدينتنا البعيدة. أمشي بصعوبة ورجلاي تغوصان حتى  
الصدر. في قلبي خوف كبير من التلاشي.

فجأة وجدنا أنفسنا جميعا، سكان فيلا الإطفائية، في المطعم.

جئنا نشهد ونبارك زواجاً لا أدري إذا كان واحد منا مقتنع به، بما  
في ذلك مريم وصالح.

أكلنا الكايطو، وتمنينا لكما أولاداً وأطفالاً جميلين تملأون بهم  
خواء هذا العالم المخيف وسريراً شرعياً وحياة سعيدة.

في تلك اللحظة وأنا أوقع كشاهد زور على «صك الزواج»  
وتحويلك إلى دجاجة أليفة، تذكرت فجأة كلمات رنت في دماغي  
كالحديد الساخن.

– سنلتقي في الحملة التطوعية القادمة.

كلمة سمعتها منذ زمن بدا لي بعيداً جداً محملاً بعطر الطفولة  
والرعشات الأولى وخيبات المراهقة.

انتابني شيء غامض إذ شعرت بالحياة تافهة وبلا معنى. شيء من  
العبث كان يحدث على مرأى مني لم أكن قادراً على تحمله. هل صالح  
حالة حب طارئة أم مجرد قشة أم انتقام من صموني وارتيابي أمام مريم؟  
لم أكن أريد الحصول على أجوبة لأن الأمر لم يكن يهمني كثيراً. فقد  
كنت خارج الدائرة وكان من الصعب علي فهم فظاعة ما كان ينكسر  
بداخلي بقوة كالحطب الجاف.

كلما رفعت رأسي لمحتك تنظرين إلى وجهي بعينيك المائلتين  
وكأنك كنتِ تنتظرين حدثاً خاصاً يضع حداً لكل هذه المهزلة. رأيته  
كالمفتون الذي خسر عقله ووزانته، أقوم من مكاني من بين الجموع  
المتراصة التي جاءت للمباركة. أتقدم مغمض العينين أخذك من يديه  
وأنت سعيدة تفهقهين بصوت عال وأخرج بك نحو أقرب رجل دين  
ليبارك زواجنا على العوامة وبين النوارس وقصب البانبو والأشجار  
والنباتات الاستوائية.

فجأة لكزتي رجل عيد عشاب موشوشاً في أذني أمراً:

– وينك نايم؟ دورك. يا الله قم ولك.

قمت من مكاني. وضعت هديتي عند رجلك. رسمت قبلة على

جيينك وأنا لا أعلم كيف تحركت نحوك بكل تلك السهولة . فقد كان الألم كبيرا بحيث أفقدني الحساسية :

- حياة زوجية سعيدة . تهلاي في روحك مريم .

- شكرا . ربي يتهلا فينا جميعا . يا سيدي في الأفق دائما شيء آخر . الدنيا هكذا ، يجب أن لا نقظ من رحمة الله .

قذفتني جملتك الأخيرة نحو سحر الشارع وحيدا . كان كل شيء مرتبكا وكنت منكسرا وبني رغبة كبيرة للذهاب نحو بار النجمة والشرب حتى الصباح أو... عند عمو طوني ، عرقه اللبناي ، عرق توما ، يبقى طعمه في الفم أكثر من أسبوع .

سرت وأنا لا أدري كيف خرجت أصلا من المطعم وتبعني عيد وهو يردد أغنية قديمة بعد أن ملأ دماغه بأدخنة العرق .

Cherie je t'aime,

Chérie je t'adore...

Ya Silvia, ana bahibbak ya Silvia.

- يا عيد أنت تشوه الأغنية .

- يا أخي أنا لا أستطيع أن أقول أنا بحبك يا مصطفى . لا أحب مصطفى حتى أغني عليه . أنا أحب سيلفيا ، إذن أغني عليها .

- معك حق . ولم لا؟

من حين لآخر ، عندما تتأبني عبثية المشهد الذي رأيته أعزي نفسي بالكوابيس وأقنعها بأن كل ما رأيته لم يكن إلا إيهامات متتالية فرضتها علي هشاشتي ومشاهد قيامة سرعان ما تنطفئ عندما يأتي الصباح محملا بالأخبار الجديدة .

- يا رجل مش نهاية العالم . أرض الله واسعة . تأمل وضعيتي ، فهي أزفت مما تعيشه أنت . أنا مرفوض لأنني أنا . هل تعتقد أنني اخترت أن أكون من دين وسيلفيا اختارت أن تكون من دين آخر؟

- أنت على الأقل لست مسؤولا عن وضعك ، أما أنا...

- أية مسؤولية؟ أنت اخترتَ وهي اختارت، فأين الضرر؟ مع ذلك ضيعتما فرصة كبيرة للحياة. الله غالب ربي يعطي اللحم للي ما عندوش السنين. هذه هي الدنيا. لو كنت مكانك لقلب الطاوله على أصحابها ولأخذت مريم من يديه. لو فعلت ذلك لرأيت الفرحة ترسم في وجهها لكنك كنت خائبا ولم تفعل شيئا.

- إيه . . .

استغربتُ مما كان يقوله العشاب وكأنه كان يسكتني.

«باب الحاجة: لا شيء في هذ الدنيا يسير باستقامة. العالم قاس. قمت هذا الصباح منهكا ومنكسرا مثل ليلة البارحة. يبدو أن والذي نسيتني نهائيا. شربت القهوة ثم خرجت من البيت. مررت عند مبارك، طلبت منه خمس ليرات لأنني كنت في حاجة ماسة إليها ولم يعد معي ولا قرش، كنت على الحديدية. أجابني بالاعتذار ولكنه أخذ علبة القهوة الجزائرية وقسمها معي. شكرته. ذهبت بعدها عند عادل. كان بدون قهوة، فحضّرنا مما كان معي وشربنا وعندما طلبت منه خمس ليرات كنت أعرف الإجابة مسبقا. توجهت نحو المطعم لأرى بعض الأصدقاء هناك ولكنني وجدته مغلقا. عدت إلى البيت فاكلت قطعة خبز بقيت من ليلة البارحة وشربت كأس شاي قبل أن أخرج من جديد. مررت على بوصبيعات ولكنه هو بدوره لم يكن يملك ما يعطيه لي. سوى أن عادل الذي كان معه منحني علبة دخان: Pall-Mall فشكرته على ذلك. مررت على حديقة السبكي وهناك بدأت كتابة رسالة لوالدي ولكنني مزقتها. في المساء مررت نحو الرابطة، وجدت هناك رسالة لداودي فأخذتها له. اتخذتها ذريعة لطلب خمس ليرات منه. أصلحت له بالمناسبة الكاسيت التي كانت معطلة وعندما طلبت منه خمس ليرات، بحث في جيبه ثم اعتذر. وأنا أعود إلى الرابطة واجهني الصديق صحراوي وقبل أن أحبيه، طلبت الخمس ليرات ولكنه في الأخير منحني وعدا جميلا بتبديرها بدون فائدة. في الرابطة لم أجد إلا لكل الذي أعطاني ثمانين قرشا فاشتريت بها رغيفين وعلبة سردين من النوع الرديء. عندما عدت إلى البيت كنت

متعبا. نمت ولم أر شيئا، سوى شيخ الزاوية، جدي المختار التبسي الذي كان يدهن الحبل الذي بين يديه بشحم الإبل ثم يمرره حول رقبته وهو يقهقه مثل الذي أصيب بحالة هستريا مفاجئة ويصرخ:

– طز فيكم وفي حياتكم وبش كل ما صنعتم وبنيتم. ما زلت هنا ولن تقبضوا إلا على الفراغ. أعطينا الحياة كل شيء فأعطتنا كل أمراض الدنيا.»

من أوراق عيد عشاب.

مغادرة فيلا الإطفائية لم تكن أمرا هينا عليّ ولكن خياراتي كانت محدودة. صالح ومريم كانا مضطرين للبقاء بنفس المكان قبل الانتقال إلى البيت الصغير في الروضة وأنا لم يكن بإمكانني عيش عشية أكثر من هذه، كنت أول العارفين بها لأنني متسبب في نشوئها. إمكانات التحمل ضعيفة لديّ ولا أستطيع أن أذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه.

من الصعب أن تترك مكانا قضيت فيه جزءا من عمرك. وهو من أجمل ما يمكن أن يحصل لك في حياتك؟ ومع ذلك بعض الجروح والأمراض المستعصية تحتاج في الكثير من الأحيان إلى البتر والحسم، لأن الإبقاء عليها على حالاتها الأولى لا يمكنه إلا أن يزيد من قسوة الأشياء. آلام البتر أحيانا أهون من الأنين اليومي في مكان معزول ولا من يسمعك. ومع ذلك نحتاج إلى قدر من اليأس يفتح أمامنا كل المغالق مثل المقدم على انتحار.

الألم كان قويا لكن خياراتي كانت محصورة بين ألمي والتبساتي مع مريم التي لم أكن أملك حيالها أي جواب مقنع. ابتداء من هذه اللحظة أصبحت المسالك واضحة وأصبح بإمكانني اتخاذ أي قرار.

عندما خرجت من بار النجم الذي يستقبل في مثل هذا الوقت الفنانين والكتاب والصحفيين وكل الفاشلين الذين يحلمون بالفتوحات التي لم يتحصلوا عليها في حياتهم، كان عيد عشاب ما يزال غارقا في جلسة حميمة مع أصدقاء كان وحده يعرفهم ولم يبدل مجهودا لتقديمهم

لي. عيد هكذا، لا يفعل ذلك إلا لسبيين، إما أنه لا يريدني أن أعرفهم لأنهم عندما يشربون يخبصون وإما أنهم دائره نقودا لشراء قنينة عرق. كانت أضواء الشوارع مظفأة. الفجر بدأ. وبدأت أدق على محلات العقارين بحثا عن سكن للأجار بين شارع بغداد والبنك المركزي وسينما السفراء وسوق ساروجا. عندما توسطت الشمس في سماء لم تكن صافية، كنت معددا على فراش أحضره لي أبو هيثم الكندرجي، صاحب البيت.

منذ ذلك اليوم لم أعد إلى فيلا الإطفائية إلا لأخذ أغراضي. كل شيء كان قد انتهى.

— مريم عادت .

تفاذيت سماعها لسبب لم أعرفه أبدا .

الأموات لا يعودون . مريم ماتت . . .

أقسمت أن أظل وحيدا في هذا الحي المنفصل عن بقية المدينة على الرغم من وجوده في قلبها . لا أزور أحدا ولا أحد يزورني لولا وضعية عيد وسيلفيا القاسية . استقبلتهما لأول مرة بشرط أن لا يذكر لأحد مكان إقامتي الجديدة .

تعودت بسرعة على حياة حي سوق ساروجا الشعبي بدرويه الضيقة ومسالكه المغطاة التي تشبه الأنفاق القديمة وحمّامه الرئيسي . لم أنسك ولكني طوال الشهور الماضية استطعت أن أدرب نفسي على العقل وقبول منطق الدنيا الذي بدا صعبا وشاقا وفي بعض الأحيان مستحيلا .  
لم أكن أملك غير ذلك لمقاومة الخيبة .

— شو؟ ما عَمَ تسمع؟ مريم عادت يا أخي؟ ما يهزك هيك كلام؟

قالت سيلفيا مرة أخرى بحدة ظاهرة، وهي تضع الكباب والفتوش والكوسا المحشية التي حضّرتها طوال الفترة الصباحية في بيتي، على كومة الصحف اليومية التي فتحناها عن آخرها .

— من قال إن الصحف غير صالحة؟ نحن نتحمل كذبها الكبير وهي تتحمل قدرا صغيرا من نفاياتنا . مصلحة متبادلة . هذه هي النظرة التعاادية، تتحملني وأتحملك .

أردف عيد عشاب ساخرا، من زاوية البيت، كان منهما في رسم  
كاريكاتور لوجهي المتعب ولكومة الكتب التي كانت تغرقني.

– هذا هو العنوان: الكتب تنهار على الجاحظ فتقتله.

– معقول. المهم أن يكون الكاريكاتور كويس.

هذه المرة كنا نتناول الغداء عندما صرخت سيلفيا وعيد عشاب في  
وجهي، بصوت واحد وكأنهما اتفقا على ذلك قبل أن يدخلوا إلى بيتي.  
كانت الحدة تقارب الزعل:

– هذا يعني أنك مجنون والأكثر من هذا، غيور من سعادة المرأة  
التي أحببتها. أنت تعرف رأيي في هذا الزواج الذي لا معنى له.  
ورفضت أن أكون شاهدة على هذا الجنون منذ بدايته بينما أنت وعيد  
ذهبتما وكان بإمكانك أن ترفض. الآن ليس من حقلك إذا كنت تحبها،  
أن تكون سليبا.

– يا سيلفيا، ربما سأخرجها بزيارتي وأخرج صالح. لقد صاروا الآن  
متزوجين ولم يعد هناك أي ميرر لوجودي بينهما.

– بارك زواجهما. وين الغلط؟ يبدو أنك خائف على نفسك. يكفي  
أنك تركت فيلا الإطفائية قبل الصيف لتسكن وحدك.

– يا صديقي يجب أن لا تخطئ في حق مريم. جنونك هو الذي  
أفقدتها صوابها. كن عاليا وتفادها فيما بعد إذا استطعت. اذهب لتختبر  
عواطفك.

– ماذا أختبر يا عيد عشاب في شيء أنا على يقين منه.

ذهبت سيلفيا وعيد عشاب وجراني وراءهما.

عندما تخطينا عتبة البيت، كانت مريم هي التي فتحت الباب.  
وضعتُ الورود بين يديها وقبلت جبهتها ووجه صالح وأنا أتمتم بدون  
قناعة كبيرة مني كالعادة: مبروك عليكما.

«شكرا»

ردداها معاً مع ابتسامة مستقيمة، ارتسمت على محياهما وكأنهما

تدربا عليها كثيرا قبل هذا الوقت وطوال فترة شهر العسل، لمواجهة مثل هذه المناسبات بمزيد من الثقة والثبات.

كنت أنافق بكل صدق في حياتي.

عندما بدأت تتكلم عن جولتهما اليونانية والباريسية وكيف عبرا نهر السين ليلا في الزوارق الدافئة، غرقت فجأة في مصبات بردى التي كانت كل يوم تزداد بعدا.

لماذا الألم يستيقظ فينا دفعة واحدة كلما تعلق الأمر بفقدان امرأة نحبها؟ امرأة قد تكون عادية ولكنها تأسرنا بجنون؟ نتعذب من أجلها وهي ربما تنام براحة بين ذراعي الزوج أو العاشق الذي اختارته لحياتها؟

كان رأسي فارغا إلا من صورة واحدة. الحلم. استعدت ذلك اليوم الذي خرجنا فيه نحو مياه بردى ومنبعه وسلكتنا مخابئ طوق الياسمين المسكرة والمخيفة والعوامة الصغيرة التي صرنا، منذ ذلك اليوم، نركبها لتجول في النهر الصغير. كنا نختار الذهاب يوم الجمعة فجرا مثلما فعلنا ذلك أول مرة مع خادم المقام. قمنا في ذلك الصباح باكرا. قلتُ عندي رغبة ملحة لمغادرة هذا الشجن بعيدا عن هذا المكان.

سألتك وأنا أمزح:

– مريم، هل تريد الماء؟

– وكأنك تتحدث عن مدينة بحرية؟ جدي سيدي عبد المؤمن بوقبرين صلى أصدق صلواته قبالة البحر. أنا ابنة الماء يا حبيبي ولكني أشعر بنفسي في صحراء قاحلة وفاتلة.

حتى تلك اللحظة لم أكن أفكر مطلقا كيف أمنحك الماء في مدينة، الشعر الذي قيل في مائها يتجاوز ماءها. ثم فجأة وأنا أسخر أمام سيلفيا وعيد عشاب قال لي بصوت واحد: لماذا لا تذهبان نحو مصبات بردى؟ مكان جميل وبإمكانكما أن تتجولا كما تشاءان. هناك باب مدهش حدثك عنه، يقول عيد عشاب، مغلق بالنباتات القاسية والعملاقة، في شكل طوق يعبره العارفون، ولكن عندما تمران ستغرقان في نور لم ترياه

في حياتكما أبدا. القليل من سكان هذه المدينة من يعرف طوق الياسمين الذي يفتح مباشرة على الماء وأشعة الشمس الفضية. أغلبهم يمشون عبر المداخل العادية المخصصة للسواح والناس العاديين. طوق الياسمين، يقول عيد، اكتشفه سيدي الأعظم محي الدين بن عربي وفيه اختبأ من العيون التي جاءت محملة بالظلام والقسوة. كان يسميه كذلك باب العبور نحو النور وبه كان يتهاى لرحلته الكبرى.

- ألم أعدك؟ هاأنذا أفني بوعدتي. سأحدث خادم المقام لكي يرافقكما وأكرمهما.

- ولو يا عيد؟ ما في داعي تقول هذا الكلام. خادم المقام على راسي. الأصول يا صاحبي.

- وهو كذلك. لن تندما. أنا متأكد من ذلك.

لم أسأل كثيرا. كنت في حاجة إلى قليل من الحلم. اقترح لي عليك أن نذهب لتتجول على متن الزوارق بصحبة خادم مقام الشيخ محي الدين بن عربي. كنت تضحكين وأنت لا تدريين أين كنا ذاهبين.

- لو كان ما كنتش نعرفك، نصدقك.

- سأجعلك تعشقين الماء الذي افتقدته منذ مدة.

- يا خويا، كن جادا مرة واحدة في عمرك؟

كان الفصل شتاء. بدأنا نشق أدغال النباتات حذرنا خادم المقام من الحديث. أخذك من يدك وبدأنا نزحف بهدوء كالحيات أو ظهورنا منحنية بحسب وضعية قصب البانجو أو الدفلى أو غيرها التي من الأشجار المتكاثفة التي كانت تمنعنا من المرور. شيان يبقيان في عمق الذاكرة: الأصوات المتنوعة لحيوانات كثيرة ومساقط المياه والروائح المسكرة. حاذينا سلحفاة ضخمة، طالبنا الشيخ بأن لا نعيدها انتباهها، لا هي ولا غيرها من الحيوانات والزواحف التي كنا نصادفها. توغلنا في الداخل وبدأ لي أننا ذاهبون نحو القيامة وأنا نسلك طريق الحساب. يشد على كف مريم ويمشي بخطوات العارف والواثق. عندما حاولت أن أرفع

رأسي، لم أر شيئا سوى ظلال النباتات والشجيرات الكثيفة والمتراصة. بدأت الروائح شيئا فشيئا تنسحب مخفية المكان للياسمين فقط ولوقواق النوارس وصوت المياه وهي تتكسر على الصخور المهجورة. صارت النباتات التي كانت تحيط بنا أكثر رقة وأقل توحشا. فجأة طار من أمامنا سرب من النوارس. توقف خادم المقام لحظة ثم واصل سيرة بشاقل بعد أن استوى بقامته. فجأة قفز في وجهنا الشعاع الأول وهو ينكسر على سطح مائي كان يشبه المرآة. كان الماء ينزل من مرتفعات الزبداني المثلجة ويتسرب كشعاع سائل. انتابني الإحساس كأننا كنا أمام باب انفتح فجأة على الأنوار والطيب. تمتم الشيخ:

– لنتنظر قليلا. سيأتي الدليل.

بد دقائق رست العوامة عند أرجلنا. ركبنا. ومنذ تلك اللحظة لم نعد نرى سوى الدليل والماء وصعوبة فتح العيون. كان خادم المقام قد انسحب. كأننا كنا داخل عالم خرج فجأة من العدم. كلما اخترقت الأشعة ألياف الضباب زاد بياض الماء وتعمق أكثر إحساسنا بالغشاوة. وفجأة بدأت العوامة تدخل بهدوء في عمق الماء الذي تظلمه الأشجار مثل بيوتات الهندو الحمر وكأننا كنا نشق دهليزا والنور يتضاءل حتى صار المكان مظلمًا تماما ولم نشم إلا رائحة الياسمين ولم نعد نسمع إلا تكسر الماء وكأنه يغلي في درجات عليا. وعندما خرجت العوامة إلى النور مرة أخرى، كان الضوء قد أعمانا وأصبنا بإغفاءة لا أحد فينا كان قادرا على معرفة مدتها ولكننا كنا نسمع كل شيء. وعندما فتحت عينيك، وشوشيت في أذني: أتعرف ماذا رأيت؟ أمي. رأيته مثلما أراك الآن وهي تخرج من عمق السيلانات الكبيرة. كان وجهها مشعا، مليئا بالنور وعلى رأسها أكاليل الغار والياسمين. كان لها جسم ولكنها كانت امرأة من نور وماء. تمنيت أن ألمسها ولكنها مرت من أمامي، حيثني مبتسمة وبعدها انسحبت نهائيا. قلتُ لك وأنا أتمتم بدوري في أذنك بخفوت حتى لا نزعج الدليل الذي كان الضباب يفصل بيننا وبينه: أنا كذلك رأيت طفلا يركب براقا جريجا، كان يحاول أن يطير ولكنه لم يستطع ثم بدأ يزحف

نحو سفينة نوح المليئة بالبشر والحيوانات. عندما وصل إلى عين المكان  
سُمح للطفل بالركوب ولكن البراق حزن لأن القاعدة تنص على ضرورة  
وجود أنثى له بينما البراق كان لوحده. عندما تحسس الطفل البراق،  
وجده قد مات. شتم وهرب نحو الجبل. عندما التفت نحوي، كان أنفه  
يسبل وعلى جبهته الكثير من الجروح، وبقع الأدخنة والبارود، يرفع  
على رأسه كتانة حمراء ويطلب من النور أن لا نصب:

يا النور ما تصييش..

ويا خويا حمو ما تعجيش..

وما تغطيش سيدنا نوح بالزريبة،

على خطر ما خلاش البراق يركب في السفينة.

كان يشبهني وظل يتوارى حتى غام في عمق الضباب. تمنيت أن  
أستوقفه وأصرخ في وجهه: لماذا تشوه أغنية المطر؟ لكنني استطعت أن  
أفتح عيني في الوقت الذي استيقظت أنت فيه. بعد تجاوز مغالط طوق  
الياسمين النباتية، كان نبع النهر قد زاد صفاء مثل قطعة فضية عائمة  
وسط الضباب. كانت تنزل كالشعبان لم نكن نسمع شيئا إلا حركة  
العوامة القديمة التي يقول عبد عشاب إن سيده الأعظم ابن عربي كان  
كلما اشتاق إلى الصفاء، امتطأها بصحبة الدليل الذي منذ ذلك الزمن  
وأجداده يتوارثون نفس الحرفة حتى اليوم، وخشخشة تمزق المياه ونحن  
نحاول عبثا أن نفتح عيوننا على النور الذي كان يغرق كل المحيط.

نظرت إلي:

- يا الله. أي سحر يملكه طوق الياسمين؟ كنت أظن أنني المهبولة  
الوحيدة التي تمنح حبيبها المستحيل وها أنا ذي أجلس بجانب رجل  
يمنحني كل شهواتي العالية. منذ زمن بعيد لم أدخل الماء.

- السعادة لا تحتاج إلى استحالات كبيرة، أشياء صغيرة قادرة على  
أن تهزنا في العمق.

- شكرا لك حبيبي.

قضينا نصف اليوم في العوامة . تفصل بيننا وبين صاحب المجدفين  
كتل الضباب والنور الطاغي . كان المصعب هادئا ويغري بكل سبل  
الغوص في الأعماق .

عندما عدنا إلى البيت لم نتكلم إلا عن الأطيار والزقزقات والألوان  
والفراشات التي تقف على رؤوسنا وأصابعنا وعن المجدفين وكيف  
أصبنا بالإغفاءة التي لم ندر كم دامت والتي رأينا فيها الألوان التي لم  
نرها في حياتنا أبدا .

- واش من بابور غرق؟

- الإغفاءة؟ عفوا . . .

لولا تدخل سيلفيا لغرقت في المصبات والضباب والألوان .

في داخلي كانت تهدم الأشواق القديمة وتكسر أعمدة خشبية عتيقة  
أكلتها سوسة الألواح من الداخل . شعرت بعينيك تبحثان عن مرافق دافئة  
أفقدناها منذ ذلك اليوم القاتل . في لحظة ما، تمنيت أن نلتقي ونحدث  
بتفصيل أكثر، لكن خوفا غير مبرر كان يقتحم كل الزوايا المظلمة في  
داخلي .

أحسست بشعلة الحزن تبدأ بالتهاكم من عينيك .

حين سألتني عن أحوالي ، لم أقل إنها طيبة .

- ماشي الحال .

قال صالح وهو يضحك :

- هذه كلمة عوامة . وكأنك لم تقل شيئا .

ضحكت لأنه لم يكن لدي ما أضيفه سوى أنني تأكدت أنك مرضي  
المزمن . مرض سأخذه معي نحو القبر . كان هذا يقيني الوحيد .

كنت تبحثين عن أشياء تشعرين بها ولا تستطيعين لمسها . تحدثين  
عن كل شيء ولا شيء . وجدتنني في لحظات الغفوة، أعيد اكتشاف  
صياغتك المبهمة .

أنتِ. امرأة أعرفها وتهرب تفاصيلها مني. وجه جميل، لولا بعض الصفرة التي تعطي الانطباع بالمرض على الرغم مما كان يبدو عليك من سعادة. خانة صغيرة تنزلق بهدوء على الجهة اليسرى من رقبتك. أتذكر أنني ذات ليلة وضعت عليها قطرات الويسكي وشربتها واحدة واحدة. مكانك الحساس. نقطة ضعفك في الفراش.

رفعت رأسك. لا شيء فيك تغير. الحزن كان يقرأ تحت الابتسامات غير المقنعة. فقدت الكثير من عفويتك وصرت تشبهين الجميع. شاهدت أغصان الجذري تتسلق خدك مثل شجيرات العليق اليابسة. وأشهد أنني لمحت الشمس تحتضر في عينيك. لا أدري إذا كان هذا مني أم منك، لكنك هكذا كنت تبدين. في لحظة نبت كالشوكة في أمعائي، أحسست أن دهرًا من الزمن ما زال يفصلنا. حين حكيت كنت تحكين عن المدن الجميلة التي اشتهت عينك رؤيتها، لم تكوني فرحة بالشكل الذي كنت تتصورين. شيء ما فيك كان دائمًا يعيدك إلى انكسارك الأول. حتى الدمية الكبيرة التي تحرك عينيها وتمشي لوحدها وتتكلم عندما تتألم، التي كنت تمنين أن تضعها على السرير لتزويقه ولامتصاص غياب الأمومة الذي كان يعذبك. اشتريتها من جولتك الباريسية الأخيرة. لكن شيئًا لم يتغير.

شعرت بك مثلي تمامًا، تنتحرين في الهدوء والعزلة والعواصف المكبوتة.

لتفاديك، التفت نحو الحائط. لم أر ما يدهشني سوى التفاصيل التي كانت تشبهك، تؤكد العزلة والانطفاء. بيت صغير، متواضع إلى حد بعيد. حجرتان ومطبخ. في قاعة الضيوف، حين تدخل وتجلس على الأريكة يواجهك براد كبير، تراقص على بابه إعلانات جينة «كيري» ومختلف الأجبان الفرنسية وبعض أبطال الصور المتحركة. وضعت عليه ورود بلاستيكية حمراء تتسلق الحائط بعباء وكلل. على المكتب الأنيق الذي ينزوي في الظل والبرودة، كومة من مختلف الكتب والمجلات النسائية. تاريخ النازية وهتلر والفتوحات الإسلامية، القصص المصورة

«فوطورومو» ومختلف السير والكتابات الموغلة في القدم. على الحائط الجانبي، تتدلى قطعة قماش صينية قديمة ختمت عليها شهور السنة الجارية. في الأعلى، صف من الكتب على ارتفاع يكاد يلامس السطح، يبدو أنها لم تُقرأ منذ أن وُضعت هناك. على الحائط الذي كنت متكئا عليه، لوحتان متناغمتان: الأولى، وجهان جميلان يرقصان رقصة الموت. الثانية، طائر ملون يحاول تحريك ريشه ليخفي جرحه؟ في مواجهتي، مطبخ بدا إهماله واضحا.

قلتُ بدون إقناع كبير حين رأيت عيني تتسلقان جدران البيت وتمسحان كل المحيط شيئا فشيئا.

- بيت مؤقت. لقد استأجرنا بيتا مؤقتا بشكل كامل في أبو رمانة، سندخله قريبا.

- المهم أن تعيشا سعيدين. المهم أن تعيشا سعيدين.

قالت سيلفيا في نفس الوقت مع عيد عشاب وكأنهما اتفقا على نفس الكلام.

بعدها، تكورت في لباس عتيق وحاولت أن تسترجعي كل لحظاتك المرهقة. وحدك كنت تعرفين تفاصيلها.

حاولت عبثا أن تبسمي، لكن ابتسامتك لم تستمر كثيرا. وجهك كان مسكونا بالأسى وبالأشياء التي يصعب تفسيرها. سمعتك تتكلمين في الظلمة.

ربما كنتِ تبكين؟

«احذر الأقدار حبيبي. فهي تأخذ كل مزاحنا مأخذ الجدد. إنها مثل الديك، تسمع حتى سقوط الندى.»

رأيتك تلبسين وجهها آخر. تستعيرين الأقنعة. تضحكين وتقهقهين عاليا لكن في القلب كان ينبت شيء آخر أكثر حزنا وأكثر انكسارا، فانكفأت على نفسي وذهبت نحو مصبات بردى الخالية إلا من رجل العوامة وقصب البانبو والضباب الكثيف والنباتات الأمازونية والحلفاء

والديس... التي كانت تسد المسالك وتمنع من المرور نحو طوق  
الياسمين وتغلق كل الممرات المؤدية نحو أعماق المصيب المضاءة  
بكثافة حتى في فصل الشتاء، نحو النور.

كنت بعيدة وكنْتُ قريباً إلى قلبي، أنصت لكل الانكسارت  
والتشققات والشروخات التي كانت تهز بشكل متتابع وعنيف، جدار  
النفس تاركة المجال مفتوحاً لفياضانات الخيبة بالمرور والتدفق.

أنت تقتلني بحبك .

يا ليتك ما زرتني . كنت قد بدأت أفنع نفسي أنك لم تعد لي ، ربما كنت لامرأة أخرى غيري . ثم لماذا الإصرار على العبث والموت؟ ألم يختر كل واحد منا مسالكه وأقداره؟ أنا مرتبكة وشديدة الشكوك في قدراتي الخاصة .

كل شيء ينتفض في وكأنه يحدث الآن . أراك منحنيا على ركبتك تفتح معبرا للمرور نحو طوق الياسمين وأنا أنساءل في خاطري: أي سحر يقوده نحو كل هذا العذاب؟ ألم يكن من الأجدي لنا أن ندخل من البوابات العادية لمصبات نهر بردى التي يعبرها آلاف الخلق بدون شطط؟ ربما كان عيد عشاب عندما نصحنا بضرورة زيارة المكان، في حالة زوغان بسبب العرق الذي يخذله أحيانا . أرى خادم المقام وهو يسحبني وراءه وسط خلجان النباتات الاستوائية ويدفعني إلى التزام الصمت والصبر . أي باب يملك كل هذه المغالقات الطبيعية التي تطوقه وتجعل منه حصنا منيعا؟ ثم . . . فجأة . . . يطير من أمام أعيننا سرب من النوارس التي تندفن الواحد تلو الآخر في مساحات الضباب المتصاعد . نخطو خطوات أخرى إلى الأمام . تنتم: أسست . . . لم نعد بعيدين عن النبع . فجأة نجتاحنا دهشة الخلعة وكأننا نكتشف المدينة للمرة الأولى . يندفع النور متدفقا مختلطا بصفحة الماء وبنعومة الأشياء المحيطة . تنتم من جديد تحت وطأة الدهشة : عيد لم يكن مخطئا في ذلك اليوم عندما

فتح أعيننا على هذا السحر اللامتناهي . عيد جرب هذه اللذة . قليلٌ من يعرف عمق هذا الرجل الذي أحب محي الدين بن عربي من جلسة طارئة هو وسهام مع خادم المقام . من يومها صار يقتضي خطوات سيده الأعظم كما كان يسميه وينصيد كل ما يحكى عنه من حقائق وكرامات وخرافات .

طوق الياسمين . . . فتح في وجهي صورة أُمي كلبلة القدر . أُمي كانت امرأة من نور وماء . وجهها صاف كمرآة . . . يا ليتك بقيت في البيت ولم تأت ، لأعطيتني كل مبررات نسيانك وحرقت كل ما يجمعني بك وسد كل البوابات بما فيها باب «طوق الياسمين» الساحر الذي يصعب على أي مخلوق رآه أن ينساه ، لأنفُرج بعدها لبيتي وزوجي . ولكنك جئت بدون أدنى تردد . وكان يجب أن لا تأتي لتتمكن من رتق جراحاتنا المفتحة على الذاكرة ونعيش حياتنا في حد أدنى من السكينة .

لا أنت تركتني ولا أنا استطعت أن أنفادك . كنت كالقدر ، بل القدر بعينه . قلت لك في الرسالة التي بعثتها مع سيلفيا لاخيتارك :  
— متعبة جدا ، أريد أن أراك . إذا لم تأت سأنتحر .

الجملة السحرية الوحيدة التي كانت كافية لإخراجك من صمتك وخوفك مني أو علي ، لا أدري . هكذا إذن سأتمكن من رؤيتك بعد كل هذا الفراغ ؟ فجأة وجدتك أمامي بعد أن أكلني اليأس والخوف . هكذا إذن مازلت أعني لك الشيء الكثير ؟ أما زلت تحبني إلى هذه الدرجة بعد الحماقة القاتلة التي ارتكبتها في حقك وفي حقي ؟ لا بد أن نكون قد أصبنا بمرض لم نعد قادرين على تحديده ؟ مازلنا سجناء أنوار طوق الياسمين وخلقجانها وضبابها وعوامتها القديمة ومائها الذي يشبه بركة بدون حدود من الفضة السائلة .

عدت متأخرة من شهر العسل الذي لم أدر كيف مر ولا أعلم جدواه . ولا أدري إذا عدت للجامعة أم عدت لك مرة أخرى ؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لي لو لم تكن موجودا بتلك المدينة التي شهدت ميلاد حينا ومقتله ؟

هل من حقي أن أخرجك من عزلتك وأكلمك قليلا؟ أنا اخترت طريقا لا يشبهني ولا يشبهك ومع ذلك سلكته. وأنت بعيد عني تعبر مسلكا آخر. شيء ما فينا ينفلت من بين الأصابع كالماء. الكل ينهض ضدي حتى نفسي كلما تعلق الأمر برؤيتك مع أنني لا أجد نفسي إلا معك. منذ مدة لم أرك ولن أتمكن من رؤيتك قريبا. لقد اطلعت على الحوار الذي أجرته معك جريدة تشرين بمناسبة صدور روايتك الأخيرة ببيروت. كان رائعا ولكنك كنت حزينا جدا. فهل من الممكن أن تؤمن نسخة من الرواية للإطلاع عليها ثم أعيدها لك.

بدأت بهذا الكلام حتى لا أنسى طلبتي لك. أريد أن أقرأ ما تكتب لأنني أشعر باستمرار أنني المعنية دائما بشخصيتك النسوية المركزية وأنتك تكذب على نفسك إذ تظن أنك تخلصت مني. يبدو أنني أسكنك مثلما تفعل بي. الفارق بيني وبينك أنك تعيش حياتك حرا وأعيشها داخل جملة كل حروفها وكلماتها غير صحيحة.

كل شيء مر بسرعة.

لم أكن أعلم أنك تحتلني بكل هذه القوة.

لأول مرة تأتيني وأنا على أهبة الانتحار. لم أعد قادرة على الكذب على نفسي. طوال هذا الزمن لم أكن إلا مع رجل واحد هو أنت. أشرب بك. أنام بك. أدخل الفراش مع زوجي وأنت معي. ولا شيء غير ذلك. والآن أشهد أنني صرت مريضة بك. سيغني قتلة الروح عني كثيرا: مجرد فاجرة؟ تركت فراش العفة وذهبت نحو فراش الدعارة؟ مساكين لا يدرون أن أكبر دعارة نمارسها هي عندما ننام مع إنسان ونحن نفكر في غيره. فأنا لست عفيفة إلا وأنا معك وبين ذراعيك.

الظلام شديد والجو بارد ونسمات ندية تلمح وجهي. قلت لي أنك ستأتي الليلة مثل المجنون. منذ زمن بعيد لم أرك. العاشرة والنصف ليلا عند مدخل البناية العالية التي تقرف صفرتها. وقفت أنتظرك. كنت متأكدة أنك ستأتي ولن تتخلف ثانية واحدة. العتمة تملأ الحي. لا أحد في الخارج. السكان نيام في أقفاصهم الحجرية. بعد حين ستأتي سيارة

تخترق الصمت الجاثم . أنت . كيف سألقاك أنا التي قمعت حبي وأسكنته  
صدري حتى لا أذيك وأحرقك معي . رأيت نور السيارة لا أحد غيرك في  
مثل هذا الوقت . رأيتك تنزل ، ترفع رأسك قليلا ثم تنحني قليلا لدفع  
ثمن التاكسي ، تتمتم ثم تحببه وتغادره . أنت مثلما أستهني رؤيتك دائما ،  
بمعطفك الخشن الذي يشبه معطف والدك الذي كان يرتديه يوم اعتقاله  
قبل أن يُغتال تحت التعذيب . لا أحد غيرك . لا يوجد مجنون يأتي في  
عمق هذا الليل لرؤية معشوقته . قصدت الباب بسرعة . فتحتة وسبقتك  
فتبعني أنت . كنت ورائي تعبر الأدراج باستقامة وهدوء وكأن كل الأمور  
عادية . البيت هادئ والغرفة مظلمة . أشعلت نورا باهتا خفيفا . التفت  
نحوك مبتسمة . خرجت مني هذه الجملة التي لا أعرف ما إذا كان لها  
معنى : أخيرا جئت؟ كم مر من زمن لم نر بعضنا؟ كنت سأنتحر بالفعل  
لو لم تأت . قلت هذا لسيلفيا . أريد أن أراه أو سيضطر إلى حملي في  
ضميره طوال عمره . لم أعد قادرة على تحمل هذا البؤس . رأيت وميضا  
في عينيك هو نفسه الذي كان يملأني . نظرات حالمة وأبد عاشقة . لم  
أصدق نفسي . أهو الرجل نفسه الذي استدرجتني الحماقة لافتقاده في  
متصف الطريق؟

تسمرت في مكاني . لم أفهم نفسي جيدا ، كنت جد مرتبكة  
كمراهقة . سحبتني من ذراعي وأجلستني قبالك . وقتها تأكدت أنك هنا .  
وأنني كنت بين يديك . أخيرا التقينا بعد أن أكلتنا مناهات الدنيا . تذكرت  
كلماتك . مازالت تظن في رأسي كطبول الحرب : لا شيء في الدنيا يمنع  
قلبين من أن يتعانقا في الدنيا ، في الأفق دائما شيء آخر . تعانينا ثم التفتنا  
في اللحظة نفسها إلى الساعة الحائطية وكأنك كنت تعرف تفاصيل  
البيت ، زاوية زاوية . الوقت قصير ومن العبث تضيق هذا الحب في  
الانكسارات الداخلية . الجروح كانت كبيرة وغائرة . بعض الجروح من  
الأفضل تركها نائمة مثل البراكين . بحنان دافئ كانت يداك تنحسان  
وجهي . ياه؟ كم اشتقت إلى هاتين اليدين؟ هل تفعل الغربة كل هذا في  
الإنسان؟ لم أكن مستعدة أن أفتح جرحي أمامك . هذه الليلة أريد فقط أن

أشبع من وجهك بالطريقة التي أشتهيها. استحلنا إلى عصفورين متعاقبين. انتابنا رعشة الحنين. تاريخ من الشوق المستبد. شلال من النور. كنت كل شيء. لو قلت لي في تلك الليلة طلقي صالح وتنصلي من كل شيء لما توانيت لحظة واحدة. النور الخافت يعمق من حالة الصمت هذه. العاشقان عادة لا يتكلمان. يلتهب شوق الرغبة فينا. شهرزاد تدخل مسامات الجلد وتفك قيدي. سنوات الألم تتضاءل. اللعنة على سماسرة الغش الذين لا شغل لهم إلا الغير. اللعنة على الأزمنة المغشوشة. اللعنة على العشيرة. الآن لن أتوان عن الرحيل نحو أجمل مدن الخيال. سأفتح بصحبك أرض الهزائم وأذلها. ياه كم اشتقت إليك. وكم أفقدك.

أنت الآن أودع من طفل. تقف بالقرب من الباب. لم تمس جسدي. تقبلني. تنتم. أخشى أن أموت من فرط السعادة لو لمست هذا الجسد الذي تعذب كثيرا وصار باردا كجثة. أمانا الدنيا ومتسع من الفرح. اليوم أستطيع أن أقول أنني وجدتك. وهذا هو المهم. عندما خرجت شعرت بسعادة كبيرة وحزن عميق ووحشة. أمام المرأة كنت أنحس عنقي والقبلات الطويلة التي تمنيت أن لا تتوقف وأن تنزل نحو هذا الحلمة المنعطشة ونحو بقية الجسد كما كنت تفعل قبل هذا الزمن. أحاول أن أتأكد أن ما حدث لم يكن حلما. كان حقيقة ولو كانت محدودة. إنها ذاكرتي المعطوبة. ما الفائدة الآن كم تمنيت أن الحق بك وأصرخ: ابق قليلا. بت هنا ولا تذهب، صالح سافر إلى البلد ولن يعود إلا بعد أسبوع؟ مستعدة أن أمارس معك كل الخيانات الصغيرة والكبيرة بدون أدنى تردد. امنحني فقط فرصة البقاء معي. ثم أية خيانة نمارسها عندما نكون مع الإنسان الذي نجه بالفعل ولم نزدنا سنوات العزلة والبعد إلا اقترابا منه. لكن الأشياء لم تكن بيدي. كان صوت محرك سيارة الأجرة التي تلفت لها، قد سرقك مني. عندما فتحت عيني المتعبين، رأيت السيارة وهي تعبر المنعطفات الضيقة داخل هذه المدينة.

كم تمنيت أن أنساك دفعة واحدة ولكنك لم تمنحني أية فرصة لفعل

ذلك . حبك لي يزيدي اشتعالا أكثر من ذي قبل . الآن تأكدت أن موضعي في قلبك لم يتغير كثيرا وأنه سيكون بإمكاننا أن نتوغل أكثر في مدارات طوق الياسمين المسكرة وأن أرى أمي مرة أخرى تخرج من عمق الماء .

دمتَ لي أبدا .

العاشرة والنصف ليلا . حبيبك التي تتمنى أن لا تحبك ولكنها جنت بك .

- الجزائر في القلب ويجب أن نسمع صوتها من خلالك . صدور روايتك فرصة جيدة لذلك ، أرجوك أن لا تضيعها علينا جميعا .

قالها صديقي الكاتب سعيد حورانية وهو يغلق الباب وراءه بعد سهرة الخميس التي كنا نقضيها عندنا بالبيت مع بعض الأصدقاء العرب .

- وماذا أقول يا سعيد؟

- حبيبي، بلاش تواضع زائف؟ يا الله خلصني من هيك حكي . شفتك بندوة كافكا . كرر بس الكلام اللي قلت عنه .

كان يقصد الندوة التي دعاني إليها صديقي الطيب عبد الرحمن الحلبي بالمركز الثقافي العربي . كان سواد كافكا يملأني في ذلك الزمن واندھشت أن اللقاء لم يركز إلا على علاقته بالصهيونية . شاركت من أجل ماسة قبل أن تنزل إلى بيروت ونستشهد هناك وهي توزع جريدة المعركة . أصرت علي كثيرا كثيرا . كانت معي في الفكرة وهي تردد : كافكا رعشة وكلمات هشة كالنور ، ونص جريح وغير مكتمل ومبتور وعندما نلمسه علينا أن نحس بالآلمه .

- C'est ça aussi Kafka. C'est l'imparfait par excellence. Ce n'est pas un taureau qu'on doit tenir par les cornes, mais plutôt une fragilité à prendre avec beaucoup de précaution sinon on risque

- اختزال البشر مؤذ.

سعيد كان كتلة من النشاط والسخرية المرة. قصر قامته كان يسمح له بالتواجد في كل الأمكنة. اتفقنا على موعد لزيارته في المركز السوفياتي الذي كان يتعاون معه. بعد يومين تحول اللقاء الحلبي إلى ثالث وعد أقطعه على نفسي، بعد عبد الرحمن الحلبي والشاعر أحمد دحبور للمساهمة في تنشيط أمسية جزائرية باتحاد الكتاب الفلسطينيين، بالقرب من شارع الأزيكية.

سارت الأمور بسرعة عندما وجدتني أقف وجها لوجه أمام مدير المركز الذي برمجني لأمسية أدبية واتفقنا على التاريخ الذي نشر في البرنامج الشهري.

كنت متأخرا عن الموعد بخمس دقائق. المرض يرهقني. يبدو أن الذي يحب بصدق كالذي يكتب، يزداد هشاشة كلما ازداد تعمقا في الأشياء وكلما وقع سجيناً للذاكرة.

«باب الدنيا بفت الكلب: كل واحد وزهره. اللي ربي اعطاه اعطاه، واللي صكته الدنيا صكته. الله غالب، هذه هو المكتوب. كنت بحاجة إلى هذا البراندي، أو المازوت كما يسميه صديقي جاك، حتى أستطيع أن أكتب شيئا وأتحمل قوة الألم. رخيص ومخدر.

كنت سعيدا على الأقل أن سهام التي كانت يائسة بدأت تمتثل إلى الشفاء بعد الأشعة الكيماوية وهي تنتظر فقط الإنتهاء من الجلسات المخصصة لذلك وتأتي لمناقشة رسالتها وأن كتاب Love story قد وصلها بالبريد المسجل وأنها قرأته بسرعة. على الأقل حتى تنسى قليلا مشقة مرضها وبحثها وابن عربي ودهاليز الصوفية. عاتبتني أني لم أرسلها طوال هذه المدة ولكن أنا كذلك كنت مريضا. يبدو أن الوحيد

---

(17) - كافكا هو هذا كذلك. الهشاشة المطلقة. ليس ثورا علينا امتطاء من قرنية ولكنه إنسان رهيف علينا التعامل معه بلطف وحذر وإلا ستعرض كل شيء للتلف بما في ذلك نظرنا الخاصة.

الذي سيموت على هذه الأرض بدون أن يسأل عنه أحد، هو أنا، أنا ولا أحد غيري. جسدي كله صار مريضا. وبدأت بالفعل أتحوّل إلى مخبر للأمراض. من الجدري الذي أكل وجهي في الطفولة إلى القرحة التي لم تبق الكثير من معدتي. إلى التهاب الأمعاء ثم إلى الرئة بسبب التدخين والهم ومنذ أسبوع أصبت بمرض أقعدني فذهبت للطبيب مع الأخ عبد العزيز وأمرني بضرورة إجراء التحاليل للبول والبراز. ودلت التحاليل على وجود خمسة أنواع من الديدان البطنية التي يجب التخلص منها. خمسة أنواع مدمرة وكأني كنت في حاجة إلى كل هذه الترسانة؟ الجسد هش ونوع واحد من هذه الديدان قادر على الفتك بجسدي. وأخيرا هذا السعال الملعون الذي لا أعرف له مصدرا والذي بدأ يتحوّل إلى مرض مزمن. هناك بعض البلأوي المزمنة، نتعود عليها مع الزمن، لكن الكحة؟ اللي صايو ربي في العمق، يسلطها عليه.

ذهبت كالعادة إلى مطعم أبو عيسى لاتناول الغذاء وأستريح قليلا ولكن السعال اشتد كثيرا علي فوجدت نفسي عاجزا عن فعل أي شيء حتى الأكل. رجعت إلى البيت وحاولت أن أستريح قليلا ولكن بدون جدوى حيث اشتد علي السعال أكثر وأخذت أذناي وأسناني وحنجرتي تؤلمني كثيرا. قضيت الليل كله على هذه الحال، أنهض وأتمدد عبثا، بدون جدوى.

من أوراق عيد عشاب.

مع ذلك علي أن أصل مع وصول الجمهور على الأقل.

بسرعة قطعت المعبر المؤدي إلى المركز الثقافي السوفياتي.

كانت أوراق أشجار الأرصفة العملاقة التي قاومت الحر ورياح السموم، تتصاعد عاليا. لم يكن اليوم مدهشا. ولم يكن الخريف يبعث على الراحة، فقد كان يسحب وراءه الأوراق الصفراء ويجرد العمر من الروح والنسج ويضعنا أمام أنفسنا حفاة عراة.

جسدي كان يتعري.

أوف. الحمد لله. كان بهو المركز غاصا بالجمهور. استقبلني المدير بحفاوة، شاب لطيف وعريته متقنة وأنيقة، يتكلمها بشكل شبه ألي كالذي يرسم شيئا بزوايا حادة وواضحة.  
- سعداء باستقبالك.

- يا زلمه خضيتنا، خفنا أن تكون قد نسيت.

قال سعيد حورانية وهو يسحبني نحو قاعة الاستقبال.  
ربما كان للصدفة الشيء الكثير في هذا التشريف الجميل. كنت سعيدا أن أجد فرصة لتقاسم أشواق مع جمهور المركز المعروف بجديته وصرامته ووعيه.

قدم سعيد حوراني ملخصا عن الرواية وبعض الملاحظات النقدية ثم طلب مني أن أتحدث قليلا عن ظروف كتابتها لدفع الجمهور إلى القراءة وإشراكه في النقاش. لم يكن الحضور مهما بالنسبة لي. كانت عينايا معلقتين على البوابة الواسعة لمدخل الصالة. كنت أنتظر مريم، فرأيت صالح يدخل مع شلته ويحتلون الأماكن الأولى. انتابني حالة من الحزن والضييق لأنني أدركت لحظتها أنك لن تأتي.

لا أتذكر من المحاورة إلا مداخلة شابة في مستقبل العمر وهي تسألني برغبة الوصول إلى شيء آخر غير ما كنت أقوله لها حول الأدبية والكتابة والسياسة.

- الرواية رواية حب. شخصيتها المركزية امرأة. واحد من إثنين، إما أنها امرأة حقيقية تركت فجوة كبيرة فيكم وإما أنها امرأة مصاغة من حياة قريبة منكم. في كل الأحوال لا يمكن أن يكون فعل الكتابة ههنا فعلا خياليا.

الكاتب العربي صار محترفا في تحريف الإجابات. فهو يقودها لتقول غير الحب وغير المرأة. يهرب خارج نفسه باتجاه الرمز ليعطي لكذبه كل الشرعيات الممكنة. فتصبح المرأة هي الوطن أو القضية وكان المرأة لا يمكن أن تكون المرأة التي نصادفها يوميا في الشوارع أو في البيت أو تملأ حياتنا وأسرتنا حبا وحنانا.

لم تكن الشابة تنتظر مني شيئا آخر غير أن أحادثها ببساطة . البساطة أحيانا مرهقة ومخيفة .

لحظتها دخلت وجلست في الأخير، في الزاوية الأكثر ظلاما ولكني كنت أراك بلباسك البنفسجي الذي عمقت خطوطه الأضواء الخافتة . لا أدري إذا كان وجودك قد شجعني على القول أو أربكني؟ الأكيد أنه منحني فرصة لأن أجلك ثانية داخل الأبجدية وحصر مساحات الكذبات الصغيرة التي يمارسها الكتاب عادة .

- المسألة ليست بسيطة ولكنها كذلك ليست معقدة . أهنأك شيء أكبر من الحب ومع ذلك نبذل كل شيء لإخفائه؟ مثل جميع البشر أكتب من انكساراتي وأشواقني . أنا أكتب عن امرأة في ومني . قد تكون موجودة لكن المهم هو وقعها في داخلي . ما هي التحولات التي تجعل منها قيمة أدبية وإنسانية . لا أدري إذا كنت قد تخلصت من ملامحها الموضوعية ولا أعلم أصلا إذا ما كان هذا التخلص يشغلني . عندما ننكسر، الشيء الوحيد الذي يجعلنا نجبر الكسور هو الكتابة . الكتابة وحدها تمنحنا هذه الفرصة بدون أن يطلب منا أي شخص ورقة الضمان الاجتماعي لتبرير طبيعة المرض والدواء . نكتب لأننا في حاجة للنسيان أو لمزيد من الألم موجهين نداء استغاثة ولا يهم إذا سُمعنا أم لم نسمع .

- وربما العكس هو الصحيح . نكتب لأننا نرفض أن نشفى من الآخر ونرفض كذلك أن ننسى . الحب دائما هكذا . أكبر معاند في الدنيا . لا يستسلم إلا لرغباته وشهواته .

ردت الشابة وهي تنتظر جوابا ظل ملتصقا بحلقي، لم أستطع النطق به لسبب لم أعرفه .

- نعم نكتب لأننا نريد من الجرح أن يظل حيا ومفتوحا . نكتب لأن الكائن الذي نحب ترك العتبة وخرج ونحن لم نقل له بعد ما كنا نشتهي قوله . نكتب بكل بساطة لأننا لا نعرف كيف نكره الآخرين وربما لأننا لا نعرف أن نقول شيئا آخر .



المركز. لا أدري لماذا خفت من خزراتها التي كانت تربكني؟ ربما لأنني شعرت في لحظة من اللحظات أنها كشفت كل أسرارتي واقتحمت مخابثتي التي كنت أتحصن بها كأني جندي يقلقه في السلاح الذي كان يحمله.

كانت رياح الخريف قوية. ملبثة بالأوراق وأغبرة قاسيون ويأس المشاة المرهقين والأشجار العارية.

عبرت السبع بحرات ثم البنك المركزي قبل أن ألقى بنفسي في شارع بغداد الذي كان يمتد طويلا كالثعبان.

لم تكن لدي أية رغبة للعودة إلى البيت. فكرت في الهجوم على بيت سعيد حورانية الذي كان وجهه في ذلك اليوم صافيا، مليئا بالنور مثل وجه مريم ولكن الوقت بدا لي متأخرا جدا وكنت في حاجة ماسة إلى فضاء يتجاوز حدود بيوت الأصدقاء.

حبيبي .

نسيت أن أقول لك إنك في المرة الماضية كنت رائعا وكنت حبيبتك الحزينة . أعذرنى ، خرجت من المركز الثقافي السوفياتي لأنني لم أكن قادرة على تحمل ما كان يحصل لك ولي وخفت أن أفقد صوابي وتعقلي وأتهاوى بين يديك .

ربما كان خروجي المبكر أفضل لنا جميعا .

الفسحة التي أعطيت لنا للنسيان ، زادت من اشتعالنا . أنت على الأقل لك الحروف والجمل تقاسمها حزنك وأنا لا شيء لي إلا الصمت والتفكير بشكل دائم فيك . أكبر مشكلة في الصمت أنه صديق أخرس وأنا ، أناني ، يسمع ولا يجيب .

حبيبي الغالي .

أنا ضائعة وبحاجة لصوتك ولصرخاتي المكتومة . أريد أن أصرخ لكن شيئا ما لا يسمعني . أبحث عبثا عن وجهك وسط هذا الخواء الذي يزداد كل يوم اتساعا . هل تعلم حبيبي أن في داخلي تنبت العواصف المدمرة وكل يوم يزداد الطوفان الذي يأكل الأخضر واليابس عمقا وانجرافا ؟ أنساءل والإجابات تظل كالعادة معلقة في الفراغات التي لا تنبت إلا مزيدا من الخوف والهوات التي لا قرار لها : ياه ، ماذا تفعل الآن في خلوتك ؟ من يأتيك بكأس الماء إذا تعبت أو علتك الحمى التي نادرا ما تمسك ولكنها عندما تأتيك تقعدك عن الحركة ؟ كم أحلم أن أنساك نهائيا ولكن الغريب ، كلما وليت وجهي شطر البحر هاجمتني بحبك .

هل يمكن للمعاطف أن توجع كل هذه الحرائق؟ مشنقة إلى أخبارك . إلى دفتك . إلى أحاسيسك الرقيقة إليك بطولك وعرضك . هذه الأيام كنت متوترة جدا ولهذا لم أكتب لك . لم أستطع مسك القلم . ولا كسر هذا الطوق الذي يكبلني . طوق الحمامة المقموعة كما كنت تقول في أعماقك وأنت تتأمل بيني الذي يسبح في الفوضى . كلما رأيته أو سمعت أخبارك أخذتني الرجفة . كيف نسمي تصرفي هذا نحوك غير الحب فأنا لم أعد قادرة على إيجاد الأسماء . شيء من الخوف يدفعني نحو الصمت والابتعاد عنك والهرب من هذه المدينة بدون الالتفات ورائتي ، لكن هاجسا آخر غير عقلي يدفعني نحو البقاء لأراك ولو من بعيد . تصور إلى أي حد وصل بي الخوف . تمنيت أن أكتب لك شيئا آخر غير هذا الكلام ولكني لم أستطع . كم صرت أشتاق إليك . كلما لامست كلماتك ارتعش قلبي . انتظرت انقضاء الجمعة بصعوبة . رسمت للغد أحلاما . وفجأة يكبلني الخوف القاتل . قد لا يكون وهما . لم أكذب عليك . صارحتك بكل ما يأكل قلبي . في المرة الماضية ، أراني عيد عشاب وسيلفيا بيتك ثم هربا . وقفت طويلا في حي سوق ساروجا وعندما رأيته من بعيد ارتعدت كالعصفورة ثم انصرفت لأن جملة سخيفة عبرت رأسي في تلك اللحظة : هل يليق بامرأة متزوجة مثلي أن تقوم بذلك ؟ . مازلت في حاجة لأن أتعلم كيف أنتصر على حماقات النفس المستكينة لأوهامها . ندمت ذلك اليوم أنني لم أكلمك وتركتك داخل تساؤلات الخوف . في أعماقي كنت أريدك أن تحس كرجل أن العشق بالنسبة للمرأة ليس لعبة ؟ ليس هينا عليها أن ترتبط بشخص وهي متزوجة .

قلتُ اكتب لي . أريد أن أسمع صوتك الداخلي لا الواجهات الكاذبة وإذا تيقنت أنك نسيتني ، سأتركك ، بل سأهجر هذه المدينة حفاظا على سعادتك . وها أنا ذي أكتب لك وأنا في كامل جنوني ، أدفع ثمن الحماقة التي تنافسنا في ارتكابها . أحبك وأنا حزينة لدرجة الموت . اليوم الذي يذهب لن يعود أبدا . ضيقة هي المراكب يا صديقي ضيقة هي حياتنا

ضيق شوقنا وحبنا رغم كبره . جميل ما كتبته في المرة الماضية ، إنه يملأني . أنت تقتلني بكلماتك وأشواقك وأحزانك . أتدري أن نفس الفكرة راودتني وأنا أقرأك؟ قلت في ذلك الصباح لماذا لا أكتب له باسمه؟ لماذا لا ألفظه بشفتي؟ لماذا لا ألفظه بشفتي؟ نخبي أسماءنا لتفادي الحماقات القاتلة . خوفا من أن تسقط الرسائل بين يدي صالح أو زمرة وجدنا فكرة عدم تسميتها لإيجاد مبررات الدفاع عن كذبنا وشقاوتنا . أقول في خاطري : أحبه وأريده وطرز في البقية . راح يصير إيه يعني؟ يقتلونني؟ فقد فعلوها قبل هذا التاريخ بل فعلتها في نفسي بنفسي عندما انتحرت . وإلا كيف أسمى هذه الحالة؟ هذا الخوف من ذكر اسم أهر إنسان في حياتي؟ كنت أنت السابق بذكر اسمي : إلى حبيبي . . . م . . . ر . . . ي . . . م . . . أنت دائما تباغطني في الأماكن التي لا أنتظر فيها إلا قليلا . أليس كذلك يا حبيبي؟

بالصدفة اشتريت جريدة «نشرين» ، هذا الأسبوع فوجئت بمقالك حول الذاكرة الشعبية . ظننت أنك توقفت عن الكتابة . مقال جريء وصريح سيسبب لك أذى كبيرا . أفكارك لا يقبلها المهزومون والموتورون لأنك تمس جبينهم وضعفهم . إذا لم أكتب لك لا تزعل مني . فأنا لن أكون إلا لك . الرجل في بلادنا العربية يستطيع أن يتمتع بحريته كما يشتهي لكن المرأة التي في مثل وضعي ، عليها أن توقظ كل مكان حيلها لتستطيع الوقوف على قدميها والذهاب نحو حبيبها على رؤوس أصابعها حتى لا توقظ حساسية المأزومين .

اعتبرني اليوم صديقة لا تريد منك الشيء الكثير سوى أن تستمع إلى دعرتها الداخلي وتنشبت بك لأنك مألها الأخير .  
امراتك التي تحبك ولا تتمنى شيئا آخر سوى سعادتك .

البرد، البرد دائما وأنت تفتحمين الذاكرة بعنف شديد. عشرون سنة مرت على غيابك أنت وسارة، ما تزال اللحظات الأولى هي هي، في قمة اشتعالها. لا شيء فيها تغير. أراك، وإذ تأتين لا شيء يقف في طريقك. حزين وماذا يستطيع الحزن فعله أمام اليأس. ينتابني الإحساس أحيانا أنني مررت بالضبط بجانب الحياة. حاذيتها بدون أن أتمكن من لمسها ككل الخاسرين.

القدر كان متضامنا مع كل حماقة كنا نرتكبها.

من فيلا الإطفائية، كان الانتقال نحو البرامكة ثم الجامعة أسهل. اليوم علي أن أستيقظ باكرا وأقطع ممرات حي سوق ساروجا القديمة وأجري كمعادتي نحو المتحف، من هناك أركب حافلة أوتوستراد المزة للذهاب إلى الجامعة.

الحلم الذي رأيته الليلة لم يسهل مهمتي. فقد تأخرت وأنا أقلب وضعيتي الخاصة رأسا على عقب. ماذا يعني أن يلتصق رجل بامرأة اختارت حياة أخرى؟ أليس من الأجدي تركها تعيش تجربتها كما تشتهي؟ وأنا أركض نحو باصات الجامعة لم يكن شيء في رأسي إلا وجهك النبلي الذي رأيته في الحلم وابتسامتك الزرقاء وصوت المرأة التي عندما ولدت لم تر إلا الشوارع والعراء، إديث-بياف وهي تغني آلامها وأشواقها الدفينة. لا أدري كيف اتجهت نحو البريد مع أنه لم يكن في برنامجي. دخلت ثم خرجت بدون أن أفتح الصندوق كالعادة.

كان رأسي فارغا من كل شيء، حتى الحلم نسيته. رأيتك بجانبني،  
معلقة على ذراعي مثل سلة زهور. لقد صار ذلك الزمن بعيدا. بالصدفة  
التقينا بصالح. كان يهم بالدخول إلى البريد هو بدوره. مازحته.

- هذا الجري ليس طبيعيا. لابد أن يكون من وراء ذلك انتظار شيء  
خارق. رسالة معشوقة؟

- انتاع وجهي. أنتظر رسالة رسمية من وزارة الخارجية. موعود  
بالملاحقة الثقافية ببيروت. لو كان تحكم، مليح.

كانت مريم قد تركت ذراعي:

- يا يما واشحال تموتون على السلطة.

- شكون ما يحبهاش يا مريم مين تجيك على طبق من ذهب؟  
الوالد من وزارة الخارجية يساعدنا قليلا والبقية الأصدقاء هم من يتم  
المسألة. بلادنا هكذا تسير. في السياسة الذين يحكمون ليسوا هم  
الأفضل دائما ولكنهم الأجدر. الناس ليسوا كلهم سيئين ولكن هناك من  
هم أقدر على التضحية.

- بالوطن طبعا.

- تبالغين أكثر من اللازم.

ثم بدأت تحكين بانفعال ارتسم واضحا على وجهك.

- والله تافهون. اصطبياد الفرص. السيارات. البيع والشراء.  
أكرههم كما لم أكره شيئا آخر في حياتي. لقد افسدوا كل شيء، حتى  
الهواء اليومي الذي نستهلكه.

حاول مرة أخرى أن يدغدغك ببعض الكلمات. صالح لا يعاندك  
أبدا وأنت تعرفين جيدا نقاط ضعفه.

- أنت على حق جزئيا. الذين نعرفهم على الأقل جيدين.

- الذين نعرفهم ليسوا أقل انتهازية من غيرهم. المشكلة أن المرض  
صار عاما وذات يوم ستسقط البلاد على رؤوسنا جميعا وسيكونون أول  
من يهرب ويتركها تحترق.

اصفر وجهه كقشرة ليمون يابسة فقدت كل روائحها .  
 - على كل حال أنت وعرة . المسألة تحتاج إلى جلسة أعمق ونحن  
 في بريد مركزي .  
 مد يده إلي . حاول أن يختم الحديث بلطفه المعتاد ووداعته الثقيلة .  
 - يا الله . نلتقي قريباً ونناقش المسألة بشكل أعمق . نشوفكم بخير .  
 مريم ما تزغفيش بزاف ، مش مليح للصحة .  
 في الطريق إلى البيت ، أطلقت عليه رصاصة الرحمة وكان قد اندفن  
 بدوره في عمق البريد المركزي .  
 - شفت كيف تدافع الكلاب عن عظامها .  
 - كنت قاسية عليه . هذه خياراته .  
 - أهلنا يموتون وهم يلعبون بخيرات البلاد . كلاب لا أكثر .  
 أتساءل اليوم كيف وجدت نفسك في أحضان الكلاب وتلعبين في  
 ساحاتهم؟ أم أن جلودهم تغيرت وصارت خادعة؟ أم أنك صرت مثلهم؟  
 أغمض عيني وأحاول عبثاً أن أنسى كل شيء وأنا أعبر الطريق  
 الفاصل بين البريد المركزي والمتحف .  
 عاودني الحلم ولكن هذه المرة كان مشوشاً بسبب ضجيج الركاب  
 ومحرك الباص القديم والأنفاس الكثيرة .

يا الهامل يا مهبول، واش راح نقول لك؟

قضيت صبيحة اليوم كالمجنونة. لا أعرف ماذا أفعل، داخلية خارجة. طالعة نازلة. مهبولة تبحث عن شيء ضاع منها. كل هذا سمح لي على الأقل أن أراك قليلا في الجامعة مرة أخرى. رأيتك قبل يومين تعبر الحديقة أنت وصديقك الكاتب عبد الله أبوهيف وأم رنا ورجل ثالث لم أعرفه، تركضون وسط الجامعة للحصول على قرار المناقشة الذي تأخر في الصدور. وها أنت اليوم أمامي كالتمثال اليوناني، لم أكن أرى في مدرج شفيق جبيري إلاك. كنت سعيدة لحالة العمى الجزئي التي كنت مصابة بها. كنت نستعد للدفاع عن رسالتك. تبعت كل حركات عينيك وأنت نقرأ ما كانت نخبئه الوجوه الحاضرة. عندما وصلت إلي وقفت قليلا ثم عدت إلى شأنك وكأنك كنت فقط تريد أن تتأكد من وجودي. رؤية خاطفة أطفال على الأقل النار التي في القلب. رأيتك تدافع بعد أن نسيت كل المحيط الذي كان يملأ القاعة. استمرت المناقشة أكثر من أربع ساعات. كنت أتمنى أن أمتحك قلبي وجسدي وكل الألوان التي بداخلي لكن صالح الذي مر مسرعا مع جماعته لم يترك لي الوقت الكافي لتقبيلك. خرجت قبل الانتهاء من الدفاع. سيلفيا وعيد عشاب، قالوا لي إنك كنت رائعا. عندما غادرت المدرج كنت حزينة جدا. ذهبت إلى البيت وكأنني كنت متوجهة إلى مقصلة أو أزج في معتقل مظلم. قضيت اليوم كله مشغولة بك. وبكلماتك وسحرك الذي يملأني. بكيت بحرقة.

وسهرت ليلتها مطولا. لعنت خيبيتي وسنواتي والعمر كله والرهانات السخيفة التي لا تعمل الحياة إلا على كسرها. ها أنذي كآبة طالبة أنشوق للحظات رؤيتك. أركض وراء الأحلام الصغيرة كآبة مرهقة. تارة أتى نحوك وتارة يربكني الخوف. أحيانا أعيب على نفسي نزواتها الطفولية وأقول أليس من حقي أن أحبك على الأقل؟ هل صرت عجوزا إلى هذه الدرجة؟ صالح يقتلني بصمته وهدوئه ورصانته الزائدة أو بنقاشاته مع أصدقائه. ما يزال في القلب متسع للفرح والحب فلماذا أجبر على أن أوصد كل الأبواب؟ أحبك لدرجة أعتقد أنني صرت مجنونة بك، فلا تقل مرة أخرى أنك لم تفهمني، فهذا يؤذيني جدا أنا التي تعمل المستحيل لرؤيتك وتكذب لتكون فقط معك.

تعال أيها الممحون بالهوى وبنات البلدة. لم أستطع نسيانك أيها المهبول. تزوجت لأنساك فصرت مريضة بفقدانك المتكرر ولم يزدني غيابك إلا ضلالة والتصاقا بك.

ماذا يحدث هذه الأيام؟ أصدقاء صالح يتساءلون عنك كلما مروا على بيتنا: ما الذي جاء به إلى هذه المدينة؟ ألم يكن من المفروض أن يغادرها بعد المناقشة؟ كدت أصرخ: يا أولاد الكلب، إنه هنا من أجلي، ما دخلكم أنتم؟ توقفت الأسئلة في حلقي لقد تعودت على قبحهم أو ربما دُجنت وصرت أشبههم. ظلوا زمنا يدورون ويطحنون كآلات ويلوكون نفس الأسئلة الملتوية والوقحة أبدا عليهم يحصلون على ما يشفي غليلهم. ألوذ بالصمت لأنني لا أجد ما أواجه به سخافاتهم. في مدينة من خمس ملايين لم يروك إلا أنت وكم يشتهون اختفاءك. منذ تلك الفرقة لم آخذ منك شيئا إلا صورتك الحالمة التي خزنتها في ذاكرتي. فكانت ملاذي الأول والأخير.

هل تعلم أنني بعدك صرت عارية لا أعتنق إلا كلامك، ألبسه وأندفا به؟ هاأنذي أعطيك كل ما في قلبي. حتى زوجي لم ينح لي فرصة قول ما في داخلي. هو يرفضني ويحتفظ بي كنزاً له فقط. حتى الشهوة التي كانت بيننا انكسرت. لم أقبض إلا الريح. كتاباتك فتحت جرحا كبيرا

في الذاكرة. صرت أخفيها كمن يتنقل بقنبلة ذرية. أخاف أن أموت وتوجد في جيبتي. وماذا سيحدث سوى تحطم أنايتنا الصغيرة التي نحاول من خلالها إقناع الآخرين أننا على غير ما يتصورون. اتسع الجرح وكبر الألم وفقدت اليوم الرغبة في كل شيء إلا أنت. أتجمل وأتعطر وأخص أنوثتي باهتمام استثنائي من أجلك. أقنع نفسي دائما بموعد مفاجئ معك حتى أستطيع أن أقف على قدمي.

عندما أراك مع الآخرين أغار عليك. ليس من حقي. تعرف يا جيبتي لو كنت زوجتك لغرت عليك كثيرا من الطالبات اللواتي يحطن بك. وبما أنني جيبتك أفهمهن وأقول من حقهن أن يحلمن بك ومن حقك أن تكون مصدر فرحة للآخرات.

يجب أن تحذر من صالح، ليس بالسهولة التي تتصورها ولا بتلك السذاجة عندما يتعلق الأمر بالأذى. مصالحتهم كبيرة وكلهم أبناء مسؤولين ويعطونك الإحساس إن البلاد بدونهم ستسقط. سنستيقظ يوما على هول الفاجعة التي صنعها أسلافهم الذين يبيعون ويشتررون وسمنضغ بمرارة خيبة أسلافنا الشهداء. لا أحد من محيط صالح يحبك حتى ولو فعلوا معك مثلما تفعل الموس مع طريدها. ينتظرون أن تصبح البلاد بين أيديهم ويجهزون عليك. علينا. سمعتهم يقولون له:

— طلق ربها ولك نساء الدنيا. بدراهمك تشتري ما تشاء.

منعهم من الحديث في هذا الموضوع بحدة. سمعته يجيب:

— هذه زوجتي ولم آت بها من حديقة الحيوانات؟

— نحن لا نريد إلا مصلحتك. قريبا ستعين في بيروت كملحق

ثقافي ولن نصير ملك نفسك. سيتقاسمك الوطن معنا.

— ومن بعد. مريم. جميلة وإمكانها أن تكون امرأة عالية. هي

زوجتي. أما ذلك التافه ما دام بعيدا، لا يهمني. عندما يقترب سأحرقه

وأدمره. على كل عرف قدره، فانسحب بنفسه. لا أقبل من أحد أن يمس

حميمياتي.

لأول مرة أرى صالح صارما في شيء لم يعودني عليه أبدا. ربما كان يدافع عن نفسه وعن منصبه أمام الآخرين أكثر مما كان يدافع عني. هناك مساحة بملكها الآخرون، لا يستطيع حتى أكثر الناس تسامحا أن يتنازل عنها. يمكن أن يتقلب بعدها نحو الجريمة ولا يسأل، بل ستمطيه هذه المساحة كل مبررات الإقدام على الفعل الخطير. صالح اليوم يحرس كالكلب الأمين هذه المساحة باستماتة.

أرجوك، خذ الأمر بجدية. يغارون منك حتى الموت فلا تمنحهم فرصة قتلك. إذا كان لابد أن تدخل إلى الجزائر، افعل ذلك في أقرب وقت خصوصا وأنتك دافعت عن مشروعك في الجامعة وانتهيت منه. أما أنا... لا تشغل بالك. فسأتدبر أمري لوحدي. أعرفهم جيدا وأعرف نقاط ضعفهم.

حافظ على نفسك من أجلي على الأقل.  
أقبلك وأشتهيك وطز في القتلة.

حبيبك التي لا مناهل لها غير الجنون بك.

منذ أن كشف لها عيد عشاب وسيلفيا عن مخبئي، صارت مريم تأتيني إلى حي سوق ساروجا الذي كنت أظنه مكانا يقع في آخر الدنيا. حتى الأطفال الذين يحبونها كثيرا ما كانوا يسألونني عنها كلما صادفوني في الطريق:

- عمو؟ وينا طاطا مريم؟

- مسافرة، ما راح تبجي إلا بعد أسبوع.

وبعد أسبوع لا يتوقفون عن الأسئلة. هي دائما تجد فرصة لتسألهم أو تعطيمهم حلوى أو تحك رؤوسهم بكل حنان.

الثلج لم يتوقف منذ يومين ومريم تشتهي أن تأتي في مثل هذه الأوقات. كنت على أحر من الجمر. أتعذب مثل المرأة الحامل بالقرب من الصوبا (المدفأة)، وأنا انتظر شخصا عزيزا. عندما سمعت الدقات الثلاثة، عرفت أنك أنت ولا أحد غيرك.

- مريم، تأخرت. تأخرك يعذبني.

- لو تعرف المسالك الوعرة التي قطعناها لأصل إليك؟ كان علي انتظار خروج صالح والتأكد من أن زبانيته الذين يتصيدونني غير موجودين. ماذا أقول لك؟ كالعادة. لا هم تغيروا ولا أنا تعقلت.

كان بطنك قد بدأ يظهر، وفرحتك تكبر مثل الأطفال ولهذا تفاديت حملك بين ذراعي.

غاب صوتانا وسط ضجيج الكلمات وانكسارات القبل التي لم تدر أين تستقر .

- الوقت لنا . أريد أن أسمع صوتك حبيبي . اشتقت إليك .

- غيابك يعذبني وعجزي أمامك يذبحني .

جلست قبالي .

- هكذا ، أريد أن أراك بصفاء .

نزعت المعطف الإيطالي من على ظهرك والقبعة الصوفية البيضاء من على رأسك .

من حين لآخر كنت أرفع رأسي ، تواجهني صفيحة الذهب التي نقش عليها اسمك ، وهي تندرج على صدرك . كان يوما جميلا حين نزلنا إلى السوق الشعبية للصناعات الحرفية . وطلبنا من صديقنا الشاعر العراقي أن يختار أجمل صفيحة ويضع عليها اسمك بإتقان . حين عدنا إلى البيت وضعتها على صدرك . أتذكر أنك تعربت . اقتربت من المرأة ثم وضعتها بين نهديك الممتلئين وأنت تضحكين :

- أشياءك الثمينة هذا مكانها ، لا يمسه إلا المطهرون .

مددت يدي نحوك . شعرت بدفتك الكبير . لباسك البنفسجي جميل ، كانت له رائحة خاصة هي مزيج من عطرِكَ وعرق جسدك ، كلما التفت أعادتني نحوه . نحوك . مازلت حتى اللحظة أجهل عشقك لهذا اللون وسر حبي له . في لحظة ما سقطت على هوامش نظرة خاطفة ، رأيت غزلانا شاردة في عمق عينيك الملتهبتين وأطيارا جميلة ترقص من شدة الذبح وغابات تحترق وسمعت طلقات بنادق الصيد التي لا تخطئ أبدا طريدتها . أقسم أنني سمعت الذي لا يُسمع .

حين أرفع وجهي نحوك من جديد . أفاجا بعينيك ما تزالان مثبتتين في كمن يبحث عن شيء آخر خارج قسَمات الوجه .

لست أدري ماذا كنت تقولين ؟

بماذا كنت تشعرين ؟

ثم مددت يدك نحوي وسحبت كفي الأيسر ووضعتة على بطنك .  
ثم بعدها وضعت رأسي .

- هل تسمع بكاء سارة؟

- لا . سمعتها تضحك ، لا أدري إذا كانت تعبر عن فرحها أم عن  
سخريتها من كل ما حدث ويحدث لنا ولها .

- هذه المرة كذلك جئت باختيار وللم أمر عن طريق سيلفيا وعيد  
عشاب لأنني أريد أن تكون هذه اللحظة لنا لوحدها . سارة تكبر وبعد فترة  
قصيرة ستكون بيننا . هل تريدها؟

- يا مهبولة هذا خيطنا الرفيع وأصدق ما مارسناه طوال حياتنا من  
حماقات . هي ابنتي . لا يمكن للطب اليوم أن يكذب ولا يمكن  
لأحاسيسك أن تكون خادعة .

- كنت أريد فقط أن أعرف ردة فعلك ليس أكثر . لم آتيك من أجل  
هذا . جئت لأنني أشعر باختناقات كبيرة داخل هذا البيت الذي وضعني  
فيه كالدمية . كل الأشياء الجميلة تمر بدون معنى . مرورك على البيت  
السابق في تلك الليلة كان يؤنسني ، لكن الآن لا أشعر بأي شيء  
استثنائي .

- مع ذلك ، حزنك كبير جدا ، هل بك شيء؟ سؤال غبي . هل  
يمكنني فعل أي شيء؟

- حالة انكسار . لا شيء واضح . متعبة وقلقة . كم أشتهي أن ارتاح  
مرة واحدة من هذا العالم . وحياتك ، بدأت أتعب .

- إلى هذه الدرجة؟ حصلت على كل ما كنت تريدينه؟

- إلا أنت ، فقد فشلت في الحصول عليك . كل الأشياء الجميلة  
موصدة في وجهي . لماذا علي أن أفني العمر في القلق والخدع  
الصغيرة ، لأراك؟ لقد صرت أشتاق لأن أستمع إليك وأنت تتكلم وأرى  
حركات يديك وأنت تقص علي انشغالاتك وانكساراتك . تسألني كمادتك  
وأنا لا أعرف إذا كنت ساخرا أو جادا :

- هل كتبت شيئا؟

وأجيبك بعفوية رغم يقظتي :

- لا شيء لأنني لست كاتبة . أنت تريد أن تجعل مني ما لسته حقيقة . خربشات الطفولة لا تصنع أدبا ولا أدباء . أشواق وفضفضات ليست للقراءة ولكن لنسيان الهم . صديقك عيد عشاب يكتب لنفسه مذكراته وحبه المستحيل . لا يهमे الآخرون ، تهمة نفسه وأحزانها فقط . رأيت كم ورقة كتب؟ أحسده على صبره . على الإنسان أن يحس بقوة اليأس وغطرسته ليستطيع أن يصير شبيها بعيد عشاب .

قلت وأنت تضحك :

- طيب ، اقتلي على الأقل الشرطي الذي بداخلك بحد الكتابة وشفرة الكلمات .

- الشرطي؟ صعب . ألم تقل لي إننا نقضي العمر كله في إقصائه من حدود الذاكرة المتعبة وهو يباغتنا في أكثر اللحظات حميمية؟ ومع ذلك ، ما دمت إلى جانبي سأبذل كل جهدي للتغيبص على راحته على الأقل . قلبي مولع بك ولا شيء غيرك وسط هذا الفراغ المهول . تعرف أحيانا أشعر بنفسي داخل لعبة من أكثر الألعاب خطرا ، السقوط فيها سيكون قاتلا .

- من قال إن الحب سهل . هل هناك حب خارج الجنون والمخاطرة ولعنة المغامرة؟

- لا أدري إذا كنت أملك قوتك لمقاومة غيابك الذي يعذبني .

كان رأسي على بطنك .

- أما زلت تسمع سارة؟

- نامت قليلا .

- إذن أستطيع الآن أن أملا عيني بك . جاية معولة عليك يا محايينك . أريد أن أشنشفك ، أن لا أترك لك فرصة نسياني . أن أشبع

منك أبدا. صرت الآن على يقين أن الشيء الوحيد المضمون هو ما بين الأيدي وما تمنحه لنا الحياة في لحظة شاردة.

وبدأت تعرينتي وكأنك كنتِ تقشرين موزة. ملامس يديك الدافئتين وأصابعك الرقيقة كانت تثير كل مدافني وأشواقِي السجينة.

طفلين كنا بكل تعاستنا وأفراحنا. واحد فينا واقع بين التذلي على أعواد المشانق أو على متاعب الحياة المعقدة ويحاول بجهد جهيد أن يقف على قدميه، وآخر يقاوم تفاصيل الحياة اليومية خوفا من السقوط في مدفنة قد تمحو حياته بشكل فجائي.

تمتمتُ وأنتِ تلثمين شفتي الجافتين:

– أخاف أن أؤلمك.

حركتِ شفتيك بانزعاج. تعمق الأخدود الذي ينام على شفتك العليا وتحت أنف نافر نحو أفق غامض.

– أريدك، البقية لا تسألني عنها.

بدا لي وقتها أنك تكرهين كل ما يقربك من الأسئلة القاسية. كنت تنصنين إلى قلبك فقط. في داخلك الممزق، كانت تنهار الأسوار الصلبة والصخور البركانية المحفورة وتنشوه الدمى الكبيرة التي كنت تشتهين تزيين سريرك الليلي بها. هكذا أنت، لم تتغيري إلا قليلا. حين تشعرين بالإحراج، تقل كلماتك وكطفل صغير فوجئ يكذب على صديقه، تأكلين أظافر أصابعك. وحين أنبهك، تفتحين عينيك أكثر من اتساعهما العادي ثم تلتفتين نحوي، وتنتظرين نهاية الحديث. اكتفي بصمتي المعتاد. وأحاول أن أكتشفك من جديد من وراء إغفاءة مقصودة. تصفق عينك كطفل يتيم ثم تنامان على ألوان البلاط والمحيط. أنت هي أنت. لم تتغيري إلا قليلا. لحظة الشوق الحزين الذي يرسم في عينيك المرهقتين، تحتضنين خديك بين كفيك وتنكسين على ساقيك وتبدئين الحديث عن حياتك، وعن أحلامك كما لو أنك نزلت للتو على يد قابلة زنجية علمتك خفايا الدنيا قبل عيشها. يقولون في بلدنا إن كل من

تستقبلهم أيادي قابلة زنجية، يولدون ثرثارين وعارفين لمزالق الدنيا التي لا ترحم..

كنت ترتدين لباسا بنفسجيا يقترب من لون البحر حين يستقر بعد عاصفة. فضفاضا يساعد اليد على التوغل عميقا في جسدك. كنت فرحة كعصفور بللته الأمطار والثلوج، على الرغم من أنين الرياح الشتوية الجافة.

كانت الصوبا(المدفأة) قرب السرير. ثيابك مبعثرة في فوضى كما في أيامنا التي صارت اليوم بعيدة. أخذت يدي. شعرت برعشتك. مررتها على صدرك بهدوء. احترقت نيران الغربة في داخلي. كدت أشهق كالطفل باكيا وصارخا: يا ربك، لماذا كل هذا العذاب؟ هل صرنا ساديين إلى هذه الدرجة؟

نهداك كانا منتفخين وأكبر من استدارتهما العادية. هذه المرة تجاوزا حجم الكف. لقد فاضا بين الأصابع، ربما بسبب الحمل. وأنا أتقلب على السرير، رأيت من وراء الزجاج، ألوان البيوتات التي تتسلق الجبل وظلالها. كانت تطل علينا بخجل من وراء النافذة المنداة والمغطاة جزئيا بندف الثلج.

مع ازدياد حرارة الحجرة، شعرت بفخذيك يزدادان اتساعا وتقلصا، وشعرت بالرغبة تتكسر في كل أعضائي النافرة. تسلفت يداي المرتعشتان بطنك المتنفخ. سارة في سابع نومة. لا حركة أبدا.

فجأة وجدتني أحترق على شفتيك المرسومتين بإتقان كجمرة. كحطبة يابسة في محرقة، كنت أئن وأبحث عن بقاياي.

عاريين كنا، كجنينين سقطا للتو من رحم موجوع. صعدت على صدري. ذكرتني بكلمة قديمة.

– هكذا ستبادل الأدوار. الرجل عندما يحب امرأته يمنح لها فرصة النوم على صدره.

في خفاء ما، داخل حزن شبيقي، وألم الرغبة، حاولنا أن نندغم

كحرفين متشابهين، لم تبق بيننا زوايا سوداء نخبئ فيها أسرارنا الصغيرة .  
وفي لحظة ملتفة كالكشفة احترقنا تحت العرق المالح والأشياء الدقيقة  
التي تلهب الجسم . كنت حارة . عيناك مغمضتان في عالم يضج  
بالتناقضات التي لم تحسم في دماغك ، بالفرح . بالأس . بأشياء أخرى  
لم تكن في متناول طفولتنا التي كانت تستيقظ متأخرة . تناهى إلى مسمعي  
رنين أساورك البسيطة والسلسلة التي في عنقك والخواتم التي تزين  
أصابعك . حين أسمع هذه الأصوات المتناغمة ازداد رغبة في الاحتراق  
على صدرك ويصبح جسدي كله في حالة غليان .

تألمت وكنا قد بدأنا ندوب كقطع السكر الساخنة وأنت منغمسة  
فيّ، تبحثين داخل صدري عن المرافئ الرومانية التي كانت ههنا  
واندثرت فجأة .

- آي... آي... آي... -

- هل تشعرين بألم؟

دفنتِ الحلمة عميقا في فمي . رضعتُ . شعرتُ بالحليب يتدفق  
وبسائل مسكر وحلو يملأ فمي . رقصتُ على وجهك سحبات صغيرة  
من الخجل .

- أنا أمك يا مهبول . أحبك هكذا . أدخلني فيك أكثر . هكذا . أريد  
أن أحسك بكلك .

وأنت تدخلين عميقا في الجسد وتتوغلين ، غيرت النهدي الأيمن  
بالنهد الأيسر . كنت أشرب حليبك ويزداد الدوار في رأسي . شيئا فشيئا ،  
كنت أسكر بحليبك وبثفاصيل جسدك التي لم تضيع شيئا من ألقها  
الكبير .

تمتمتِ وعيناك مغمضتان :

- تعرف ، سارة ، ستكون سيدة بورجوازية . توحمت على البيسي  
كولا والتفاح والبنان الذي لا نراه إلا في الصور في بلادنا .

حاولت أن أتطلع إلى جسمك الخمري الجميل . تذكرت سيدي

عبد المؤمن بوقبرين الذي أقام صلاته الأولى، في بيدر، على حافة البحر. فقد صبغت سثته بشرتكم جميعا.

- وين تهرب مني يا يماك. جدي واعر. علمنا أن العشق جنون، إما أن يمارس بنفس القدر من الهبل وإلا لا داعي.

- وجدي امتداد لجذك، إذا لم يكن نفس الشخص، بنفس سمات الجراءة والحمق والمغامرة التي لا حد لها.

- يا أحمق كم كنت لذيذا.

- في جسدك طعم النباتات البرية، الخزامى والمارمان والشيخ وبقايا عود النوار.

- عود النوار؟ شبع مني وإلا ما زالت؟

- لا يشبع منك إلا من ماتت حواسه.

- سأتركك هكذا معلقا حتى تشتهيني أكثر كلما غبت عنك طويلا.

- لست في حاجة إلى الغياب الطويل. عند العتبة سأبدأ البحث عنك من جديد.

نهضت عارية بكامل طولك وعنفوان طفولتك التي لم تمت ولم تكبر أبدا. بطنك كان منتفخا. كانت سارة قد بدأت تعلن عن وجودها. لم أقل شيئا. كنت مأخوذا بكل شيء جميل فيك. رأيت في عينيك أشياء صغيرة، تنكسر كالأحجار البركانية وتنبت تحتها الأعشاب والزهور. كالزجاج العتيق. تنفتحت حتى تصير حصى ثم ماء. وتصير عيناك بحرا هائجا. وأتحول إلى زورق أبيض يروح في مصبات بردى. مشطت شعرك. تدلى على صدرك في شكل ضفيرتين. لونجا. ثم وضعت القبعة الروسية البيضاء على رأسك.

شربنا شايا ساخنا ودخنا قليلا. أردت أن أقول لك تفادي الدخان. ربتاك وقلبك؟ لكنني خفت أن أهدم هذه اللحظة فسكت.

في الخارج كانت الثلوج في أوجها.

حين هممت بالخروج قبلتني قبلة امتدت في داخلي لتحرق خلايا  
دمي المتبقية. كان النور يخرج من عينيك لامعا وحيا.

قلتِ وأنت تحبطين رقبتي بضميرتيك وبمقبضي القبعة الروسية  
الطويلين.

- وين تهرب مني؟ شكرا لك. أعطيتني الإحساس أنني ما زلت  
حية وما زلت مشتتة.

- أوف. عينك على روحك. أراففك.

- Non mon amour. Sans problème, je prendrai un taxi c'est plus  
facile. Dehors, il fait un froid glacial. Prends surtout soin de toi.  
Les tueurs ne feront de cadeaux ni à toi ni à moi. N'oublie  
jamais que tu déranges même par ta simple présence.<sup>(18)</sup>

- أنت كذلك حافظي على نفسك.

- جئتُك لأنني أخاف أن لا أراك مرة أخرى. على الأقل أحاول أن  
أشبع منك بالشكل الذي يعجبنا، وأنا قادرة على الوقوف على رجلي.  
ينتابني هذا الإحساس الغريب أنني لن أعود إلى هذا المكان ثانية. قد  
أموت بكل بساطة.

- أنت مبهولة وخيالك أكثر منك. الولادة صارت اليوم عادية.  
خوفك لا مبرر له.

- إلا حبك وخوف افتقارك. يقولون إن قبر النافسة يبقى مفتوحا  
أربعين يوما. يوم واحد منها كاف لأن يسلبنا حقنا في الحياة. هكذا  
مليح. سأفرغ الآن لسارة. سأكتب لك مع سيلفيا. وما تنساش هبالي؟  
تذهبين، أضع يدي على القلب المتعب خوفا من أن يتخلى عني.  
أمسح زجاج النافذة. أراك بلباسك الخشن وبالمانطو الإيطالي

---

(18) لا يا روحي. لا يوجد أي مشكل. سأخذ تاكسي أسهل. البرد لا يطاق في  
الخارج. خذ بالك من نفسك. القتل لن يرحموك ولن يرحموني. ضع في  
ذهنك أنك مزعج لهم حتى بوجودك البسيط.

القديم وأنت تفوصين بسعادة في كتل الثلج . أشعر بالحنين . تلتفتين .  
تبتسمين ثم تواصلين برشاقة تثبتي خطواتك رغم متاعب سارة . وأنتظر  
العودة المحملة بالفرح والعصافير ووجهك الذي لا يأفل . غدا سأراك  
وأرى النجمة التي كنا نستيقظ فجرا فقط لرؤيتها، ولا أريد أن أعرف  
البقية .

كانت ثلوج الشتاء قد غطت المدينة وأعالى البنايات والصوامع  
وأجراس الكنائس .

لوحث لي مرة أخرى بيديك .

رأيت الأطفال وهم يلحقون بك ويصرخون . . . طاطا  
مريم . . . طاطا مريم . . . طاطا مريم . . . كانوا ينطون كأرانب خرجت  
للتو من غيراتها . من حين لآخر يرشقونك بالكرات الثلجية الصغيرة بينما  
طفلة صغيرة تحضر لك الكويرات وتضعها في يدك اليمنى لتلقيها  
صوبهم . يتراكضون في كل الجهات كالنمل .

في الأخير، انحنيت بنفسك ولملمت كرة ثلجية ثم فاجأت بها  
الطفل الذي كان بالقرب منك . ظل يقهقه ويركض . . . يركض . . .  
ويصيح : طاطا مريم . . . هاني . . . هاني . . . التفتُ نحوي هذه المرة  
وأنت تبتسمين مثل طفل غمرته سعادة لم يستطع إيقافها ولا السيطرة  
عليها . بنتُ لك مليئا بشهوة الركض وراءك، حجز قتلة الروح في عيني  
كل الأشياء الجميلة . سمعت صوتك ونشيدنا المسروق الذي كان يردده  
وراءك أطفال حي سوق ساروجا . أنت التي حفظته لهم :

يا النو صبي، صبي،

ما نصبيش علي،

حتى يجي خويا حمو

ويغطيني بالزريبة .

ثم لملمت كرة ثلجية أخرى . وضعت عليها قبلة قبل أن ترسمي  
عليها قلبا صغيرا، تحت دهشة الأطفال، ثم رميت بها نحوي بكل قوة  
وأنت تضحكين بأعلى صوتك، فانكسرت على النافذة .

كنت ما تزالين حارة مثل الوطن وطفلة تعشق الألبسة الوردية  
وحارة الشواطئ التي لا ينتهي امتدادها.

عندما فتحتُ النافذة المغلقة لأراك، كانت السيارة قد سحبتك إلى  
دفنها ولم تبق إلا كرات الثلج التي كانت تتراقص في الفضاء والأطفال  
الذين لم يتوقفوا عن اللعب وصرخاتهم وأحلام مريم التي كانت تملأ  
حي سوق ساروجا الهادئ.

خرجتُ مريم للمرة الأخيرة.

وللمرة الأخيرة أغلقتُ النافذة على كل هذا الشوق المتدفق مثل  
حليب نهديها المدرار، وانزلتُ نحو الظلمة والبرد والعزلة وانتظار اليوم  
الموالي بفارغ الصبر.

ويبدو أننا عندما نحب، لا نسأل كثيرا. نعيش دائما على اليوم  
الموالي الذي كثيرا ما يتأخر.

أين أنت الآن؟

بدأت الآن أعرف لماذا الإنسان عندما يحب، يصير مجنوناً وهشاً مثل ورقة في مهب رياح الخريف وأمطاره.

أتساءل في حالات وعيي هل يليق بامرأة متزوجة أن تترك كل شيء، كبرياءها وصحتها وبيتها وتضع مصيرها في المزاد وتذهب نحو حبيب هي لا تدري ماذا يوفر لها من استثناءات غير ما يوفره لها زوجها الذي يفعل كل ما بوسعه لتصبح له وله وحده؟ أتساءل، هل يمكن لرجل كائن من كان أن يملك امرأة؟ من تجربتي التي لا يمكنها أن تكون مثالا، أشك كثيراً.

اليوم من أجل أن أراك ترددت كثيراً لا بسبب العيون سوى أن سارة صارت تنفص علي كل خرجاتي. كم أشتهي أن أقول له أن ما في بطني ليس له، هو للرجل الذي يشبه الأمير البريطاني الذي عندما كان يحتفل الناس باحتلاله سدة الحكم كان هو يحمل حبيبته على حصانه ويطلب أن تفتح له أبواب المدينة ليفادر الناس والمدينة، تاركا وراءه كنوز الدنيا لغيره. شعاره كان، الحياة حظ يعطى مرة واحدة ولهذا أنا اخترت الحياة وكل ما عداها فهو لكم. اختاروا الرجل الذي يناسبكم أما أنا فلا أطلب شيئاً آخر سوى فتح أبواب المدينة للخروج. ولكنني أعدل عن رأيي لا جبناً ولكن ضعفاً أمام ود صالح وحبه لي. هو كذلك له قلب ولكني

أحيانا لا أستطيع أن أعادي قدرتي حتى ولو قادني نحو حتمي .

عندما وجدت نفسي في ساحة التاكسيات أدركت كم أنه من الصعب أن تجد مسلكا نحو المدينة. كانت الأمطار تتساقط بقوة. فكرت أن أعود. شعرت بسارة تسعمل من شدة البرد والثلج الذي كان قد بدأ يتساقط. ارتدبت معطفي الإيطالي الذي يسحرك والذي اخترته لي بنفسك في أحد المحلات الباريسية في «سان ميشال»، عندما كنا عاشقين واللباس البنفسجي الذي اشتريته من محل بجانب مسرح الحمراء الذي كثيرا ما احتضنتنا بين حيطانه الواسعة وتعطرت بما كنت تشتهيني به، عطر Poème. كلما تعلق الأمر بك لا أستطيع أن أقاوم. أترك نفسي عرضة أهواء النفس البريئة. اشتدت الأمطار والثلوج، سعدت أنني حملت معي مطرني الخاصة رغم كرهني لها ووضعت قبعتي الروسية البيضاء على رأسي. غزارة الأمطار أثقلت خطواتي. ظللت أنكى وسارة تبكي بأعلى صوتها الذي لم يكن أحد غيري يسمعه. عقارب الساعة تدور والسيارة تأخرت كثيرا. لم يكن شخص واحد في هذه المحطة سواي. لا بد لمن كان يتأملني من وراء نافذة بيته أن يظنني مجنونة. كان الماء يتزحلق عند رجلي وصار جسمي ثقيلًا. زحفت الساعات بدون جدوى. وأنا في طريق العودة إلى البيت توقفت سيارة عند رجلي وجتتك وأنا مصممة أن لا أحدثك عن مغامرتي. كنت أريد أن أفاك كما تشتهيني أن أكون لك. وعندما تركتك كنت سعيدة أنني رأيتك للمرة الأخيرة لكنني في الأعماق، عدت منكسرة القلب وأنا أفكر فيك وأنت في الزاوية الأخرى في عزلتك. هذه المرة حببتك لن تعود مرة أخرى إلا وسارة في يدها. ستقضي بقية يومك الممطر المثلج لوحذك. كنت أريد أن أضع بين يديك ابني الأول لأقول لك كالمجنونة: كان يمكن أن يولد في حضنتنا لولا حماقتك التي لا معنى كبير لها. كلما تذكرت حماقتك، حقدت عليك. ألم يكن بإمكانك أن تحافظ علي من التلف؟ لا شيء الآن. أجلس من وراء الشباك وأكتب لك هذه الكلمات بحزن كبير. سعادتي الوحيدة والكبيرة أنني رأيتك والتقيت بك حبيبي مرة أخرى. عندما لا

أراك أجن . غيابك عني يؤذيني . أنت حاضر في الزمان والمكان . في الحلم وفي اليقظة . في الهواء الذي أنفسه . كما قال الحلاج : ما تحت الجبة إلا الله . وأنا أقول : ما تحت الفستان إلا أنت . أنت وحدك ولا أحد غيرك . هذا الحلول الكلي في زمن الحزن والغياب يقتلني ، يمتص نضارتي وكل مقاومتي ويربك أعصابي . لقد زدت اشتعالا بك . حلت بي لعنة ميديا عندما انتحرت ووجهت لعنتها لبنات جنسها .

يا صديقي إننا في هذه البلاد عرضة لكل المحاولات القاسية لإبادة أحلامنا الصغيرة . كل معقد يريدك في النهاية أن تشبهه . أن نصير صورة عاكسة لكل كذبه . أنا لا أستطيع . كذبتني التي أجراها على ظهري منذ سنوات تكفييني . أنت فنان كبير لأنك لا تستطيع أن تخبئ أشواقك . رهافتك تفضحك . وشعيرتك تعبق من بعيد . سيبقى صوتك عالقا بذاكرتي عندما يسحبني الموت نحوه . اعتقد أن الصوت الوحيد الذي سأسمعه وهو يناديني هو صوتك يا حبيبي . تصور ، لقد كتبت قصيدة فيك . لأول مرة أكتب شعرا في رجل . أراك الآن تكتم سخرتك الممهودة . يشفع لي قلبي فقد كتبتها برضاه . اسمع . .

لم أدر أنك سرقت قيودي من زنانات العذاب .

لم أدر أنك أطلقت وثاقي من صمت الخراب .

أنقذتني من قهر العزلة وصمت الموت .

لم أدر أنك هوائي عندما تسد المدينة مغالقها .

وفتحت لي كل حدائق الجنة في قلبك . وقلت لي : أحبك .

أحبك؟ أبحث لي عن كلمة تشبهني .

قل أعشقت ليستريح قلبي .

أراك تكتم ابنسامة . يا بختك ، ما اقل حياءك . أنعرف أيها الساخر مني أنك أول مجنون أكتب له هذه الحماسة في حياتي . لم أفكر يوما واحدا في أن أنظم جملة واحدة لرجل . عادة ، الرجل هو من يكتب عن عشيقته ويرويها بالكلمات ويغدق من أبجديته . لم لا أكون سبابة إلى

ارتكاب حماقة الكتابة لرجل نعشفه ولا نطلب منه شيئا سوى أن يحافظ قليلا على القلب الذي منحناه له بدون تردد ولا مقابل . قلل من سخريتك فلست شاعرة مثل امرأتك الأولى التي تركتها وراءك في وهران تكتب الشعر وتنسج الأغاني . هي تعودت على الكتابة والفرح وأنا وجدت نفسي في حالات البؤس مع رجل اختارني أكثر مما اخترته . سمعت الآن شيئا أحدث دويا في المطبخ . خفت . ظننت لصا جاءني ولكن في النهاية لا شيء . القطة العمياء التي أصبحت ندهم كل شيء منذ أكثر من أسبوع . يبدو أن حالة العمى زادت عليها . ساعدتها وأعطيتها الأكل وتركناها تنام وعدت لك لأنهي هذه الرسالة .

جنتك متجاوزة كل الخطوط الحمراء ولم أسأل عن المخاطر ولا نصائح الطبيب بالتزام الفراش قدر الإمكان . كنت فقط بحاجة إليك وإلى الثلج والأطفال الذين غسلوا القلب المنهك؟ بدأت أياس من حالتي المرتبكة . من نفسي . من جسدي الذي بدأ يتعطل كلية . من إمكاناتي العقلية . شكرا أنك منحتني ساعة حب لأنني أشعر دائما بأنني لن أراك ثانية وقد أموت أثناء الوضع . لقد صرت هشة . سارة تعذبني ولا تمنحني فرصة واحدة للراحة .

احذر . صالح يستعد للمكروه . لقد شحنه المأزومون ضدك كما تسميهم . لقد تعودت على سماع حقدهم وأنا في الفراش بين النوم واليقظة . البارحة فقط ، عندما كانت سارة تذيبني عذابها ، انسحبت نحو فراشي وتركت صالح معهم غارقين في الكارطة والدومينو والأدخنة الخائفة . أغمضت عيني وتركنتني أغرق في تفاصيل ذلك اليوم الأبيض مثل الثلج . بعد ساعة ، دخل علي صالح ليطمئن أنني نائمة ، وعاد بسرعة نحو المأزومين . سمعتهم يذبحونك من الرقبة ويرمونني بكل الصفات . لم يؤثر في شيء ، فقد كنت بكلبي فيك ومعك ومن حين لآخر أنزلني داخل زورق ABDA الذي ركبته جدي عبد المؤمن في ذلك الشتاء البارد من القرن الثالث عشر ، لبأتي إلى بيدر ويقيم صلواته الأولى على مشارف البحر . لم يكن جدي يبحث عن رخاء دنجوي ولا عما يدهش به

الآخرين، كان يبحث عن مسالكه المتشعبة، فوجدها بالضبط في الهضبة الصغيرة المظلة على امتداد الساحل المسيردي المتوحش والصافي. قال لمرافقيه، هذا مكاني وأقام صلواته الأولى التي نسي فيها الله وصار يفكر في عظمة البحر.

الله يرحمك يا جدي العظيم، كم كنت طيبا ومتسامحا مع كل الناس. أصدقاؤك التربة والبحر والسماء، وما غيرها زائل فان. الله يرحمك يا جدي وينور عظامك.

كنت سعيدة بشتائمهم لأنها تأتي منهم. لا أحد يسلم من ألسنتهم. الشخص الحاضر معهم هو الأفضل دائما وعندما يتوارى يصبح هو نفسه أوسخ إنسان.

تعاليت أصواتهم الخائفة دفعة واحدة مصحوبة بالأدخنة الكثيرة. كنت بين ذراعيك، في غيبوبة من السعادة.

— يجب أن تكون صارما يا صالح. تراخيك يضيع عليك منصبك الذي صار اليوم مؤكدا. الحب حق ولكن ليس الإذلال.  
— هي لم تفعل شيئا.

خفت أن يكون أحدهم قد رأي. سمعت خطوات صالح وهي تعبر البهو. اقترب مني. استنشقت أنفاسي كالكلب ثم رجع نحو جماعته. سمعت تمتننه التي كانت تخرج من جرحه نحوك ومن حقله.

— هل رأها أحد منكم تذهب نحوه في غير الأماكن العامة؟

— لا. ولكن لا ثقة في المرأة.

عدت إلى صدرك العاري مرة أخرى، أحتمي بك من بطشهم. كانوا يدملمون.

— الأحسن أن تنبه جيدا. طلقها. نخلص من ظلها. أطردها وادخله السجن فلن نخسر شيئا. اقتله. حطمه كما حطمتك. اقلع له قلبه. أقلبه.

— ولكنه حتى الآن لم يفعل ضدي ما يسيء إلي أو إلى مريم.

— يكفي أنه سبقك إلى أحضان مريم.

— قصة وانتهت .

— هل تعتقد أن المرأة تنسى حضنا منحها الحرية والحب وأخرجها من ظل أختها الذي ظل مهيمنا عليها؟ راك غالط يا السي موج . راك تلعب بالنار يا خويا؟

— ولكنها زوجتي وهي أم سارة حتى إشعار آخر .

لكنهم في مجلسهم السخيف اجتمعوا وانفقوا بالإجماع على كسرك . أخذتني بعدها الإغفاءة ولم أتعرف على حدود اليقظة وحدود النوم . منذ هذه اللحظة لا أتذكر شيئا سوى قيامي مذعورة في آخر الليل والدم يسيل مني ، بينما كان صالح بشخر على كنبه الصالة المليئة بروائح السجائر الأجنبية . القرار الرسمي كان كالآتي ، صرخ أحدهم : يحاكم محاكمة علنية . يجرد من كل حقوقه المدنية . بينما تجر الجارية إلى القفص . نجهز عليها في الليل . ننشأ أنيابنا فيها . يقطع لسانها ويقل حزام العفة على فرجها . تكلف جماعة من المختصين بمراقبتها وضبطها بالجرم المشهود . نترك الخائنة تحت المجهر ، وهي مدانة حتى تثبت براءتها . تمنع مصافحتها . لا نكلمها نحن المتزوجين حفاظا على بيوتنا . أما التافه ، مطالب بتبرير موقفه أمام كل الناس إمعانا في بهدلته . وشرح لنا ماذا يقصد بالكتابة التي حولها إلى ملجأ لكل خطاباته الجنسية . الشرف يظل هو الشرف . وأقل محضر الجلسة بالإدانة الصارمة . الجارية تريد أن تتكلم . عليها أن تخرس نهائيا . الحب . حاشاك من كلمة حب . قومي يا فاتنة ، قبلي أرجل الوحش واطلبي صفحه . لم تقل الجارية شيئا . لئلا أقوال الشهود . الشاهد الأول : رأيتة يقبلها بأمر عيني . الشاهد الثاني ، ما رأيك أنت صديق العائلة . سيدي الوحش لا ثقة في النساء حتى ولو كانت أمي . لو كنت مكانه لطلقتها . الشاهدة النسائية الوحيدة : بحكم صلتك بالمتهمة هل صحيح ما قيل عنها؟ سيدي الوحش ، كانوا يعيشون في كومونة ، في فيلا الإطفائية ويجوزون ما لا يجوز . ما أبشع ما يخفون وما يفعلون . سيرك من الجوارى . ملعونة يا سيدي ، تحجب زيفهم وحقدهم . الوحش يستفسر مرة أخرى : ماذا صنعت أيتها الجارية . لا

شيء يا سيدي أحببت من كل قلبي فقط ويبدو أنني أخطأت. يصرخ الوحش: عن أي حب تتحدثين. بشس ما تذكرين. الناس قالوا. الناس يقولون والشريط لن ينتهي أبدا ستدفعين الثمن حتى الموت. أغلق ملف الخائنة والثافه الذي يظن أن الدنيا ملكا له. سبقت مع تأجيل التنفيذ مؤقتا. طأطأت الطفلة رأسها وخبات انكساراتها. الرجل الذي تحبه غائب عن الدنيا وبعيد عنها ولا تدري إذا كان يعرف القصة. ليلة واحدة قضتها معه في حياتها ولكنها تساوي العمر كله. في تلك الليلة عندما هاتفها لم تكن تعرف أنه هو كذلك كان مجنونا بها حد التوهان عندما زارته في ذلك اليوم البارد والناصح البياض. تعطرت من أجله. لأول مرة تحس بالذوبان بين أحضان رجل. ياه من أين كان يأتي بكل هذا السحر. تمتت في غمرة الحب. كيف تعلمت كل هذا الحب؟ من علمك؟ امرأة هي كذلك أحبتك وتتعذب لأجلك؟ لم أنم في أحضان رجل بهذه الطريقة مثلما فعلت معك. أنت نفسك كنت استثنائيا. لأول مرة أغمض عيني وأنا أقبل رجلا. تدفع الثمن اليوم بمزيد من الخوف والذعر. رأت نفسها في الباحة بين يديه كمشة من النور. قال بحنو في أذنها، كان مشتعلا من جراء الكؤوس الأخيرة التي حركت كل مدافن الحب: أعذريني. أحبك حتى الموت. منذ سنوات وأنت في القلب، اليوم لم يعد البركان قادرا على التحمل. انفجر. كلما ذكرت كلمة حب، ينهض الوحش من مكانه ويضرب رأسه على الحائط. يا عاهرة. لا يوجد حب، هذه خيانة زوجية. الوحش لا يعرف أنه لا توجد خيانة زوجية توازي تلك التي تمارسها أغلب الزوجات وهن يفكرن في أشخاص آخرين في فراش أزواجهن. عندهن حق. أغلب الرجال دواب يؤنسها الكذب.

لم أفهم الكثير. لا وجود للوحش. كنت وحدي داخل هذا الفراغ بصحبة الرجل الذي نام وفي يده حجرة الدومينو الأخيرة التي لم يعرف ابن يضعها. ولكنني شعرت بالحرائق والخوف وأنا أتأمل الدم الذي بدأ يسيل بقوة. كان النزيف قد بدأ. تلفنت بسرعة إلى سيارة أجرة، إليك وسيلفيا التي ما تزال تحت وقع وفاة عيد عشاب الفجائية الذي أكله

البأس أكثر من كأس عرق الريان وإلى المستشفى وخرجت انتظر عند الباب وأنا أُلَف حوضي بالأقمشة والقطن، بدون أن أوقف الدابة التي كانت تشخر وسط الأدخنة والكوابيس المخيفة.

لو انتظرت أكثر كنت مت في اللحظة نفسها.

ليكن، وجهك كان يملأني ويعطيني مزيدا من المقاومة والصبر ولم أكن بحاجة إلى الآخرين ولا حتى إلى زوجي.

لك قلبي وجسدي وروحي وكل هبلي.

حبيبتي التي تنتظرك دائما. ما تهيلش بزاف.

كان رأسي يشتمل بالخوف والأسئلة .

أبواب مستشفى الرازي نصف مغلقة . لم أجد صعوبة كبيرة في إيجادك . كنت أعرف أن عيادة الدكتور أحمد الدهمان كانت تحتضنك وأنه هو الذي نصحك بالتوجه إلى المستشفى الذي يشغل فيه خارج أوقات العيادة .

سألت أول موظفة صادفتني في طريقي ، قالت :

- في الطابق الثالث ، قسم الولادات . لقد أوقفوا التزيف ويمكن أن تلد في أي وقت . فهي بخير ولكن تحت العناية الفائقة .

صعدت بسرعة بدون أن ألثفت ورائي . لم أنتظر المصعد الذي كان مشغولا بإحدى العربات التي كانت تقل مريضا . لم أفكر كثيرا .

رأيتك . كنت مشرقة مثل وردة وكأنك كنت تسخرين من كل ما كان يحيط بك .

- وحياتك في البداية ظننت نفسي أنني سأموت لكن الظاهر عمر الشقي باقي .

- هل زارك أصدقاء؟

- حتى الآن لا أحد . من يأتيك في هذا الليل؟ لا أحد يعلم إلا أنت وسيلفيا . ثم أي أصدقاء إذا كان زوجي نفسه ما يزال حتى الآن

يشخر في فراشه؟ تركت له ورقة صغيرة، إذا انتبه لها فسيأتي حتما وإلا في ستين داهية.

وقبل أن أحتج، كانت سيلفيا قد دخلت. سيلفيا كعادتها، كانت مذعورة، وجهها أصفر وصلب مثل ليمونة جافة.

- إن شاء الله خيرا حبيتي. شو صار.

- لا شيء. دلع سارة. الأيام الأخيرة صعبة جدا. هكذا أكد لي الدكتور أحمد. نصحتني بعدم الحركة لكنني مهبولة. دائما أركب رأسي وأخرج حتى في الأيام الممطرة والمثلجة.

ثم نظرت إلي. فهمت. لم تكوني بحاجة إلى الشرح.

سألتك عن صالح. لم أجزؤ على فعل ذلك قبلها.

- يشخر في فراشه.

- أخبرته؟

- سكران ومتعب من كثرة الكارطا والدومينو. لم أشعر بالحاجة إلى فعل ذلك. تركت له ورقة. لو انتظرت يقظته، كنت الآن في عداد الأموات.

- المفروض أن تخبره بالهاتف مثلا. من حقه أن يعرف وضعك. أنت حامل يا حبيتي ولا يمكن أن لا يعرف وضعيتك.

- نور الصباح بدأ يشق ظلمة هذا الفجر. الطبيب قال لي إن الولادة قريبة جدا وعلي أن لا أتحرك كثيرا.

قالت سيلفيا وهي تلتفت نحوي:

- بإمكانك أن تذهب لترتاح. سأبقى مع مريم حتى الصباح. لا داعي لوجودك الآن. تعبك ما إلو معنى.

- يا سيلفيا أنت نفسك في حاجة إلى من يواسيك. أنت متعبة. ربما من الأفضل أن تدخل ليبيتك.

- مجنون؟ وماذا سيقول صالح لو وجدك هنا، ستورط مريم معك؟ بالنسبة لعبد الله يرحمه ويسكنه فسيح جنانه، سيظل في قلبي أبداً ولا توجد أية قوة في الدنيا تنزعه مني، بما في ذلك الزواج الذي يريده والدي. ماذا فعل الزواج بكما؟ لا شيء. ما زلتما مثل البارحة بل ازددتما اشتعالا.

- نحن لسنا مقياسا.

- ومع ذلك نتعلم من تجارب بعضنا البعض.

التفت نحوك لأستنجد بك من صرامة سيلفيا وقوة شخصيتها وطبيعتها العالية. قلت:

- ما عليهن روح حبيبي لبيتك. كلمني من هناك. سيلفيا معها حق. وأنا أحتاج إلى امرأة أكثر مما أحتاج إلى رجل في مثل هذه الحالات. البقية سيقوم بها المشفى.

قبلتك على جبهتك. ضغطت على يدي بقوة. تمتمت في أذني.

- أ... ح... ب... ك... لبكرا يا روجي إن شاء الله.

عندما خرجت كان الهواء بارداً جداً. نمت في الليل بصعوبة بينما ظلت صورة عيد عشاب الذي خرج من لعبة الدنيا مبكراً، عالقة بذهني وهو ساهر كعادته معي في لحظات الأزمة على كأس العرق. يقول إنه لا يحتاج إلى نوم كثير. الأفضل لقرحته أن يظل صاحبا.

سمعت في خفاء ما وهو يحادثني كعادته وينصحني:

- حاول أن ترتاح. قد تحتاجك مريم غداً. لا تشغل بالك. أنا متعود على هيك حال. العرق يساعدني على مقاومة بؤس النوم. أقضي أحيانا أسبوعاً بدون أية غفوة، مأخوذاً فقط بخزرة سيلفيا وبيأسها وبعينيتها الخضراوين اللتين تشعان حياة وحيا.

وأرد عليه وهو منهمك في الحديث إلى نفسه، هكذا كلما تجاوز عتبات الكأس السابعة:

- يا عيد الحب حظ كبير يوضع بين يدي الإنسان، عليه أن ينشبت

به حتى الموت. تصور كيف ستكون الدنيا لو لم يكن هناك امرأة تقاسمنا ظلمة الحياة؟ للأسف، الإنسان يملك قدرا مبطنا من اليأس يدفع به دائما نحو تدمير آخر حيطان البشرية الذي بقي واقفا: الحب. احفظ سيلفيا في عينك.

- ماذا أفعل؟ قتلة الروح كما نسميهم في كل مكان.

- ومع ذلك نملك مسافة متقدمة عنهم، إننا نستطيع أن نصحح حماقاتنا الصغيرة. بمجرد خروج مريم وسارة من المستشفى سأتي بهما مباشرة إلى البيت. وستطلب الطلاق من صالح حيا إذا أراد أو المحاكم يبتنا. لا يمكن أن نظل هارين من الحياة.

- أنا دائما أتساءل وأقول إذا لم تكونا في النهاية أحمقين لتركبا رأسيكما لدرجة التلاشي والموت بهذه الطريقة؟

ألثفت نحو عيد لأشرح له بالتفصيل عن حالتنا فلا أرى إلا السراب والظلال الهاربة وعلامات الموت الذي يكسر في زاوية ما من زوايا البيت قبل أن يغادر من النافذة المشرعة على الألم. عيد لم يكن هنا. عيد هناك حيث الماء والنور الذي يغشي الأبصار، داخل المعبر الذي سلكه سيده الأعظم، فاتحا عينيه عن آخرهما.

«باب الخيبة: هل الدنيا بكل هذه الوقاحة وهذا النكران؟

يوم 25 كانون الثاني (جانفي) الموافق لـ 9 ذو الحجة، كان اسود يوم في حياتي، من أوله إلى آخره؟؟؟

كل شيء كان يسير على عكس ما كنت أحلم.

اليوم عدت من الجامعة منكسرا. كنا ننتظر وصول سهام للمناقشة ولكننا فوجئنا بخبر وفاتها معلقا على مدخل مدرج شفيق جبيري. في البداية عندما سمعت بخبر وصولها من الأصدقاء في الرابطة، كنت مندهشا وزعلانا من سهام التي قيل لي إنها وصلت المدينة للدفاع عن بحثها عن ابن عربي والصوفية ولم تتصل بي مع أنها في الأسبوع

الماضي فقط أكدت على مجيئها في التاريخ الذي حددته لها الجامعة. انتظرت في المطار يومها ولكنني عدت بخفي حنين. فطومة هي التي أكدت لي أنها سمعت أن سهام وصلت قبل يومين ولا تريد من يزعجها وتحتاج إلى بعض الوقت لاسترداد أنفاسها استعدادا للدفاع عن مجهودها العلمي. أقسمت أنها رأتها وأنها بصحة جيدة على الرغم من أن وزنها نقص كثيرا ولون بشرتها الخمرى بدأ يميل نحو سمرة داكنة.

سهام لم تكن تعرف وهي تستعد للسفر، أنها كانت تخطو برجلها اليمنى أولا نحو عوامة الدليل لتغرق في نور المصباح القوي والمغشي للابصار والذي يقود إلى اللامنتهى حيث كل شيء نور وماء.

الدنيا تعيش من لحمتنا وإلا لا يمكنها أن تستمر. صاحبة البيت يبدو لي أنها صارت مجنونة بالكامل. لا أدري ماذا يحصل في رأسها لكنني متأكد أنها تحرستني. عدت من مواعي مع سيلفيا في حالة يرثى لها. سيلفيا بكّت كثيرا من عجزنا. أبوها اتخذ قرار تزويجها من ابن عمها في هذا الصيف. جورج غادر البيت احتجاجا ولا أحد يعلم أين. وأنا في وضعية مادية ونفسية لا تسمح لي بالهرب معها. فتحتُ الباب. وجدت كل الوضعيات قد غُيّرت. فقد سمّرت النافذة المطلة على بلكون سيلفيا. وغيّر موقع السرير وفتحت النافذة المطلة على الفراغ ومكان نفايات الجيران. كانت الحجّي كما يسميها الجميع، أو صاحبة البيت، هناك، تنتظر عودتي وردة فعلي. لم أقل شيئا فنكلمت هي.

– شوف يا عيد. ما أحب وجع راس. الجيران بيشكون منك.

– يا حجي، أنت بتعرفني أنني ماني أزعر ولا صاحب مشاكل. بالنسبة لسيلفيا طلبتها من أهلها وفق شرع الله والدي الذي تعرفينه جيدا على علم بذلك. ما فيه شيء يبزعل ربنا.

– أنت مسلم وهي مسيحية، كيف راح بتسوي؟

– أطلب النجدة من الله ومن الدولة.

في أعماقي، كنت أسخر من كل هذه المهازل.

– شو راح بتسوي لك الدولة؟

– بتنصفني.

– ودينك؟ تتخطاه. مستعدة هي أن تسلم؟

– مستعدة.

– وأهلها؟ بيرضوا؟ أنت بتلعب بالنار.

كدت أقول لها، إذا ما أرادو ساعتق المسيحية. شعرت بعينيها الصغيرتين تنتظران هذا الجواب بالضبط لترميني أنا وعفشي الهزيل خارج هذا البيت الأجرب. لم أقل ذلك. احتفظت به لنفسي. أعرف رأيها. حموية سنية منغلقة على نفسها.

– ربنا عزيز حكيم.

– راح بتوضعها فين هي المراء؟ على راسك.

– بيفرجها. مو الله عزيز كريم؟

– سبحانه.

قالتها جافة وباردة ثم خرجت، بينما رحت أجرب النوم عبثا. صحيح أنني لا أهتم كثيرا بهذا الجانب وأشعر أن أكبر مضيعة ابتدعها الإنسان وأكبر خطأ حصل في الخلق هو أننا نضيع ما لا يحصى من الساعات والأيام والسنوات في النوم وفي التواليت. ما في حل آخر؟ ألم يكن أمام الله عز وجل أن يجد وسائل أخرى لا تجعلنا نضيع كل هذا الوقت؟

بوف؟ يبدو أنني تجاوزت العتبة وبدأت أخرف.

لا أدري كيف وجدت كلماتي المقنعة أمام الحجي، ربما غريزة حب البقاء الحيوانية.

في هذا الفراغ الذي يحوطني من كل الجهات، نسيت كل أحبابي، حتى سيلفيا. كنت عبثا أحاول أن أفك الرسوم والألوان التي ارتسمت في عيني سهام وهي تكتشف معي لأول مرة طوق الياسمين وتقص علي المشهد الذي رآته ونحن ندخل الدهليز المظلم قبل أن تغرق العوامة من جديد في بحر الأنوار.

من أوراق عيد عشاب.

أينك يا عيد؟

يبدو لي أحيانا أنك انطفأت من كثرة الشرب، غبت مؤقتا عن محيطك وسرعان ما تعود. لو تعرف ولكنك أنت على الأقل صمتت أن لا تعرف البقية. خرجت مبكرا من هذه الحياة ولم تعد لها. أقسمت أن تظل هناك ولا تلتفت ورائك، كما يفعل عادة الناس الطيبون. أتساءل أحيانا كيف امتلكت شجاعة ترك سليفيا التي أعطتك كل شيء جميل فيها واحتفظت بقسوة القدر لها؟ كيف فضلت عليها حفرة وكمشة تراب وقبرا منسيا باردا لتصير محاذيا لسيدك الأكبر ابن عربي؟ ألم يكن أمامك طريق آخر غير طريق الموت؟ أأخفقت إلى هذه الدرجة بالذهاب بحلمك إلى مداه؟ وهل الموت وحده هو المدى الممكن؟ عندما تغرق في كأس العرق، لا شيء يغير يقينك من ظلم الدنيا التي تعيش من لحمنا ومن سفالتها كالحية كما كنت تقول دائما. اللعنة التي أيقظتها فيها تؤذك وتؤذيني لأننا لا نملك حيالها شيء الكثير.

عندما وضعت رأسي على الوسادة، كنت متعبا. حاولت النوم عشا. لم أر شيئا مهما سوى الفراغ المليء بالظلمة والأنفاق المتداخلة التي لا حد لدكتتها واليأس الذي كان يغرق شيئا فشيئا في تدرجات اللون الأسود الذي ابتلع طوق الياسمين.

« يبدو أن الأمور لستها مطولة . »

منذ يومين وأنا أنتظر مجيء سارة ولكنها تتعنت وترفض الخروج . قتلتنني آلام الطلق ، لولا سيلفيا ما تحملتها . الطبيب قال ننتظر قليلا . قلت لك لا تأتي خوفا عليك مني ومن القتلة الذين صاروا يسلأون المكان . سأدعوك في الوقت المناسب . لا تزعل مني حبيبي ، أرجوك . يا مجنون أنا أحبك فلماذا تؤذي نفسك وتؤذي مني معك . ليس في نيتي تمزيبك ولكني مخنوقة ولا أستطيع رد أي شيء . أنت قريب مني . أنت في . أكلمك وأتمنى أن أعطيك كل ما في القلب وأستشيرك في كل ما يشغلني لكن عالمي صار مغلقا .

حبيبي . هذه الرسالة كتبها البارحة فقط وأنا ممددة على الفراش ، وكان علي أن أتخيل سقف الغرفة سماء واسعة لكي أستطيع الكتابة . أتأمل الأنجم علي أعثر على الطريق الذي ضيعته بالصدفة المجنونة . الصدفة المجنونة شاءت أن أحمل سارة في بطني . لو لم تكن منك لتخلصت منها . اليوم صار بطني مدورا مثل التفاحة وسارة صارت حقيقة . كم أتمنى أن أراك يوم الولادة . هل بإمكانك أن تفعل ذلك من أجلي؟ سأخبرك . سيلفيا بجائبي ، تقوم بكل شيء ، حتى وظيفة ساعي البريد . الله يكثر خيرها . تصبرني وأصبرها . كل مرة أشعر فيها بالسعادة ، تأتي الحالة التي تنغص علي حياتي . لدي شعور دائم بأنني كلما

رأيتك، ستكون تلك هي المرة الأخيرة ولهذا أريد أن أشيع منك. أن لا  
أخذك على ظهري كشوق محموم. أن أحبك فقط.

صباح الخير. كلماتك السابقة حركت في أشياء كثيرة. ظلت  
الورقة معي. في يدي. في جيبتي. في قلبي. وهي الآن تنام في صدري.  
أقرأها وأعيد قراءها. أغمض عيني لأراك بكل طولك من خلالها.  
كلامك بلسم جميل به أشفى من دائي. الحياة إذا لم تكن مشفوعة بأمل  
فهي قاسية جدا. صحراء جدد وقلق مستديم يقتل الروح. لكم تمنيت  
الحديث معك كلما رأيتك. الزمان المتاح لنا لا يسمح. لا يسمح إلا  
بصباح الخير وكيف الحال. القوالب الجاهزة التي نداري بها أشواقنا.

كم تتغير الدنيا؟ وأنا صغيرة، وضعت للحب تصورا جعلته في  
ذهني وها أنت تأتي اليوم ويمسحة يد واحدة، تكسر كل يقينياتي  
وإبهاماتي. معك أحيا. بدونك أموت ومعاً نهب كل ما رفضت الأقدار  
منحه لنا بسهولة ونشعر أنه حقنا الطبيعي. عندما فشلت قلت أنا أبالغ.

سأنتظرك يا حبيبتي مهما بعدت المسافات. ستكون لي بقلبك  
وروحك. لن يخدعني أحد فيك فأنا أعرفك من داخلك. رجل زاهر  
بالعطاء. سيبقى فرحي الذي لا يموت أبدا. نخب لقائنا ونخب الذين  
نحبهم ونكاية في القنلة والتمس والعيون الهمجية. كنا نعيش لحظة  
الاستثناءات الكبرى وكم كنت أود أن أسألك من علمك كل هذا الدلال؟  
هل هي امرأة مثلي أم أنه ولد معك ورضعته من حليب القرية؟ فيك شيء  
غريب ينبع بعفوية. تنازلت عن كل حقوقي مقابل وجهك. وها أنذني  
داخل الأرض الخراب أرمي بالبذرة لأرى شوقها وترعرعها وانبثاقها.  
ستزهر وردا وبتفسجا كما تشتهيها. سرويها من فيض عطاءاتنا. فيك كل  
ما اشتيت في حياتي.

لا يهمني أنك اليوم لم تعد لي ولا غدا عندما تضعك امرأة أخرى  
على صدرها وتحاول أن تزيل عنك وحدتك وحزنك ووحشة المكان  
والحزن والخيبات. كل هذا لا يهم، فأنا لا أطلب منك ما ليس لي.  
يبدو لي أن الحياة لم تمنحنا الكثير ولكنها منحتنا سعادة اللقاء العابر

وجمعنا في سرير واحد ولو كان ذلك لمدة محسوبة ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أجن بك. تكفيني سارة. ستكون حالة اختزال لكل هذا الحب المستحيل وهذا الشوق القاتل.

النزيف لم يعد يزعجني لكنني أشعر بتعب في القلب. ابن الكلب هذا القلب، كلما نسيت، ذكرني بهشاشته. البارحة رأيت شريطا علميا عن القلب في التليفزيون، ذكرني بحالتي. رأيتهم كيف يفتحون الصدر وكيف يعوضون القلب بجهاز آلي ثم يملأون الفس الصدري بالماء البارد ويمزلون القلب عن أي عمل حتى يقف ويبدأون بعدها شغلهم مثل أي مصلح للسيارات لكن مزاج القلب صعب إذ يمكن أن يظل نائما حتى بعد ربطه من جديد بالدورة الدموية ومحاولة إيقاظه. يعوضون الشرايين المسدودة بشرايين ينزعونها من الساقين، يوصلون من خلالها القلب مباشرة بالشريان المركزي. شيء مخيف ورائع. لأن الشخص الذي كان مجهدا ومتعبا، بعد مدة قصيرة يصير إنسانا عاديا وممتلئا حيوية. أفكر أحيانا إذا لم يكن من الأجدى لي التفكير في عملية من هذا النوع لحسم مشكلة القلب هذه.

سارة لا ترحمني لحظة واحدة. صارت متعبة. إنها ترهقني وكأنها تريد أن تثبت لي ارتباطها بي وحبها لي. سأحاول أن أنسى قسوة الحياة وأني لن أموت وأني سأعيش لك ولسارة.

لا تشغل بالك حبيبي. أنا في مستشفى الرازي، في المكان الجميل الذي تركتني فيه آخر مرة، بين أيد أمينة. لا شيء ينقصني، أنتظر اللحظة التي أعودك فيها لتأتي وأراك. مشتاقة إليك ولكن حياتك عزيزة علي ولا أريدك أن تكون ضحية لأنانيتي، لست في حاجة لاختبار حبك. أعرف أنك تحبني وهذا يكفيني. أريدك أن تظل حيا لترى ابنتك وتحملها بين يديك ولا أريد أن أكلفك مزيدا من الشقاوة. في الوقت الحالي الوضع صعب جدا. صالح يأتي كثيرا وفي كل الأوقات وزبانيته يرابطون باستمرار بعين المكان. وأنا كذلك تعبت من الكذب. جفت ذاكرتي. لا شيء يعطيني مبررا للحياة إلاك وإلا ما جدوى ما يحدث حولي؟ أرايت

لماذا أثبتت بك باستماتة؟ حتى عندما أريد أن أتخلى عن أنايتي، أجدني في عمقها.

أرجوك لا تركب رأسك ونائي.

لا تهتم كثيرا، سأندبر أمري. هذه المرة أسامحك. ستركني ألد لوحدي داخل الألم والصعوبات والخوف من الموت، لكن في المرات القادمة سأطالب بحضورك معي على طاولة التوليد حتى تعرف ما معنى أن نعطي الحياة لكائن هو جزء من لحمنا الذي يقطع منا. أذكر كلامك اليوم بمزيد من الحب والصبر:

«العلاقة الحقيقية هي ما ينشأ بين الجنين وأمه. تحمله، تكلمه، تتألم له وبه وبعدها تقبل حالة التمزق في جسدها؟ والأب أثناء ذلك ماذا يفعل؟ لا شيء. ينتظر كأى شخص يترقب دوره في عبادة. كل رجل يستطيع أن يكون أبا لأن العلاقة اكتسابية وامرأة واحدة، ووحيدة فقط تكون أما، لأن العلاقة طبيعية.»

كم كنت محقا.

أحبك. أحبك بجنون وأخاف عليك من أنايتي. لكن هذه المرة أسمى لأن أكون متعلقة حفاظا عليك. علينا جميعا.

لا أطلب منك الشيء الكثير سوى أن تمنحني ما تستطيعه من قلبك ودفئك وأشواقك.

حبيبتي التي تشتاق لك حتى وأنت معها.

أضع يدي على وجهي، أغمض عيني وأحاول أن أسترجع صفاء وجهك: ياه؟ ما أبعدك وما أقربك؟

دمت لحبيبتيك ومجنونتك التي تفتقدك كثيرا.

ماذا يعني أن ينسحب الإنسان شاباً؟ كرها للحياة؟ سادية إلهية؟ خطأ في التكوين أو مجرد رغبة مجنونة للتخلي عن حياة لم تعد مقنعة كثيراً ولم تعد تمنحنا أكثر مما نعرفه عنها؟  
لا أدري سوى أن ما كنت أخافه حصل بالفعل .  
كل شيء كان بارداً .

حتى مشفى الرازي لم يسلم من ذلك .  
عرفت كل شيء . لم يكن أحد بحاجة لأن يشرح لي ما حدث .  
رأيت العيون مورمة . شيء ما فيها كان قد انتفى ألّقه ومات .  
تليفون سيلفيا وبكاءها كان واضحاً . لم تقل شيئاً ولم أسألها . قلب مريم فعلها وتخلي عنها في وقت كان عليه أن يقاوم باستماتة . مريم كانت من نور وأشعة ويللور تنكسر أشعته على كل الأمكنة المظلمة .  
لم أطلب شيئاً . طريق الموت معروف برائحته .

منذ طفولتي وأنا أعرف أن للموت رائحة كنت أشمها من بعيد .  
جدتي عندما شاخت بدأت تغزوها هذه الرائحة ، طيبة ومخيفة ، مزيج من الكحل وعود النوار والمارمان ورائحة الجلد .

لم أسأل الممرضة التي صارت الآن تعرفني منذ أن رأيتني في المرة الأولى حينما سألتها عن مريم وقلبي في فمي . ومن كثرة الحديث معها

في التليفون. نسيت المحيط وعيون القتلة التي كانت تنصيد كل حركاتي وأسئلة المرضى المعلقة في عيونهم.

قالت وهي تسبقني:

- من فضلك، من هنا...؟

في نفس الاتجاه الذي كنت أسلكه.

أخذتني الممرضة من يدي وهي تضغط على كفي البارد الذي صار يشبه جسد أم مريم. أدخلتني إلى قاعة صغيرة معطرة ومحاطة بالنوار مثل الذي يمارس خلوة خاصة. دخلت بهدوء برجلي اليمنى وكأني بدأت أعبر طوق الياسمين التي ملأت روائحها أنفي فجأة.

تمتت الممرضة وكأنها قرأت ما كان بقلبي. كانت سيلفيا تتبعنا من بعيد ولم تقترب أبدا.

- كانت امرأة شجاعة. لكن القلب مثل الله، عندما يشاء، يشاء. طلبت مني قبل أن تطبق عينيها أن أرش الغرفة بالياسمين، ففعلت يا سيدي وطلبت أن تراك ولكن الموت لم يسعفها. أعرف قليلا ما كان يشتعل في قلبها.

قبل أن يؤخذا نحو برادات الموت، كان الجسدان نائمين أو في غفوة مثل تلك التي تأخذنا ونحن نعبر المنافذ الضيقة لـ طوق الياسمين. اقتربت قليلا. رأيت مريم. لا شيء فيها تغير؟ الموت قهر حركتها ولم يمسس جوهرها. كانت الابتسامة الأخيرة ما تزال عالقة بشفتيها وكأنها في حلم وردي. ضفيريها على صدرها مثل سنبلتين ممتلئتين. يحوط الرقبة شال فلسطيني مرقط بالأسود والأبيض أهدته لها ماسة عندما ذهبت إلى بيروت. لم تكن الكوفية مجرد لباس، فلسطين حتى وهي بعيدة تمنحنا الكثير من الدفء. بجانبها سارة. سارة كما اشتيتها وتخليتها. ملفوفة في نفس اللباس الوردي. وجه حي كنسمة صباحية. هادئة، نائمة على ذراع أمها كأن الاثنين تحتيمان داخل الظل، من شمس قاسية فقط. لم تكن سارة تبكي. غرقت في ملامحها

الصغيرة. كان فيها الكثير من مريم وتشبه صورة لي وعمري لم يتجاوز بعد السنة. فكرت أن أحمل سارة بين ذراعي قليلا ولكنني خفت أن أوقظهما. قبلتهما بهدوء وتركتهما تنامان مخمضتي العيون خوفا من الغشاوة التي تصيب كل العابرين. كانتا تسلكان ممرات وخلجان طوق الياسمين في العوامة مع الدليل، وسط الأنوار والضباب والأشعة القوية التي كانت تنكسر على سطح الماء الفضي، الأملس والصابي كمرآة.

لم أبك لأنني كنت خارج الزمن.

لم أحي أحدًا. خرجتُ وذهبتُ وفي رأسي فكرة واحدة، تحضير البيت ورشه بالنوار والياسمين لاستقبالهما، أو على الأقل هكذا بدا لي. كنت مثل الرجل الآلي، كل خطواتي لم تكن ملكي. كنت مبرمجا. تبعتني سيلفيا. كانت مثلي صامته. قطعت معي البهو وكل الأدراج. هي كذلك لم تركب المصعد. عند المخرج، دفعتنني نحو الزاوية المضللة وخارج الضوء. ارتمت على صدري وتركت العنان لنحيبها. كانت تبكي مريم ولكنها كانت تبكي كذلك عيد عشاب. مسدتُ على شعرها بدون أن أتكلم. كنت عاجزا عن فتح فمي. كل طاقتي كانت متلاشية ولم أعرف كيف استمرت واقفا.

وضعتُ سيلفيا في كفي وهي تمسح عينيها اللتين تورمتا بسرعة، مجموعة رسائل وسلسلة وهي تتمتم:

- ظلت ملتصقة بصورتك حتى اللحظة الأخيرة. مريم ذهبت ولا شيء في ذاكرتها إلا وجهك وحزنها أنها لم ترك تحمل بين يديك سارة. احفظها في قلبك. سلمتُ وصيتها للطبيب كما أمرتني قبل الولادة. قرأها أمامي وقال لي إنه سيتخذ كل الإجراءات اللازمة عند الضرورة.

- قلبي الآن مغلق. هل أوصتك بشيء آخر؟

- أن أسلمك هذه الأوراق وهذه السلسلة الذهبية التي تقول إن أمها أنقذتها من فكي عيشة الدلالة التي ابتلعت كل سيغتها وكانت تنوي وضعها في معصم سارة عندما تكبر قليلا. وأن أقول لك إنها طوال

حياتها لم تفعل شيئا سوى البحث اليائس والمحموم عنك وعن سارة .

«عشرون سنة مرت ولا شيء تغير.»

لم أنتبه مطلقا . لم أفكر . كان يفترض أن أرجع وأعقد السلسلة الذهبية في يد سارة ولكني لم أفعل لأنني لم أكن هنا ، كنت هناك . عندما غادرت المكان كانت الظلمة قد نزلت .

لم أر شيئا سوى مريم وسارة والظلال الباردة التي بدأت تنتشر فوقهما والضباب الكثيف الذي غطاهما فجأة ولم أعد أرى شيئا . صورة واحدة بقيت في ذاكرتي ، كان وجهاهما صافيين مثل الثلج ومثل ذلك المساء الممطر عندما نامت مريم على ذراعي الأيسر قريبة من قلبي .

لم أكن أفهم جيدا ما حدث .

في مفترق الطرق كنت ، بين الحلم والكابوس .

كنت منكسرا .

يا بما ما أرق قلمك وما أقساه؟

روايتك الأخيرة قرأتها أكثر من مرة لكنها المرة الأولى التي أقرأها بحرية ولذة وأنا في فراشي وليس في المرحاض، كلما قلبت صفحة أرتعش قلبي خوفا من أن يكون صالح أو أحد زبائنه قد سمعوني وكشفوا سري.

من أعطاك كل هذه الأناقة في الكلام وهذا العنف؟ لقد وضعت قصتنا بين أيدي كل الناس؟ هل هو الألم الذي جننك وهبلك؟ هل هو سحر الكتابة الذي لا يقاوم؟ هل كنت مثلي، ضحية أبجديات الكلام؟ سعيدة بهذا الموت، فقد منحني أجمل هدية: حبك. حولني إلى لغة وهل هناك حلم أجمل بالنسبة لامرأة من تحويلها إلى أبجدية مشتركة؟ لا يمكن أن نكتب هكذا إذا لم يكن من وراء ذلك شعلة حارقة. أنا التي كنت أظن أن كل شيء انتهى، أجدني اليوم معلقة على كلماتك وأشواقك وجنونك الذي لا حد له.

حبيبي، كم أشتاق إليك. رسالتي هذه المرة تشبهني كثيرا. مرتبة وحروفها هشة جدا. ربما لأنها الأخيرة. يبدو لي أن هذه المرة سأتركك. الطبيب لم يكن متفائلا لوضعي. لم يقل شيئا ولكن خزرته لم تعجبني وهو يقرأ نتائج التحاليل الطبية.

«عينك على سارة حبيبي، إنها أجمل هداياك.»

عندما تكبر سارة، خذها إلى طوق الياسمين. أدخلها الخلدجان المتراصّة كما فعلتُ معي، أتركها ترى النوارس وهي تقفز من أمام رجليها الصغيرتين قبل أن تندفن في الضباب وبعدها عمدها في مصبات بردى. عندما يملأ النور لأول مرة عينيها الطريتين، ستصيحها غشاوة وبعدها غفوة قبل أن ينفث أمامها النهر بكل قدميته وعظمته. ساعدها على امتطاء العوامة وسيرا مع بعض ستريناني في الأفق. قل لها إن أمك هناك وستصل إليها ذات يوم ولكن كل واحد عبر طريقه ومسالكه.

الله بدأ يسمع دعواي. أريد أن أغادر هذه الأرض وأنا قادرة على المشي والحب والتميز حتى أستطيع أن أقف أمامه بكبرياء وحب. لا أريد أن أدخل عرشه مهدة. كنت دائما أحسد ماسة التي تركت سعادتنا الصغيرة وركضت وراء صديقها الفلسطيني الطيب لتموت على ذراعيه أيام الاجتياح الإسرائيلي، وهي توزع جريدة المعركة ليس بعيدا عن ملعب بيروت. الحب هو سيد الكرامات الكبرى.

أستطيع اليوم أن أموت بدون تردد.

لا شيء لي سوى حبك والموت فيك. من هذه الناحية، صممت أن لا أعادي قدرتي حتى ولو قادني ذلك إلى حتفي.

لا أريد أن أزيدك شقاوة على ما ستعانيه. أعرف أن حبك لي كبير ولهذا فهذا المساء عندما أرحل، سأرحل بوجهك وقد أترك لك ما تقاسمناه بعشق كبير. وإذا حدث وأن ذهبت معي سارة، لا تحزن كثيرا. حافظ على نفسك. ستنتظرك هناك. ستكون وحيدا داخل العزلة وسأكون بصحبة هذه الدلوعة التي لا شيء يرضيها إلا إذا سحبتني معها. الأطباء لم يقولوا شيئا ولكني أعرف من عيونهم أن الولادة ستكون عسيرة والقلب المريض والهش سيكون تحت رحمة مزاجه الخاص ويمكن أن يتخلى عني في أية لحظة. قلبي غير وفي ولهذا فأنا لا أثق فيه وأخاف أن يخادعني ويأخذني على حين غرة.

يبدو أن رجلي هذه المرة صار وشيكا.

هل تعرف أنك أهدل رجل عرفته في حياتي؟ صحيح أني لم أعرف الكثير ولكن مع ذلك أنت لوحذك. وحق ربي لوحذك ولا أحد يضاهيك يا حبيبي؟ شيء فيك يستعصي على مقاومة أية امرأة مهما كانت. أيها المهبول، ألا تخاف عليّ وعليك؟ ترميني هكذا في جحيم الموت كأية أضحية فرعونية توضع في قارب خال من الحياة وتترك لوحدها في مواجهة الموت أمام إله قليلا ما يرحم؟ اليوم فقط انتهت من قراءة روايتك ووضعتها جانبا وبقيت مع دهشتي، هل هذا الرجل يحبني إلى هذه الدرجة ولهذا يورطني إلى درجة قصوى؟ بقيت في دوامة وحيرة وكل أجوبتي انكسرت. هل الحب يدفعنا إلى هذه الدرجة من التخيل بل والافتراض الذي قليلا ما يخطئ عندما يكون صادقا، وإذا أخطأ، هذا يعني أن بعض الصديق ينقصه. وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ ماذا لو قرأ صالح هذا النص؟ ماذا سأقول له. لم يعد بحاجة لسماع ما يرتبك في قلبي. هو نفسه مل مني ولم يعد قادرا على تحمل هذه الحالة. تعرف منذ مدة وأنا أقرأ كتاباتك في الحمام حتى لا يشك في أحد ولا يحس بالنار التي كانت تأكلني من الداخل. الخوف والهلع ينتابني من محاكمة ينتهياً لها المقعدون. الوجوه الشاحبة تستحضر أدواتها القاتلة. عالم بأكمله ينتهياً لمطاردتي بمزيد من الإدانة والتنديد. السؤال الذي يؤرقهم: هل صحيح أنها تحبه وأنها تنام معه كلما خلت به؟ لا يملكون الأجوبة ولكني أوفر لهم فرصة للحياة من خلال محنتي. يقتاتون من جسدي. أحيانا أنساءل عن قوة هذا المرض المستفحل؟ أيعقل أن يجعلوني قصة لهم ولهن وأنا أعرف جيدا الأصدقاء والصديقات الذين يعيشون معهم؟ أعرف حتى البيوت التي يرتادونها؟ لماذا المرأة أكثر حقدا على المرأة وأقل تسامحا معها؟ أعطيت لصالح ما استطعته لكن حالة العبث كسرتني ولا أريد أن أموت وأنا في حالة كذب مع نفسي. خطئي الوحيد هو أن سارة منك. ربما كانت سارة هي أصدق وأنجح ما ربحته من الحياة. أخطر حب هو حب الطفولة. من الصعب التنصل منه. وأنا فتحت عيني متأخرة عليك. الله غالب.

انفضت من مكاني، حدثت حولي. الصمت ما يزال يلف هذه المدينة. الغريب ليس بهذه المدينة بحر ولكني كلما بذلت مجهودا وقمت من فراشي ونظرت من النافذة شاهدت فراغا في الأفق يعطيني الإحساس بوجود هذا البحر أو على الأقل يرميني في طوق الياسمين. وضعت روايتك تحت الوسادة وحاولت عبثا أن أنام. صعب. حتى صالح لم يعد يعطي قيمة للأشياء المحيطة بي. أمري لم يعد يعنيه كثيرا إلا من حيث هو حالة تمسه. كم أشتهي أن لا أكون، أن أزعل منك ولكن شيئا في داخلي يستعصي علي لا يمنحني أية فرصة لرفضك. أشتك وكم أشتهي أن أعضك وأدميك ولكنك مثل الزئبق كلما ظننت أنني وضعتك بين يدي، وجدتك هناك تنظر إلي مثل الجن وتسخر من سذاجتي. كم أشتهي أن أواجهك في مثل هذه الحالات لا للدفاع عن نفسي ولكن للمصراخ أمام الملائكة أنني أحبك. أحبك. لا أريد أن أظل مختبئة داخل صمتي.

الصمت من جديد. كل الليل مر هكذا. النور يتسرب من بين شقوق النافذة. الساعات تزحف وعلي أن أقوم لأمشي قليلا حتى تكون الولادة سهلة ولا يتعب القلب. هذه الأيام صار ينهكني وصرت أرهق بسرعة. لماذا نصر دائما بتواطؤ مع القدر، على وضعي في زاوية الفجيرة. ألم يكن بإمكانك أن توقفني عن غيبي في ذلك الصيف المجنون؟ نضحك كمادتك أو تنكت؟

«أنت مخطئة يا حبيبتي. أنا لا أعرف سوى الكتابة عن امرأة لم يعرف قلبي المهبول سواها. سيأتي زمن ويحكى عنا إما كشياطين وإما كملائكة. هل تتخيلين قيسا سعيدا ولبلى فرحة وهما في غمرة التجربة؟ ها أنت تكنسين ذعرك الداخلي. أحبك هكذا وسط هذا الشطط. أنا لست مصرا على قتلك أبدا. أطمح أن أونس غربتك وقلقك ووجدتك وشططك، لتدركي أنك لست وحيدة وسط هذا القفر الذي اسمه الحياة. أريدك أن تحافظي على هذا الألق الذي يجب أن يظل حيا ومشعا. هل تريدني أن أصمت وأنسحب؟»

من أين تأتيك كل هذه الكلمات التي تضيعني؟ من أين يأتيك كل هذا السحر الذي يُنسني مأساتي ويربطني بك بقوة أكثر؟ من أين تأتي بكل هذه الوداعة التي تجعلني أغفر لك كل حماقاتك وأزداد ارتباطا بك؟ أنت تقتلني بحبك. ماذا أفعل معك؟ يبدو أنني لا أملك سوى أن أنسى ألمي وأراك لأشيع منك قبل أن أتركك. فتحت عيني على أجمل وهم تعيشه البشرية وتدافع عنه، الحب. كتاباتك ولدت في جروحا ودموعا وعلامات استفهام. بقدر ما أشعر بالحب، يتشابني الإحساس الغريب بالموت. أنتش عنك وأخاف على رهاقتك مني. مدنا غابات موحشة. أحيانا أنساءل كيف ملكت القوة لاختراق كل الأغلفة الوهمية ووصلت إلي. كنت خلف كتل الضباب لا يكاد وجهي يظهر أبدا. حتى ملامحي انكسرت. استطعت أن تلمس قلبي وأشواقني وتجبرني نحوك. أنت مثل عرض البحر كلما اقتربنا منك ازددنا انجذابا وخوفا. كم أشتغي أن أهرب منك وأن لا أضطرب أمامك. أحيانا أرتجف لمجرد ذكر اسمك. أخيرا اهتديت إليك من خلال أحرفك التي تقول فيها كل شيء بأقصى حب ممكن. أنا اليوم لم أعد مستعدة أن أخسرك بعد أن وجدتك. كلما رايتك ارنسمت في ذهني مباشرة كل اللحظات الجميلة التي حوربنا فيها. لا لست مستعدة لخسرانك أبدا ولو خسرت كل هذا الرفاه الوهمي الذي يحيط بي. أشتغي أن أتعلم كيف أكون مجنونة في عينيك بدل أن أكون عاقلة في عيون الآخرين. منذ عودتي من مآثم الزواج، جربت أن لا ألقاك وأن لا أسلم عليك كما يشتهي القتل والتافهون. ولكني كلما عدت إلى نفسي احتقرتها لأنني كنت كاذبة على محيط لن يصدقني حتى ولو انتحرت وقدمت له كل التنازلات. ليس السلام هو الذي يحدد الحب ولكن العين التي نخبي عبثا أشواقها والقلب الذي لا يستسلم للأهواء السهلة. كلما رايتك أشعر بك تناديني كما كنت تفعل دائما: مريم... تعالي. عندما أهم بالانصراف تطلب مني البقاء قليلا. لو لم تفعل ذلك للعنك من كل قلبي. حبيتي، هل نلتقي اليوم؟ كلمتك التي لا تموت أبدا ولا تتراجع ولا تستسلم. أي سحر تحمله هذه الكلمات؟ الوجوه

الضبابية لا تمنعنا من اللقاء والحب. الضبابيون كلما تأملوني عروني من لباسي. العجيب أنني سمعت عنك الكثير قبل أن أراك. الشجاعة، القوة، الميث، المغامرة. أتساءل إذا لم يكن الذين تكلموا عنك وكرهوك هم الذين دفعوني نحوك بشكل أعمى. من يكون هذا الكائن الذي ألصقت به كل هذه التهم المتناقضة؟ كلما رفعت رأسي، رأيتك تعبر الأمكنة بهدوء وابتناسمتك الملعونة الاستثنائية التي لا أفهمها إلا أنا. كل سر السخرية هو في الانحجاسة اليمنى لشفتيك. كلما رأيتك نساءلت هل يعقل أن يكون هذا الإنسان الطيب والودود بكل هذه التعددية من التوحش إلى أقصى درجات الصفاقة؟ مع الزمن أدركت أن الغيرة وحدها هي التي كانت تحرك البشر بمختلف أهوائهم. لا شيء يفسر ردود أفعالهم سوى ذلك. إذا لم تكن المرأة هي أول من يدرك ما خفي من السيرة من نراه يكشف جوهر الأشياء؟ أراهم يربطون عند المداخل لاقتناص كل حركاتك ومع الزمن ضمونني إليك. اقرأ في عيونهم شهواتهم المنكسرة ولكنني هنا. في حلقهم. حزينة فقط لأنني سأتركك وحيدا ولكنني أعرف أنك ستجد بحاستك العالية المرأة التي تليق بك. تذكر حبيبتك التي باعت كل شيء للشيطان مقابل أن تريح قلبك وأشواقك. لا أتذكر شيئا سوى تلك العاصفة العنيفة التي قادتني نحوك. لم أتمكن الفرار من ظلك. كم مرة أقنعت نفسي وكذبت عليها بأنني متزوجة وعلي أن أنساك ولكن عبثا. في هذا، كل النساء كاذبات لأننا لا نترك رجلا لأننا نريد ذلك ولكن عندما تشتهي الذاكرة. نحمله كل خساراتنا ومع ذلك نظل له وحده حتى في أدق اللحظات حميمية. تصور حتى عندما أنام معه، أجدني في الفراش معك وليس معه. أنت قدرتي ومن الصعب علي أن أهرب من قدرتي المسلط علي.

هل لي أن أطلب منك شيئا صغيرا، تركته في وصيتي الموضوعة لدى سيلفيا، إذا مت، أن تدفني على هذه الأرض ليس بعيدا عن عيد عشاب الذي عاش ما كسب، مات ما خلى. لا أرض لي هناك. أرضنا صارت ضيقة حتى على أهاليها ولا أريد أن أضايق أحدا. تربة المنفى

أحيانا أرحم. لقد مات الذين كانوا من حين لآخر يسألون عني. أنت وحدك يمكنك أن تتذكرني. لا أطلبك بالشيء الكثير، فقط، كلما زرت هذه الأرض، عرج واسألني وأنا في قبري إن كنت سعيدة هناك وهل مازلت أشعر بالبرودة كما كان يحدث مع أمي؟ لا شيء يخيفني في الموت سوى البرودة والإحساس المزمّن بغياب الصدر الدافئ الذي نركن له عند الحاجة.

اليوم لم يعد شيء يعنيني. الحب يحمل أحيانا في جوهرة بذرة الموت والنهاية ولهذا صممت أن أقرأك علانية ولن أضطر إلى التخبؤ في المرحاض لقراءتك، وأن أحبك حتى الموت مثلما كنت تفعل معي دائما وما عليّش بعدها إذا مت بالفعل.

شكرا لك لأنك أطلقت علي النار بحبك وبكتاباتك. ربما طوال معرفتي بك، ومنذ الرسالة الأولى في رأس تلك السنة التي انسحبت بسرعة، لم أكن أفعل شيئا سوى استدراجك نحو هذه الحمافة التي أقدمت عليها اليوم. كنت أريدك أن تقول لي أحبك بالشكل الذي يشبهني فقلتها بالشكل الذي يشبهك. يشبهنا.

وهل هناك موت أجمل من موت سبيه قصيدة أم رواية؟

مهبولتك التي تبحث عنك حتى وهي في القبر.

البرد وعزلة المقابر وعشرون سنة من المحاولات اليائسة لنسيانك  
وفصول السنة التي لا تتغير أبدا في هذه المدينة .

« لا تحزن . في الأفق دائما شيء آخر . احذر الأقدار حبيبي . فهي  
تأخذ كل مزاحنا مأخذ الجدية . »

أصبحت بعدواي . فذهبت أنتِ وبقيتُ أنا .

لا أدري ما الذي ذكرني بالجمال الأخيرة في مذكرات عيد عشاب  
الله يرحمه ويوسع عليه . يبدو أنه كتبها بسرعة قبل أن يغلق نهائيا كراسته  
وينسحب بصمت على رؤوس أصابعه حتى لا يربك أحدا من أحبته  
وأصدقائه :

«باب الياس: حبيبتي سيلفيا... من أين أبدا هذا الألم وهذا الحزن  
الذي صار مثل الفيض يملأني ويقودني نحو ياسي الكبير؟ كل أصدقائي  
انسحبوا من هذه المدينة وبقيت وحدي. البارحة رأيت حلما أخرجني من  
وضع وادخلني في وضع آخر. رأيت سيدي الأعظم محي الدين ابن  
عربي مرتديا لباسا خيوطه من الحرير الأبيض والفضة. في يده اليمنى  
عصى من قصب البانبو، يتكئ عليها كلما شعر بالتعب. طلب مني أن  
أتبعه نحو طوق الياسمين. كنت أعرف أنه يقودني نحو الموت ولكني لم  
أتردد لحظة واحدة. كانت رائحة الياسمين والنباتات الاستوائية قوية.  
فجأة قام من قدام أرجلنا سرب من الطيور الملونة والفراشات، عرفت  
أننا صرنا قريبيين من المصبات المائية. مشينا قليلا وإذ بالماء ينهض

امامنا مثل الشلالات. سألت عن الدليل، قال لي سيدي الأعظم وهو يضع يده الزكية على فمي: شششتتت، لقد مات منذ أكثر من قرن. جئت لأخذك معي فانا أعرف باب العبور نحو النور جيدا وأعرف كيف أخرج من الطوق القاتل بسحره وأريجه. سألته، وكيف ستفعل يا سيدي وانت لا تملك عوامة ثم أن هذا النور يخيفني يا سيدي الأعظم. قال مرة أخرى وهو يضع أصابعه على فمي: شششتت... النور نعمة. ثم أخذني من يدي. شد علي جيدا وبدأ يمشي على الماء كمن يمشي على اليابسة، وسط الضباب والأنوار التي عممتني ولم أعد أرى شيئا. شعرت بالخوف: أنا خائف يا سيدي. الغشاوة أعمتني. ولكنه طمأنني بأننا بداننا نقطع باب العبور نحو اللامكان. ثم فجأة سمعت عواء مخيفاً آتياً من هضبات الزبداني الخالية، فقلت: يا سيدي الأعظم، الذئاب. أخشى يا مولاي أن يكون اللامكان كذلك مليئاً بالذئاب؟ نظر إلى وجهي بملامح غريبة تحولت فجأة لتصير كالحة ومكفهرة. شعرت بالظلام يملاً عينيه، ثم سحب يده من كفي وتركني أغرق وهو يتشفى في: الآن عم بحرك. جئت لأفك وثاقتك وأنقذك ولكن خوفك حرك حتى الذئاب التي ماتت منذ قرون. إنذهب فأنت الطليق وعم بحرك. فقلت: لا أعرف العوم. قال: إذن أغلق عينيك وفمك وسد أذنك وأترك نفسك تتهاوى نحو القاع، فهناك من ينتظرك لتصير طعماً له. زاد خوفاً. عرفت أن سيدي كان يدعوني نحو المقاومة وعدم الاستسلام أمام المصاعب، فحاولت ولكن قواي الداخلية وقناعاتي كانت ضعيفة جداً ومهتزة. وعندما سدت المياه فمي، استيقظت فجأة وأنا أرتعش طالبا العذر من سيدي الأعظم.

أرأيت يا سيلفيا؟ سهام ماتت في الوقت الذي كان ينتظر الأصدقاء مناقشتها لموضوع العمر التي قضت فيه زهرة شبابها ولم يسمع أحد في هذا القفر أنينها غيري. أبوك أقسم أن لا تلمس جسده يد مسلم وهو لا يعرف أن لا سلطان على الجسد أبداً. أصدقائي ذهبوا أو يستعدون للعودة إلى أرضهم الأولى. حتى سيدي الأعظم تخلى عني؟ لم يبق لي أحد. لا ذنب لك ولا ذنب لي أيضاً في كل ما حصل ويحصل لنا، كلانا ضحية كيانات مفلسة. أبوك رفض سعادتنا والدي رمانى في برية كأي

حيوان ثم ضاع في قفر الربع الخالي. اليوم وأنا في كامل قواي العقلية، صممت أن أخطو الخطوة الكبرى التي تترقب عنها كسورات كثيرة ولكنها منقذة للروح. أريد اليوم أن أحرك مني لتتمكني من رؤية الدنيا بوضوح أكثر. بدءاً من هذه اللحظة قررت أن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات القلقة وأن أذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في الكون. تعبت من اللاجدوى ولم يبق لي ما أقوله لحياة قلقة لم تعد تأبه بي كثيراً ولا تسمعني جيداً ولا تذكرني إلا بمزيد من الأمراض والمآسي. شكراً لحبك، فقد كان فيه الكثير من نبلك.»

من أوراق عيد عشاب.

بعد مدة قصيرة وجد عيد عشاب ميتاً وبجانبه أربع قناني عرق ريان فارغة وقنينة نبيذ جزائري والكثير من قناني البراندي وقارورة أقراص بيضاء نزعّت منها كل الإشارات الطبية التي تحيل إلى نوعية الدواء والمؤسسة التي أنتجت. لم يسر وراء نعشه يومها إلا أصدقاء قليلون. حتى السفارة التي أعلمت بخبر الوفاة في الليلة نفسها، ردت بعد أسبوع أنه غير مسجل لديها ضمن قوائم الجالية وبالتالي فهي غير معنية به. كان وقتها عيد قد دفن.

سفاراتنا في الخارج تكرم دائماً موتاهنا بنفس الطريقة التي يكرم بها شخص وجد على حافة الطريق، بدون أوراق ولا هوية.

عاش وحيداً ومات وحيداً مثل سيده الأكبر الشيخ محي الدين بن عربي، الذي أحبه بشكل مبهم فيه رغبة الإكتشاف والخوف من شيء غامض لم يدركه أبداً.

عندما يرحل الذين نحبه، يأخذون معهم كل أشياءهم الصغيرة إلا ابتساماتهم وأسئلتهم فهي تبقى معنا. ماذا بقي من رماد الأيام؟ لا شيء سوى وجهين يملأهما النور والأشواق والحنين إلى دنيا لم تكن دائماً سهلة.

كان قلبي ممتلئاً. فضلت فقط أن أحتفظ بالصورة القديمة لامرأة

كانت تلعب بضفاثرها لحظة الفرح وتأكل أظافرها عندما تكون قلقة وتفكر في شيء لا تريد أن تقاسمه مع أحد. تضحك دائما وتقول النكت الأكثر سخرية. وأن أثبت في الذاكرة ابتسامة سارة وهي تسند رأسها الصغيرة على صدر مريم بعد أن شبت حلياً وعطفاً وحناناً وحباً.

الموت أقل ألماً من الأمراض لكن وجمعه غير مرئي. وكل ما ليس مرئياً يحضر في الخفاء.

الشمس القوية جعلت المقبرة في ذلك اليوم أكثر دفئاً. لم تكن باردة، فقد تحسست التربة بيدي. فرحت لمريم. البرودة تزيد من عزلة الحي فما بالك بالنسبة للميت؟

لست أدري ما الذي قادني في ذلك اليوم... قبل عشرين سنة، إلى هناك... الباب المؤدي إلى طوق الياسمين حيث كل شيء على حاله الأول، لم يتغير أبداً.

عندما صرت قريباً من النهر، تأملت المدينة من أعلى قمة فشعرت بتضاؤلها وصغرها اللامتناهي وسمعت فجأة أذاناً كان يعلن في الغياب عن خواء يشبه الموت في كل تفاصيله. وسمعت ذئبا يعوي ألماً وليس جوعاً. انحدرت بعدها نحو مصبات بردى. عبرت طوق الياسمين بمشقة، المدخل الوحيد للنهر، المغطى بالقصب والديس والدفلى والبانوب والنباتات العملاقة التي تذكر بالمناطق الاستوائية. في تلك اللحظة بالذات تذكرت خاتمة مذكرات عيد عشاب. لم يكتب بالسبعين صفحة الأخيرة شيئاً سوى عنوان: باب «طوق الياسمين». صفرة الأوراق توحى بأن شيئاً خُطئ وتلف مع الزمن، لأن لون الأوراق التالية للسبعين صفحة، بيضاء وصافية. ربما كان الباب الوحيد الذي لم يستطع فتحه. كان دائماً يقول على لسان معلمه وسيده الأعظم: إنه أصعب الأبواب وأكثرها انسداداً. الباب الذي يأتي بعده النور الذي يغشي الأبصار وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم والله أعلم.

بعدها وجدت نفسي في مواجهة منبع النهر الأكبر الذي كان غارقاً

في الضوء وانكسارات أشعة الشمس الفضية . شعرت بألم في عيني من جراء انعكاسها على وجهي . في ثانية واحدة لم أر شيئا . كان النور طاغيا على كل شيء . وضعت إكليل الغار والرجس في نبع النهر وتخيلتك أنت ومارة على العوامة التي كنا نشق بها النهر أيام الفرح ، مسندة رأسك على ذراعي الأيمن ، ليس بعيدا عن القلب الذي كان خفقانه هذه المرة يتضاءل ويزداد خفوتا ربما كان ذلك بسبب التعب فقط .

— وينك؟ لا تضيّع. خليك معانا. أنا هون بجنبك، ما شايفني؟  
تماما بالقرب منك. شو؟ حرام عليك. هيك بتهرّب وبتتركني لحالي؟  
بعد شوي بيمر علي جورج وأتركك لحالك هون بالمقبرة.

كانت كلمات سيلفيا كالماء. فتحت عيني. كان الضباب قد اكتسح  
المكان كليا وأصبحنا نعوم فيه، نحن والمقبرة والنباتات الموحشة، مثل  
الأشباح.

رفعت سيلفيا القبعة قليلا والشاش الأسود ورأسها ونظرت إلي. لم  
أكن هنا. ولكنني رأيت في عينيها الخضراوين نورا لم يمت مثل الذي  
تعود عيد عشاب أن يحكي لي عنه أيام سعادته، قبل عشرين سنة. ثم  
نزعت القفاز الأسود ودفنت يدها في كفي. كانت دافئة مثل وجهها الذي  
لم يتغير كثيرا.

— اعذرني. الأموات يأخذون كل وقتنا. لم أسألك عن أحوالك؟  
كيف أنت في أرضك؟ أبناؤك. عملك؟ أنا أنجبت اثنين مارسيل وأنطون  
وننتظر مولودا ثالثا، ربما كان بنتا. زوجي يريد ذلك. عرفنا من الطبيب  
أنها بنت. أقول لنفسي، بلك استطعت إرضاء على الأقل من هذه  
الناحية وأقلل من تأنيب الضمير. سأسميها سارة. تعرف سخافة الأقدار،  
كان يمكن أن يكون عيد بيننا الآن وهو يلعب مع أبناؤه ولا يعدو أن  
يكون كل ما حصل له، مجرد كابوس ولكن...

سارة؟...

هي ذي تعود ثانية، على ظهرها حقيبتها المثقلة بالكراريس والكتب التي تقرأها والتي لا تقرأها، تركض بسرعة لكي تصل إلى الدار وتخرج دماها الصغيرة...

تحسست السلسلة الذهبية التي في جيبتي مرة أخرى. ستكون سارة سعيدة عندما تعرف أن الموت الذي أعمانني يومها فتح اليوم ذاكرتي على الحياة. تحسستها. بان لي معصما سارة أبيضين وممتلئين متدفقين بالنور.

- سارة...

- متأكدة أنني بهذا الاسم سأسعد مريم وأسعدك أيضا ما دمت لم تزوج ولم تنجب سارة.

- المشكلة أن الحب كما قلت يمكن أن يتحول إلى مرض. أنا أعيشه هكذا وأحتاج ربما إلى عمر آخر للشفاء من مريم ومن سارة. لم أتزوج لأنني لم أستطع ولأنني ربما لم أجد من يضغط علي لفعل ذلك مثلما حدث معك. أفقد كثيرا مريم وسارة. وكان يمكن أن يكونا هنا لو عرفت كيف أحبهما. ولكنني حتى في هذه أخفقت.

- لا تؤنب نفسك. العمر هكذا.

- ربما كان مثلما تقولين ولكن الأزمة كبيرة.

- مجموعة من الحماقات ولكن كذلك مجموعة من اللحظات الجميلة التي تذكركها بمزيد من العشق والحنين وبعض الصبر.

عندما أغلق الحارس باب المقبرة ورائنا ووضعنا في عمق كفه مائتي ليرة، كان جورج ينتظر عند مدخل الحديقة بسيارته. اقترح علي أن ينزلني إلى وسط المدينة ولكنني اعتذرت. لم تكن لدي رغبة لركوب سيارة. كنت فقط أريد أن أمشي بدون توقف.

- تسلم لي يا جورج. راجع بكرا صباحا عالبلد وكل أغراضني بالأوتيل. ما عليهش. مرة ثانية إن شاء الله.

- إن شاء الله .

هز رأسه . بحساسيته المرفهة ، كان جورج يعرف رغبتني في البقاء وحدي قليلا ولهذا لم يُصِرْ كثيرا .

قالت سيلفيا بعد أن عدلت ظهر الكرسي :

- ما راح أصر عليك مشان تجينا . أنت مو ضيف على البلد . البيت بيتك . شكرا لك أنك منحتني قدرا من الراحة لم أشعر به طوال العشرين سنة الماضية . ربما كان وجودك أو ربما . .

ثم التفتت نحو الضباب . هذه المرة لم تقاوم لمعان الدمعات التي ارتسمت في عمق عينيها .

أخذتُ كفها المرتعش ، كان مثل العصفور المبلل ، فتحتة عن آخره . وضعتُ داخله السلسلة الذهبية التي تركتها لي مريم منذ عشرين سنة . كنت أريد أن أدفنها في القبر لأنني يومها نسيت أن أضعها في معصم سارة . الموت وقتها لم يعطيني مهلة للتفكير . القسوة والجرح كانا فوق طاقتي . لكن سيلفيا التي جاءتني إلى المقبرة ، غيرت كل عزمي .

- شو؟

نساءلت سيلفيا بحيرة .

- لا شيء . تتذكرين السلسلة التي أنقذتها أم مريم من أنياب عيشة الدلالة؟ ضعيها في معصم سارة عندما تأتي إلى الدنيا . قولي لها من صديقة كان لها نفس اسمك . ألم يكن هذا حلم مريم؟

لم تقل شيئا ولكنها ضغطت على السلسلة وعلى يدي وعلى عينيها وأكثر على قلبها المرفه لكي يقاوم باستماتة .

- سيلفيا انتبهي لحالك وعينك على سارة وعلى مذكرات عيد .

- يا روحي . ستكون عزائي الكبير . معك الثليفون . وحياتك كلمني إذا ما رحت . أشعر كأنني لم أقل لك ما كان يجب أن أقوله .

- وأنا كذلك . مع السلامة .

لم أكن أكذب ولم أكن أقول الحقيقة . كانت رغبتى كبيرة للمشي وحيدا داخل هذه الحديقة التي تفتح على المقبرة .

كان المكان خاليا ربما لأن يوم الجمعة ارتبط في ذهني بالموت والفقدان . لم أشعر بالبرودة ولكني شعرت برغبة للعودة إلى المقبرة وكتابة وصيتي . كان برأسي شيء واحد: أن أعبر المدينة طولا وعرضا وأحرثها حتى الصباح . اليومان السابقان لم يكونا كافيين لأن أشبع من كل الأماكن التي لم أراها . أن أمشي حتى الصباح وبعدها أنزل نحو المطار . منذ يومين لم أتوقف عن المشي أبدا . دخلت فيلا الإطفائية التي كان يؤجرها طبيب أسنان متخرج من باريس . تغيرت كثيرا وصارت أكثر أناقة وسعر أجارها زاد عشر مرات . رحت للمصبات من الجهة العادية ووضعت الإكليل في وسط الماء . خفت أن أدخل طوق الياسمين من جهة الخلجان الاستوائية فأجد نفسي مكبلا ومطوقا وطعما سائغا للحياة العملاقة التي تروى عنها قصص كثيرة . كنت على يقين أنني لو فعلت ذلك لأصبت بالإغفاءة التي تقود نحو الموت وبالعشاوة التي لن تمنحني هذه المرة إلا الظلمة الأبدية . خفت من وحشة المكان التي كنت عاجزا عن مواجهتها لوحدي . انتهيت أن أستحم بحي سوق ساروجا لكن الحمام كان قد انسحب تاركا مكانه لسوق استهلاكية كبيرة ومحلات لبيع المجسمات السياحية والعطور الفرنسية . ذهبت إلى الجامعة واقتفيت رائحة عطر مريم ووقفت طويلا على أرصفة كراجات بيروت ومحطة البرامكة . وظل شيء ما فيّ عالقا ، كان يجب أن أراه ولم أراه . لم أعرفه أبدا . ربما كان طوق الياسمين . . . ربما . . .

عندما رفعت رأسي بالصدفة رأيت ممرا صغيرا ، قرأت على الصفيحة المعدنية القديمة المسمرة على الحائط : دوب الياسمين . هل هي الصدفة؟ لم أسأل كثيرا . دخلته . كانت سيارة جورج قد اندفنت في عمق الضباب ولم أعد أرى وأسمع سوى أضواء السيارات المشتعلة في وضوح النهار وهي تعبر الممر الضيق وهدير مصبات بردي وهي تتساقط عند مدخل النبع الذي كانت تسده النباتات الاستوائية الكثيفة .

كان درب الياسمين طويلا ولا يشبه الدروب العادية. كلما سلكته، ازداد تعقدا وتعرجا وكلما تقدمت أكثر، ازداد النور كثافة ولمعانا وحدة على العيون بسبب قوة بياض الضباب وكثافته والشمس التي خرجت فجأة من الظلمة وانكسرت أشعتها بعنف على سطح الماء. شيئا فشيئا توقفت حركة السيارات والبشر الذين كانوا يمرون مثل الظلال الهاربة ولم أعد أسمع شيئا إلا هبات الريح التي كانت توقف الأشجار من غفوتها وزخات المطر التي زادت قوتها في داخلي مصحوبة بمقاومتي المستميتة للطفل الذي رأيته أول مرة على حوافي طوق الياسمين وهو يكسر نشيدي كالمجنون، بعد أن مات البراق الذي كان يركبه، ولم أكن أدري لماذا تعدى علي بذلك الشكل السافر مع أن المتسبب في قتل البراق كان هو سيدنا نوح وليس أنا؟ وأحاول جاهدا أن أستعيد كلماتي الأولى التي بقيت عالقة في حلقي منذ أن شقق والذي صبيحة استقلال البلد وأعراسها، زفرته الأخيرة وهو يقاوم ردم مناجم الشمال التي كانت تنهارى عليه بكثافة وتسد كل منافذ التنفس أمامه وأمام من كان معه، حيث لا شيء سوى الظلمة والقسوة التي أبانت له وطننا كان يتضاءل بشكل مجنون مع آخر حرائق الخيبة واليأس والظلمة.

يصعد نشيدي المستعاد الذي كنت مصمما على إنهائه مهما كلفني الأمر. لم أكن هذه المرة مستعدا لإيقافه في منتصفه.

يا النو صبي، صبي،

ما نصبيش علي،

حتى يجي خويا حمو،

ويغطيني بالزربية.

يا النو... يا النو... يا النو صبي... صبي...

دمشق - الجزائر - باريس

خريف 1981 - شتاء 2001

## المحتويات

|     |       |                               |
|-----|-------|-------------------------------|
| 17  | ..... | الفصل الأول: سحر الحكاية      |
| 101 | ..... | الفصل الثاني: الطفلة والمدينة |
| 149 | ..... | الفصل الثالث: بداية التحول    |
| 195 | ..... | الفصل الرابع: مسالك النور     |

Twitter: @ketab\_n  
17.1.2012

## واسيني الأعرج طوق الياسمين

واسيني الأعرج: روائي جزائري، له العديد من الروايات المعروفة. يكتب بالفرنسية والعربية، وقد تُرجمت أعماله إلى عدة لغات.

ثم قلبت الصفحة. قرأت باب «طوق الياسمين». بحثت عبثاً عن النهاية. السبعون صفحة التي تلت هذا العنوان كانت عذراء وفارغة.

صفرة الأوراق توحى بأن شيئاً خُطّ وتُلف مع الزمن، فلون الأوراق التالية للسبعين صفحة بيضاء. ربما كان الباب الوحيد الذي لم يستطع فتحه.

كان دائماً يقول على لسان معلّمه وسيّده الأعظم: إنه أصعب الأبواب. الباب الذي يأتي بعده النور الذي يغشى الأبصار، وقد ذُكر ذلك في الكتاب الكريم والله أعلم.

\*\*\*

البرد وعزلة المقابر وعشرون سنة من المحاولات اليائسة لنسيانك يا مريم... أنا لا أعرف سوى الكتابة عن امرأة لم يعرف قلبي المهول سواها.

المركز الثقافي العربي  
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان  
ص ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب



جميع كتبنا متوفرة  
أيضاً على الإنترنت في  
مكتبة النيل والفرات  
www.neelwafurat.com